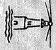
مجموعة سيكولوجية العلاقات الانسانية

بإشراف الدكتور عبد المنعم المليجي

التحليل النفسي والسلوك الجمالي

تأليف : سول شيدلنجر

ترجمة : الدكتور سامي محمود علي



دار المعارف بمصر

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

التحليل النفسي والسلوك الجماعي

مجموعة سيكولوچية العلاقات الإنسانية
بإشراف الدكتور عبد المنعم المليجى

التحليل النفسى والسلوك الجماعى

دراسة فى سيكولوچية الجماعات من وجهة نظر
التحليل النفسى

تأليف
سول شيدلنجر

وترجمة
الدكتور سامى محمود على

دكتوراه الدولة فى علم النفس من السربون
عضو الجمعية الباريسية للتحليل النفسى

طبعة ثانية



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

محتويات الكتاب

صفحة

الجزء الثانى

صفحة

هذا الكتاب مترجم عن الأصل الإنجليزى التالى :

Psychoanalysis and group behaviour

A study in Freudian grouppsychology

by

Saul Scheidlinger

(Norton & Company, Inc. New-York.)

تصدير

كلما تجمع نفر من الناس ، تولد عن ذلك شيء جديد هو الجماعة ، بمالها من خصائص وظواهر فريدة ، تتجلى أحياناً في مباغتة وقوة .

يحكي عضو إدارة أنه ترأس ذات مرة اجتماعاً عقدته إحدى اللجان ، سارت فيه الأمور في يسر وتعاون مجد إلى أن أزفت ساعة الاقتراع على موضوع هام ، كان يبدو كأنه مجرد إجراء شكلي ختامي . إذ ذاك أثار عضو لم يتكلم من قبل مسألة تافهة عرضية في ظاهرها ولكنها تنطوي على نقد خبيث للرئيس . وسرعان ما أيده بعض الحاضرين ، وكان تأييدهم ضعيفاً في البداية ثم تدرج إلى الحنق والغضب السافرين . وضم أنصار الرئيس الدائمون أصواتهم إلى هذا العجيج ، وبلغت السورة حد السباب الصارخ ، فأصبح من المحال كبح جماح الانفعالات . وعمت الفوضى الحاضرين ، فلم يكن بد من فض الاجتماع .

وثمة حكاية أخرى تحكيها معلمة في المدارس الابتدائية . قررت جماعة من تلاميذ السنة الثالثة القيام برحلة شيقة . وكانوا قد اتخذوا قرارهم هذا منذ أمد طويل . وحين أتى اليوم الموعود ، أقبلوا على المدرسة في فرح مبكرين ، ومعهم صناديق الغذاء وآلات التصوير ولوازم الألعاب الرياضية المنوعة . ولما تجمعوا في الفصل . أبلغتهم المعلمة أمراً من الناظر يقضي بإرجاء الرحلة إلى أجل غير مسمى لانتشار مرض معد في المدينة . فضج الأطفال وأصبح من المحال على المعلمة التقدم باقتراحات أخرى ، رغم ما أظهرت لهم من عطف على فشل مشروعهم ، وأخيراً استقر الرأي على التوجه إلى المنتزه القريب للعب فيه . وكانت هذه الجماعة متماسكة دائماً في لعبها إلا في هذه المرة . فالأطفال لم ينفكوا أن يتجادلوا حول كل كبيرة وصغيرة ، ولم ينقطعوا عن الشجار لغير سبب ظاهر .

وبعد الغداء ، أخذ الأحداث يتحرشون بأضعف فردين فى فصلهم ، فكان ثمة مشاكسة وسباب ، تلاهما تدافع وتضارب ، وما زال العدوان يشتد حتى اضطرت المعلمة إلى صرف الجماعة فى وقت مبكر .

هذان الحادثان مظهران من مظاهر السلوك الجماعى . فالأفراد المشتركون فيهما كانوا ولا ريب يسلكون مسلكاً مغايراً — كل بحسب نمط شخصيته — إذا كانوا فرادى . لذلك كان تفهم نفسية الفرد غير كاف لتفسير مثل هذه الأحداث . بيد أن المعطيات العلمية الخاصة بديناميات الجماعات مشتتة للأسف كل التشتت ، وهو ما يقره الآن علماء كثيرون . وقد ردد « كورت لوفين » وغيره أن العلم قد فشل حتى الآن فى تفسير أسباب تفكك الجماعات [١]. وقد شمل الإهمال خاصة العوامل الانفعالية فى التفاعلات الجماعية ، فلم يعترف بها الإخصائيون ولم يفوها حقها من الدرس . يقول « فرانك » : « لم تنتبه التربية ، وعلى الأرجح لن تنتبه ، إلى مسألة الاستجابات الانفعالية التى تعبر عن النواحى الرئيسية من حياة الفرد والجماعة والتى يمكن بها السيطرة على هذه النواحى . وهى إذ تأخذ بالدعوى الشائعة بأن الإنسان كائن عاقل مريد ، تخشى الاعتراف بوجود هذه الاستجابات والميول الانفعالية القوية لدى الطفل والمراهق ، لأنها قد تواضعت ضمناً على تجاهلها فى الحياة الاجتماعية برمتها » [٢].

هذه المصادر الانفعالية اللاشعورية للسلوك ، هى المجال الذى اختص به التحليل النفسى . ومن ثمة لاح لى أن من المثمر أن نفحص ، بشىء من التفصيل ، ما أسهم به « سيجموند فرويد » وبعض أتباعه فى تفهم العلاقات الجماعية . وهذا معناه أنه يجب أن ندرس أولا المفاهيم التحليلية الرئيسية فى السلوك الجماعى ، ولا سيما فى نطاق الجماعات التلقائية . ومعناه أيضاً ضرورة الربط ، بقدر الإمكان ، بين هذه المفاهيم ومثيلاتها فى ميدان السلوك الفردى ، والنظرية النفسية التحليلية عامة .

---

(١) Lewin K., "Psychology and the process of group living". *Journal of social psychology*. XVII, 1943, p. 114.

(٢) Frank, L.K., "The dilemma of leadership". *Psychiatry*, II, 1939 p.p. 347-348.

تنقسم مادة الكتاب على النحو التالى : مناقشة إجمالية لطبيعة وأصل الميل إلى التجمع فى بنى البشر ، تليها مناقشة للرابطة الوثيقة التى يفترضها « فرويد » بين الدوافع اللبيدية والميول الاجتماعية ، ودراسة الطرق التى تؤثر بها خبرات الطفولة المبكرة فى قدرة الفرد على الارتباط بالغير . ثم يأتى سرد للعمليات الانفعالية المنوّعة المسئولة عن تكوين الجماعات وتفاعلها ، مثل التوحد والروابط بالموضوعات وفقد الإنيّة الشخصية النسبى ، وعوامل النمو والانتكاص . ونفرد فصلا لبحث دور القائد بوصفه رمزاً للوالدين ، وعلاقة ذلك بالاعتماد على الغير والاتجاهات الإيجابية والسلبية وأوضاع الجماعة الاستبدادية والديموقراطية . ونحلل قوى التماسك والتصدع فى الجماعة وأثرها فى الروح المعنوى الجماعى ومختلف أنواع الصراع .

أما الجزء الثانى من الكتاب فموقوف على تقييم القضايا التحليلية تقييماً شاملا ، من حيث طبيعتها ووجهتها ومواضع الضعف والقوة فيها . فضلا عن عرض أقل تجريد للأنحاء التى طبقت بها هذه القضايا ، أو التى يمكن أن تطبق بها ، على مختلف المجالات الفنية مثل الخدمة الاجتماعية والتربية والعلاج النفسى الجماعى .

وقد تعمدت الاقتصار على مدرسة واحدة من مدارس الفكر ، ألا وهى كتابات الإخصائيين المنتمين إلى « المدرسة الفرويدية التقليدية » للتحليل النفسى . وإنى لمدرك أن فى ميدان العلوم الاجتماعية عدة نظريات أخرى ووجهات نظر متعارضة . فلست أقصد إلى إنكار أو تقليل ما أسهمت به الطرائق الأخرى من أبحاث ، وإنما أعتقد على الضد أن علم النفس الجماعى ، إذا فهم على حقيقته ، يقتضى تنسيق مختلف النتائج فى مختلف المجالات ، والتأليف بينها تأليفاً مقبولا . وإنى أشعر بأن مثل هذا الكتاب يعد خطوة لبلوغ هذه الغاية ، لأنه يعمل على جمع المفاهيم التى أخذت بها « مدرسة » بعينها ، فيبسطها ويوضح غوامضها ، ولهذا العمل قيمة خاصة لقلة معرفة الناس بالنظريات التحليلية فى الحياة الجماعية .

وفى الختام ، تجب الإشارة إلى بعض القيود الأخرى التى فرضت نفسها بنفسها . فلفظة « التحليل النفسى » كما أستخدمها ، لا تدل على طريقة فى العلاج أو البحث بل على نظرية فى علم النفس . وفى نطاق هذه النظرية نفسها ، لم أتعرض لما أسهمت به المدرسة التحليلية من بحوث فى ميادين علم النفس المرضى والعلاج التحليلى وديناميات السلوك الفردى إلا بقدر توضيحها لبعض جوانب علم النفس الجماعى . كما أنى لم ألتفت إلى أفكار « فرويد » وغيره فى علم الإنسان ، وهى أفكار متصلة بالعلاقة بين الثقافة والنظم المعينة والأغراد ، وكذلك أغفلت المفاهيم النشوئية النوعية عند « فرويد » مثل مفهوم « العشيرة الأولية » .

وإنى أعتبر أن لمبادئ « فرويد » خطرها ، ولكنى لا أبالغ فى دعواى . فإذا كان لهذه الدراسة أى نفع ، فهو فى توكيدها العوامل الانفعالية اللاشعورية فى الجماعة ، تلك العوامل التى أهملت كل الإهمال والتى يتعذر بدونها دراسة الجماعات دراسة كاملة ، إذ أن الشعور ، كما يقول « فرويد » ، « لا يمدنا إلا بسلسلة متقطعة ناقصة من الظواهر »[1]. فإن نجح هذا الكتاب فى إثارة اهتمام علماء النفس الاجتماعيين والمعالجين النفسيين للجماعات والإخصائيين الاجتماعيين والمعلمين ؛ وإن ساعد ، بأية طريقة كانت ، على المزيد من النقاش والتجريب والبحث ، لأصاب الهدف الذى كتب من أجله .

سول شيدلنجر

(١) Freud, S., *Collected Papers*, Vol. V, p. 382.

الجزء الأول

المفاهيم الفرويدية الخاصة بالعلاقات الجماعية

الفصل الأول

ميول الإنسان الاجتماعية ــ إلمامة تاريخية

الفرد والجماعة

كانت علاقة الفرد بالجماعة موضع اهتمام المفكرين منذ القدم ، وقد اعتبر بعض كبار الفلاسفة القدامى الفرد خاضعاً للدولة (المجتمع) * . فالدولة المثلى فى نظر أفلاطون ــ وقد تصورها على نمط النفس الإنسانية ــ باتت الشرط الأساسى لنمو الفرد وبلوغه الكمال . وقد سلم أرسطو ــ بتأثير أفلاطون ــ بوجود ميل فطرى فى الإنسان يدفع به إلى التجمع . يقول : « أما أن الإنسان حيوان مدنى (اجتماعى) أكثر من النحل أو أى من الحيوانات الاجتماعية الأخرى ، فهو أمر واضح جلى »[1]. ويستنتج من هذا أنه ما دامت الغريزة الاجتماعية جزءاً لا ينفصل عن جبلة الإنسان الحيوية ، فإن تحقيق الفرد لأقصى إمكانياته لا يكون إلا عن طريق الحياة الجماعية .

وقد فتح الإغريق باب الجدل حول حقوق الفرد حيال الدولة ، واستمر الجدل خلال العصور . فساير الكثيرون أفلاطون وأرسطو فى اعتقادهما بأن للدولة السيادة وبأن خيرها يسمو بالضرورة على خير المواطنين . واستغلوا الاعتقاد بأن الإنسان مدنى بالطبع . فتذرعوا به لتبرير سيطرة الدولة على الفرد . وقد لجأ أتباع حركة الإصلاح ، كما لجأ البابا فى القرنين السادس والسابع عشر ، إلى مثل هذه العقيدة ، حين مست إلى ذلك الظروف . وفى القرن التاسع عشر ، أحالها « أوجست كونت » إلى نظرة شاملة فى المجتمع ، باعتباره

---

* لم تميز جمهرة الفلاسفة ، حتى القرن الثامن عشر ، بين المجتمع والدولة .

(١) McKeon, R. (editor), *The basic works of Aristotle* (Politics, Book 1), p. 1129.

نتاجاً لما فطر عليه الإنسان من حوافز اجتماعية . فكان أول مفكر محدث ينظر إلى المجتمع بوصفه متعضياً سامياً من نوع معين ، له بنيانه ووظائفه ، وهو تصور لا يختلف عن تصور أفلاطون الدولة عقلا محيطاً بكل شيء . وأحدث صورة لهذا الربط بين غريزة الإنسان الاجتماعية وسيطرة الدولة السياسية يتمثل فى فاشية القرن العشرين .

غير أننا نجد بين الإغريق أنفسهم من ارتأى أن الإنسان موجود فرد قبل كل شيء . وقد أتت هذه الأفكار أكلها إبان عصر النهضة ، فتجلت فى نظريات العقود التى تسلم بأن للإنسان حقوقاً طبيعية ينزل عنها بمحض إرادته للجماعة حين يكونها . وقد جعل « هوبس » و « لوك » و « روسو » الفرد وحدة البناء الأولى . رغم اعترافهم بأن الجماعة هى شرط تحقيق الفرد لذاته الحقة .

نظريات المحدثين فى التجمع

فاق المفكرون المحدثون القدامى منهم فى تعمقهم أصول التجمع لدى الإنسان ؛ غير أنهم لم يتفقوا فيما بينهم إلا فى القليل . اعتبر « تروتر » ، وهو من أوائل علماء الاجتماع ، « غريزة التجمهر » ضمن الدوافع الأربع الرئيسية المهيمنة على الحياة الإنسانية . فوجد أن « الطابع النفسى الجماعى يتجلى واضحاً فى مسلك الإنسان سواء كان فى الجموع وفى غيرها من أحوال التجمع الفعلى ، أو فى مسلكه كفرد ، مهما بلغت درجة عزلته »[١]. ومفاهيم « تروتر » مستمدة من علم الحياة ، وهو يضرب على نهج الكثيرين من مفكرى عصره حين يفترض اتصال الحياة الجمعية الحيوانية بالتجمعات الإنسانية .

وكذلك يتحدث « ڤان هوج — هلموت » عن « غريزة التجمع » ، ويرى أن إرضاء هذا « الحافز الاجتماعى » أساس يقوم عليه تكوين الخلق ، وأن صراخ الطفل فى عزلته أول تعبير عن هذا الدافع[٢].

(١) Trotter , W., *Instricts of the herd in peace and war*, p. 42.

(٢) Von Hug-Hellmuth, H., *A study of the mental life of the child*, p. 123.

ويدخل « ماك دوجال » غريزة التجمع فى ثبت الغرائز الذى أقره معظم علماء النفس فى مستهل هذا القرن . وهو يرتأى أن العقل الإنسانى مزود ببعض هذه « الميول الفطرية أو المتوارثة » التى تسير السلوك والتى يصدر عنها الطابع الفردى والقومى (١).

وتكلم « ودويرث » حديثاً عن السلوك الاجتماعى بوصفه حاجة أساسية ، فقال : « إن اشتراك الفرد فى الجماعات لا يفرض عليه كوسيلة لإدراك غايات أخرى ، بل هو بالأحرى مميز أول لسلوكه » (٢).

ويعتبر « سلافسون » « الميل الجمعى » دافعاً إنسانياً أساسياً . يقول : « لقد عُرف هذا الميل منذ القدم بأسماء متباينة ، مثل غريزة التجمع ، أو التجمهر . إنه القوة التى تدفع الناس والحيوان وما دونهما من صور الحياة إلى التجمع بصفة دائمة أو فى مناسبات معينة كالنسل أو الدفاع عن النفس ، وهو الأساس الذى يقوم عليه كل تجمع إنسانى ، بل المجتمع برمته » (٣). وقد لاحظ « سلافسون » بدوره وجود التجمعات فى عالم الحيوان ، مما جعله يربط بينها وبين الجماعات الإنسانية . يقول : « قد يكون الالتحاق بالجماعات تعبيراً عن الميول الجمعية الموجودة فى الحيوانات الدنيا وجودها فى الإنسان » (٤). وفى مؤلف آخر نجد ما يلى : « إن ظاهرة التجمع موجودة حولنا فى كل مكان . فهى واضحة فى مختلف صور الطبيعة مثل مستعمرات الخلايا وأسراب الحشرات وجماعات الطيور وقطعان السمك وظعائن الحيوان وعشائر بنى الإنسان . إن الغريزة الجمعية حيلة بيولوجية من حيل البقاء وهى حاجة قهرية فى الأنسجة الحية والكائنات العضوية وفى المادة الصماء أيضاً إلى حد ما » (٥).

---

(١) McDougall, W., *An introduction to social psychology*, p. 20.

(٢) Woodworth, R.S., "Individual and group behavior". *American journal of sociology*, XLIV, 1939, p. 827

(٣) Slavson, S.R., *Character education in a democracy*, p. 113.

(٤) *Ibid*, p. 41.

(٥) Slavson, S.R., "General principles and dynamics". in *The practice of group therapy* (Slavson, S.R., editor), p. 24.

وينكر « ماك إيڤار » فى موضع أن الإنسان مدنى « بفضل فطرة أصيلة فى الطبيعة الإنسانية »[١]؛ إلا أنه يشير إلى الضد فى مواضع أخرى ، وهو ما يتضح من العبارات التالية : « إن الحاجة إلى المجتمع مفطورة فى طبيعتنا الجوهرية . . . وفى الإنسان حنين إلى المجتمع . فهو يولد فى المجتمع والحاجة إلى المجتمع تولد فيه »[٢]. « إن قوة الرفقة تشهد بفطرية طبيعة الإنسان الاجتماعية»[٣] وبعكس هؤلاء الكتاب الذين سلموا بوجود « غريزة جمهرة » أو « عقل جماعى » فى الإنسان ، ينظر « فرويد » إلى الميول الاجتماعية باعتبارها فى جوهرها نتاجاً للخبرات العائلية المبكرة . فروابط الطفل الانفعالية الأولى بمن يشبع حاجاته تكوّن نموذج العلاقات الجماعية التالية . أو كما تقول « أنّا فرويد » : « إن القدرة على الحب — كشأن سائر الملكات — يجب أن تُتعلم وأن تُمارس »[٤]. وقد وصف « فرويد » الطفل الوليد بأنه كائن خلو من أى ميل اجتماعى ورأى أن التجمع يبدأ بالتفاعل الانفعالى فى نطاق العائلة الأصغر[٥] .

ومنذ ظهور كتابات « فرويد » ، ألح عدد من علماء الاجتماع وعلم النفس الجماعى فى أن السلوك الاجتماعى ناتج عن التعلم . يقول « بلاتز » : « لا يمكن القول بأن الطفل قد أصبح كائناً اجتماعياً حتى يصل فى نموه إلى حد إدراك التماثل بين خبراته وخبرات الآخرين »[٦] . ويأخذ « ميرفى » و « ميرفى » و « نيوكوم » بنفس وجهة النظر[٧]. وفى كتاب أخيراً عن الشخصية ، يؤكد

---

(١) McIver, R.M., *Society: A textbook of sociology*, p. 41, footnote.

(٢) *Ibid.*, p. 8.

(٣) *Ibid.*, p. 239.

(٤) Freud, A., and Burlingham, D.T., *War and children*, p. 191.

(٥) Freud, S., *Group psychology and the analysis of the Ego*, p. 3.

(٦) Blatz, W.E., "The individual and the group." *The American journal of sociology*, XLIV, 1939, p. 830.

(٧) Murphy, G., Murphy. L.B., Newcomb, T.M., *Experimental social psychology*. New York : Harper and Brothers, 1937.

« ميرفى »[١] أن الفرد يولد بقدرات على الاستجابة ، وأن الكائن الإنسانى « معد للمجتمع إعداداً عميقاً » بفضل طبيعة وجودة ذاته ، فمجرد وجود الوالدين يثير لدى الطفل أول بادرة من بوادر النشاط .

وهكذا نرى أنه لا اتفاق بعدُ على مشكلة أصل النشاط التجمعى وطبيعته . وقد أجمل « كلينبرج » ، بعد أن ناقش مختلف الحجج المؤيدة والمعارضة ، ما بدا له — وما يبدو لى — أوثق ما يمكن أن يقال عن التجمع فى الإنسان حين قال : « للتجمع اتصال ممكن ولكن غير يقينى بسلوك الحيوان ؛ وليس له أساس فسيولوجى أو تشريحى معروف ؛ وهو شامل فى صورةِ حد أدنى مشترك ، ولكن من المحتمل تفسير هذا الحد الأدنى على أساس العلاقات العائلية »[٢].

---

(١) Murphy, G., *Personality : A biosocial approach to origin and structure*, p. 765.

(٢) Klineberg, O., *Social psychology*, p. 157.

الفصل الثانى

نظرية فرويد فى الدوافع والميول الاجتماعية

اشتق « فرويد » مفاهيمه فى السلوك الجماعى عن نظريته الأساسية فى علم النفس الفردى ، وهذه النظرية العامة جديرة بالعرض من حيث إنها متعلقة بفهمنا لحياة الجماعة .

الدوافع الأساسية

يرى التحليل النفسى أن فى صميم كل شخص دوافع أساسية تمد وجوده السيكولوجى بالقوة المحركة على مدى الحياة . والنفس الإنسانية تتميز بحاجة دائمة إلى تخفيف التوتر الناجم عن هذه الدوافع والذى يشعر به المرء على هيئة إحساسات بالضيق ، وحين يخف هذا التوتر عن طريق النشاط الحركى ، يشعر المرء باللذة . وهناك تشابه كبير بين فكرة « فرويد » فى أن الأنا يعمل على تخفيف التنبيه داخل الكائن العضوى ونظرية « كانون » الفسيولوجية فى استعادة التوازن .

والدوافع — فى رأى « فرويد » — تمثل ميلا فى المادة الحية إلى استرجاع حالة سابقة . وهو يسلم بأنها كمية من الطاقة متحركة فى اتجاه معين . فالدوافع إذاً مفهوم يقع على الحد الفاصل بين المجال النفسى والفيزيقى ، « فهى الممثل النفسى للمنبهات التى تصدر عن الكائن العضوى وتتغلغل فى النفس ، وهى فى الآن ذاته مقياس للمطالب التى تفرضها على الطاقة النفسية صلة النفس بالبدن »[1] . وقد بنى « فرويد » تصوره للدوافع بالنظر فى أهدافها ، بدلا من حد الغرائز أو الدوافع :

(١) Freud, S., "Instincts and their vicissitudes", *Collected Papers*, IV, p. 64.

بنشاطها الذاتى ، كما فعل « ماك دوجال » وغيره من علماء النفس . فهو يميز بين دوافع الأنا أو حفظ الذات ، ودوافع الحب والعدوان . يقول : « إن الرضا هو دائماً ما تهدف إليه كل الدوافع ، ولا يمكن تحقيق الرضا إلا بالقضاء على حالة التنبيه فى أصل الدافع ذاته »[١].

وقد أشار المؤلفون المختلفون إلى صعوبة حد الدوافع أو وصفها بدقة . والحق أن من المستطاع مشاهدة آثار الدوافع وأنواع النشاط المترتبة عليها ، ولكن يكاد يكون من المحال التحقق مما يكوّن وحده دافعاً ما ، ويعتبر الدافع عادة ذا أصل عضوى ، وإن كان مصدره الدقيق يصبح غامضاً حين يفترض البعض أن الدوافع نتاج للكائن العضوى برمته ، دون اعتبار لطرق تصريفها . ذلك ما يعترف به « فرويد » فى قوله : « إننا ، كما ترون ، ما نزال نجهل كثيراً من مميزات الدوافع وتاريخها »[٢]. وفى قوله : « الدوافع موجودات أسطورية ، متعالية فى غموضها ، ونحن فى عملنا لا نستطيع لحظة تجاهلها ، ولكننا لسنا على ثقة ألبتة من أننا نراها بوضوح »[٣].

وتنص مبادئ « فرويد » الأخيرة على أن من الممكن قسمة الدوافع قسمين كبيرين : ١ — « اللبيدو » أو دوافع الحب و ٢ — الدوافع العدوانية . واللبيدو هو « الطاقة » (وتعتبر مقداراً كميًّا لا يمكن قياسه حاليًّا) الطاقة التى تدخل فى كل ما تتضمنه كلمة « حب » . وجوهر ما نعنيه بالحب يتكون من الحب الجنسى الذى يستهدف الاتصال الجنسى (وهو ما يسمى عادة بالحب وما يتغنى به الشعراء) . بيد أننا لا نفصل عن هذا المعنى كل ماله أية حصة من اسم الحب — من ناحية حب الذات ، ومن ناحية أخرى حب الوالدين والأطفال والصداقة وحب الإنسانية على وجه العموم ، بالإضافة إلى الولاء للموضوعات العينية والأفكار المجردة »[٤]. فمفهوم اللبيدو عند « فرويد » ليس مقصوراً على

(١) *Ibid.*, p. 65.

(٢) Freud, S., *New introductory lectures on psychoanalysis*, p. 134.

(٣) *Ibid.*, p. 131.

(٤) Freud, S., *New introductory lectures on psychoanalysis*, p. 134.

منطقة الجنس ، بل يشمل كافة العلاقات الوجدانية بين الناس كما يشمل النرجسية أو حب الذات . وهو يتضمن كل النوازع الوثابة التي تدفع إلى الحب أو إلى الخلق . أما الدوافع العدوانية فتوفر الطاقة اللازمة للميل إلى القضاء على الحرمان ، و « للميل التدميرى الأولى » ، ومنوع صور العدوان المرتد على الذات (١).

وحين يولد الطفل يكون نشاط الدوافع اللبيدية والعدوانية غير متفاضل . ويتضمن النضج الانفعالى أن يكتسب المرء القدرة على مواجهة هذه الدوافع بحيث يطرد تكاملها وتوحدها فى نطاق وظائف الشخصية، بدلا من أن تظل فى صراع دائم . والطفل مثلا يتعلم بالتدريج كيف يغير أن يحول وجهة ميوله العدوانية ، حتى لا يضيع على نفسه فرص إشباع حاجته إلى حب الراشدين الساهرين على راحته . والواقع أن هاتين المجموعتين من الغرائز لا تنفصلان أبداً ، « فكل ما ندرس من نوازع غرزية مؤلف من أمزجة أو أخلاط من هذين الصنفين من الدوافع »(٢).

كذلك بحث « فرويد » كيف تتغير شدة طاقة الدوافع (اللبيدو والعدوان) فى شخص بعينه ، لا سيا فى مختلف مراحل النمو الفسيولوجى . وقد رسم « فرويد » وتلامذته صورة لمراحل تطور اللبيدو — الفمية والشرجية والقضيبية والتناسلية — وكلها تدل على تمركز اللذة اللبيدية فى مختلف مناطق جسد الطفل .

وقد تتغير أيضاً اتجاهات اللبيدو داخل النفس . فمن الممكن أن يوجه اللبيدو إلى موضوع خارجى (الحب الموضوعى) ، كما أن من الممكن فى أحوال أخرى أن يرجع على النفس (النرجسية) . ومن الممكن أن يحبس (الكبت) أو أن يفصح عن نفسه إفصاحاً غير مباشر بطرق يقبلها المجتمع (التسامى) . ويتحدث « فرويد » عن ارتداد اللبيدو إلى مراحل النمو الانفعالى البدائية (النكوص)

---

(١) Bibring, E., "The development and problems of the theory of the instincts", *International journal of psychoanalysis*, XXII, Part II, 1941.

(٢) Freud, S., *New introductory lectures on psychoanalysis*, p. 143.

او عن وقوفه عند نقطة معينة من نقطة النمو » (التثبيت) . فالدوافع اللبيدية « نادرة المرونة ، سهلة فى تغيير أهدافها وإبدالها — سهلة فى إحلال صورة من صور الإشباع محل الأخرى وتعليق كل إشباع »[١]. ومن المعتقد أن تغيرات ديناميه مماثلة تحدث فى طاقة الدوافع العدوانية (العدوان) ، رغم أنها لم تدرس حتى الآن على نفس النحو المفصل .

بناء الشخصية

لتيسير دراسة الشخصية الفردية وعلاقتها بالبيئة ، سلم « فرويد » بانقسام البناء النفسى إلى الهو والأنا والأنا الأعلى. وتنص مبادئ « فرويد » الأخيرة على أن الهو يشتمل على ثلاثة عناصر كبرى : ١ — طبقة حيوية تصدر عنها الدوافع اللبيدية والعدوانية ، هذه المنطقة متصلة بالأنا دون قيد . ٢ — دوافع مكبوتة ، منعها الكبت من الإفصاح عن نفسها . ٣ — الجزء اللاشعورى من الأنا الأعلى[٢] . والهو لاشعورى فى جملته ، خاضع فى نشاطه لما يسمى « بمبدأ اللذة » . ومن ثمة ، تتطلب دوافع الهو إشباعاً مباشراً (اللذة) ، دون اعتبار للقيم أو الزمن أو الواقع .

أما الأنا فيعتبر الجزء المنظم من الهو ، تميز عنه عن طريق إدراك الفرد التدريجى لمقتضيات الواقع فى الأشهر الأولى . ويلعب النضج والتعلم دوراً فى نمو الأنا . والأنا يشمل نواحى الشخصية المتصلة بالإدراك الحسى والتفكير والمعرفة والشعور والإرادة وتوكيد الذات . يقول « فرويد » : « هذا الأنا يحوى الشعور ويسيطر على الحركة أى على تصريف الإثارة فى العالم الخارجى ، وهذا النسق النفسى هو المتحكم فى كافة العمليات المقومة للنفس »[٣] . ومن وظائف الأنا الرئيسية التوسط بين مطالب الهو ومطالب البيئة الواقعية . فالنوازع (العدوانية أو

---

(١) *Ibid.*, p. 134.

(٢) Bibring. E., *op. cit.*

(٣) Freud, S., *The ego and the Id*, p. 15

اللبيدية) تخضع لتأثير الأنا — وهو ضرب من الغربلة — قبل تحقيق اللذة . ويستثنى من ذلك المرضى العقليون الذين اختلت فيهم وظائف الأنا اختلالا خطيراً . والأنا — بعكس الهو — يسير على « مبدأ الواقع » وهو مبدأ مكتسب بالتعلم ، ومن مقتضياته القدرة على الاستغناء عن اللذة المباشرة لتحقيق اللذة أو تجنب الألم فى المستقبل . ويكون مصحوباً بالقدرة والرغبة فى إدراك حاجات الغير ومشاعره . وبنضوج الفرد ، تخضع أفعاله — على نحو مطرد — لاعتبارات مماثلة « لمبدأ الواقع » . والمراعى أيضاً أن أنماط الأنا المميزة (حيل الدفاع) التى تنمو إبان تفاعل الأنا مع المنبهات الباطنية والخارجية ، تكون إما شعورية أو لاشعورية بالطبع . وثمة حقيقة هامة ، تغفل عادة ، هى أن جوانب كثيرة من وظائف الأنا لاشعورية ولا معقولة .

والأنا الأعلى قسم خاص من الأنا ، وهو ذلك الجزء من النفس الذى يحتوى على معايير الخير والشر الحضارية التى نقلها إلى الطفل الراشدون فى بيئته . وتكوّن الأنا الأعلى أو ، كما يسميه « فرويد » أحياناً ، « المثل الأعلى للأنا » ، يقتضى تمثل صور الوالدين والمربين ومحرماتهم ومثلهم العليا . « ولهذا المثل الأعلى جانب اجتماعى بالإضافة إلى جانبه الفردى ؛ فهو المثل الأعلى المشترك فى الأسرة أو الطبقة أو الأمة أيضاً »[١]. وما يدعى عادة بالضمير يشمل الجزء الشعورى من الأنا الأعلى . أما الجزء اللاشعورى منه فمتصل بالهو ، كما ذكرنا سابقاً ، وهذا الجزء يستطيع إذن أن يدرك المنبهات اللاشعورية قبل أن تتناهى إلى وعى الأنا . وللأنا الأعلى غرض مزدوج ، هو الإبقاء على كبت الحوافز التى يمجها المجتمع ، وتعطيل عمل الأنا . فهو بمثابة حارس النفس الذى يتوقع استجابات البيئة على مسلك الفرد . والأنا الأعلى لا يفتأ يتغير طوال الحياة بتأثير الأشخاص ذوى الخطر والمعلمين والمرشدين وغيرهم من البالغين الذين يعتبرهم الفرد مثلا عليا يحتذيها .

---

(١) Freud, S., "On narcissism : An introduction", *Collected Papers*, VI, p. 59.

من الممتنع تفهم عمل الدوافع إن لم ننظر فى علاقتها ببناء النفس بأسره. فكل نسق من الأنساق السالفة الذكر – الهو والأنا والأنا الأعلى – مصدر من مصادر الطاقة النفسية اللازمة لعمل الشخصية. والمعتقد أن الطفل يولدبدون أنا، وأن وظائف الأنا المستقبلة يؤديها المتعضى كله. فهو يستجيب إلى البيئة باعتباره كتلة غير متمايزة الأجزاء. وتتطلب دوافع الطفل وحاجاته إشباعاً مباشراً. يقول « فينيكل » : « إن بوادر الشعور لا تميز بين الذات والموضوع بل بين نوعين من التوتر يختلفان من حيث الحدة »[١] ويتم التفاضل بنضوج الجهاز العصبى وبتدرج وعى الطفل بأنه ذات مميزة عن آثار البيئة الطبيعية ومن بها من أناس. هذه العملية يسميها « فرويد » بتكوّن الأنا. ومن الملاحظ أن « تحول الأنا إلى نظام جسمى ونفسى معقد، يعتمد إلى حد كبير على **نجاح تدخل** العوامل المعطلة الضابطة بين **الإدراك الحسى والعمل** »[٢].

ويستمد الأنا بادئ بدء، طاقته النفسية من الدوافع الرئيسية التى تصدر عن الهو. يقول « فرويد » : « وهكذا يستمد الأنا شحنة الانفعالية الأصيلة التى ينزل فيما بعد عن جزء منها للموضوعات، والتى تبقى كما هى فى جوهرها رغم اتصالها بالموضوعات »[٣]. وفى موضع آخر يصف « فرويد » الطاقة النفسية فى الأنا بأنها « طاقة قابلة للنقل، محايدة فى ذاتها، قادرة على الانضمام إلى قوى شبقية أو هدامة تختلف عنها كيفاً، فتزيد شحنتها الانفعالية الكلية »[٤]. ومن ثمة « قد تنبع الطاقة المنصبة فى الأنا والأنا الأعلى من الليبيدو أو العدوان،

---

(١) Fenichel, O., *The psychoanalytic theory of neucosis*,p. 34.

(٢) Schoenbergern Maheelr, M., "Ego Psychology applied to behavior problems" *Modern trends in child psychiatry*, 1945, p. 45.

(٣) Freud, S., "On narcissism : An introduction", *op. cit.*, p. 33.

(٤) Freud, S., *The Ego and the Id.*, p. 63.

كما يمكن أن تتحول إليهما ثانية »(١).

كنا قد ذكرنا سابقاً أن النمو النفسى حركة تدريجية ينتقل بها الأنا من مرحلة النرجسية البدائية إلى مرحلة يكون فيها الأنا قادراً على إقامة العلاقات الموضوعية . والتطبع الاجتماعى فى نظر « دڤرو » « يدل على انتشار كمية كبيرة من اللبيدو المستثمر فى نفس الطفل وبيئته الإنسانية المباشرة ، حتى يشمل كل أو بعض الجماعة التى ينتمى إليها الطفل »(٢) . غير أننا « لا نعتقد أن اللبيدو يتحول برمته عن الأنا إلى الموضوعات الخارجية ، وإنما نعتقد أن كمية معينة من اللبيدو تظل باقية فى الأنا على الدوام ، فازدهار الحب الموضوعى لا يمنع من وجود درجة معينة من النرجسية . إن الأنا مستودع كبير يتدفق منه اللبيدو المجعول للموضوعات وينصب فيه ثانية بعد تركها . وذلك لأن لبيدو الموضوعات ، فى أصله ، هو لبيدو الأنا ، فمن المستطاع إذن أن يتحول إليه مرة أخرى ، ومن الجوهرى لكمال الصحة النفسية ألا يفقد اللبيدو هذه المرونة التامة »(٣). فالنمو السوى للأنا يتطلب إذن موازنة مرنة بين الطاقة النفسية فى الأنا والطاقة المستخدمة فى العلاقات بالموضوعات .

ويجب أن ننبه فى هذا الموضع إلى أن كافة أفعال الأنا مثل الحصول على الطعام والتفكير والإدراك الحسى إلخ ، فضلا عن الارتباط بالغير ، تستمد شحنتها النفسية ، فى رأى « فرويد » ، من الدوافع الأساسية (اللبيدية والعدوانية) .

(١) Hartman, H., Kris, E., Lœwenstein R.M., "Notes on the theory of aggression" *The psychoanalytic study of the child,* II, 1945, p. 15.

(٢) Devereux, G., "Social structure and the economy of affective bonds," *The psychoanalytic review,* XXIX, 1942, p. 305.

(٣) Freud, S., "One of the difficulties of psychoanalysis", *Collected Papers,* IV, p. 350.

التوحد

التوحد من المفاهيم الهامة فى عملية تكوّن الأنا ومن ثمة فى مجال العلاقات الاجتماعية . وهو يشير إلى اعتناق الأنا بعض المميزات الحقيقية أو المتخيلة لشخص آخر . ويرتبط التوحد عادة « بما يحب المرء أن يكونه » بينما تدل العلاقات بالموضوعات على « ما يحب المرء أن يمتلكه » . ويفترض « فرويد » حدوث نوع من التوحد فى الأشهر الأولى من حياة الطفل والأنا لم يتميز بعد تمام التميز من الهو . ويصف التوحد بأنه « أول تعبير عن رباط انفعالى بفرد آخر »(١). وتشير « جريناكر » إلى نوع بدائى من التوحد يبدو قريب الصلة بالمشاركة الوجدانية . تقول : « إن انتقال الانفعال بمجرد عكس حالة جسمية معينة ، كالابتسام لابتسام الآخرين والبكاء لبكائهم ، هذه العملية الجوهرية تميز الطفل قبل رسوخ الكلام ونمو إحساسه بنفسه . وهى تبقى مدى الحياة على درجات مخففة ، يمكن تعبئتها إن اقتضى الأمر »(٢). ويشير « فنيكل » إلى ميل الطفل إلى محاكاة « ما يراه وتمثل كل ما يراه »(٣). بعبارة أخرى ، فى هذه العلاقة المبدئية بالموضوعات ، يحاول الطفل أن يدمج العالم الخارجى فى ذاته فيدرك ذاته وكأنه حاصل على خصائص من يحيطون به . وتعتبر « بالينت » التوحد عملية أساسية فى نمو إنية الطفل . فالطفل « يتملك جزءاً من العالم الخارجى تملكاً نفسيًّا » عن طريق التوحد ، الذى يصير طريقته فى تمثل الوقائع المجهولة ، أو نوعاً من « امتدادات الأنا »(٤). وترى « بالينت » أن التوحد قد يكون فى بعض الأحيان وسيلة يتعرف بها الطفل على جسده . فالأعضاء المجهولة يراها الطفل على مثال الأعضاء الضرورية لتحقيق اللذة . ويستخدم الطفل الصغير

(١) Freud, S., *Group psychology and the analysis of Ego*, p. 60.

(٢) Greenacre, P., "A genetic approach to the problem of inconsistency in social attitude", *The journal of social issues*, V, 1929, p. 22.

(٣) Fenichel, O., *op. cit.*, P. 37.

(٤) Balint, A., "Identification", *The Yearbok of psychoanalysis*, 1945, p. 318.

عملية التوحد » لكى يتمكن من معرفة شىء لا يعرفه » ، وما يتمثله من موضوعات يصبح أساساً للمزيد من التوحد . إذن فالهدف الذى يرمى إليه التفكير التوحدى هو الحصول على اللذة وتحويل العالم الخارجى بما فيه من غرابة ورهبة إلى عالم أليف يوحى بالطمأنينة . فالتوحد على هذا النحو يصبح نقله من مرحلة النرجسية إلى مرحلة العلاقات بالموضوعات لأنه يمكّن الطفل من تمثل بعض عناصر العالم الواقعى والاستمتاع بها . فضلا عن أن التوحد بأشخاص جدد لا يكون إلا على أساس من التوحدات السابقة . تقول « بالينت » : « لا يستطيع الطفل الولع بشىء مجهول إلا إذا نجح فى التوحيد بينه وبين شىء معروف لديه . إن التوحد أساس كل من الحب والفهم ، وبدونه لا وجود لهما على الإطلاق »[١].

وبوجه عام ، يقوم ما يسميه « فرويد » « توحداً أوليًّا » بدور كبير فى تكوين الشخصية . وهو غالباً ما يشير إلى رغبة الفرد اللاشعورية فى « التشبه » بشخص آخر وتشكيل إنيته تبعاً لهذه الرغبة . والتوحد « مزدوج منذ البداية » شأن كل الروابط الانفعالية الطفلية ؛ « فقد يتحول إلى تعبير عن الحب كما قد يتحول إلى رغبة فى التخلص من الآخر »[٢]. وهو ما يصدق بقدر أقل على التوحدات المتأخرة التى تعتبر « أكثر انتقاء وتكاملا متناسقاً فى الشخصية »[٣].

أما « التوحد الثانوى » وهو مفهوم أقل وضوحاً ، فيقضى استبدال شحنة موضوع منتبذ بموضوع آخر قد نُصب داخل الأنا ، وهو فى المعتاد وسيلة يتكيف بها الأنا مع فقدان موضوع ما ، وقد تكون الطريقة الوحيدة التى يتمكن بها الفرد من مواجهة مثل هذا الفقدان . فحين يُدمج الموضوع فى شخصية الفرد على هذا المنوال ، يصبح من السهل على الشخص السوىّ قطع علاقته بالموضوع نهائيًّا . ويذكر « فرويد » مثل الطفل الذى فجع بفقد قطيطة

---

(١) *Ibid.*, P. 321.

(٢) Freud, S., *Group psychology and the analysis of the Ego*, p. 61.

(٣) Hart, H.H., "Problems of identification." *The psychiatric quartery*, XXI, 1947, p. 287.

فصار يحبو على أربع قائلا إنه الآن القطيطة ذاتها . ويؤكد « دڤرو » أن أى انتقال للبيدو من موضوع لآخر يجب أن يحدث بالتدريج عن طريق رجوع اللبيدو على الذات رجوعاً مؤقتاً . والأزمات النفسية ممكنة الحدوث إبان هذه الفترات الانتقالية[١]. وفى رأى « بالينت » أن « التوحد الثانوى » قد يكون نكوصاً عن رابطة موضوعية غير مرضية . تقول : « إذا خشينا عذاب الحب ، تحولنا إلى التوحد وكأننا نتحول إلى صورة بدائية من صور العلاقات »[٢]. كذلك يتكلم « نينبرج » عن صورة من صور التوحد هى « بديل نكوص عن الحب »[٣]. ومن ناحية أخرى ، كلما زادت اللذة الناجمة عن الارتباط بالموضوع ، قلت الحاجة إلى التوحد . درس « فرويد » هذه العملية لدى المرضى الذين أصيبوا بالسوداء بعد فقدان شخص حبيب . فهو يفترض أن « التوحد الثانوى » يكون عادة مصحوباً بعمليات أخرى مثل التسامى لأنه يتضمن تجريد هدف شبقى معين عن طابعه الجنسى . « وعلى كل حال ، فالعملية كثيرة الشيوع لا سيما فى مراحل النمو المبكرة ، وهى إن دلت على شيء فتدل على أن الطابع الذى يتسم به الأنا هو راسب من رواسب شحنة الموضوع المهجور وسجل للاختيارات الموضوعية الماضية . ولكننا ما نزال نجهل طبيعة مثل هذا الإبدال على وجه الدقة »[٤].

وبالجملة يرى « فرويد » فى التوحد علاقة أكثر بدائية من الحب الموضوعى لأنه متقدم عليه فى الظهور ولأنه لا يأخذ فى اعتباره عادة وجود الموضوع . ويصف التوحد الأول بالوالدين بأنه « توحد مباشر يحدث قبل أى استثمار موضوعى »[٥]. ويشير فى الآن نفسه إلى امتزاج بعض عناصر التوحد بالعلاقات

---

(١) Devereux, G., "Social structure and the economy of affective bonds," *op. cit.*, p. 303.

(٢) Balint, A., "Identification." *op. cit.*, p. 322.

(٣) Nunberg, H., "Transference and reality," *International journal of psychoanalysis* XXXII, 1951, p. 4.

(٤) Freud, S., *The Ego and the Id*, p. 37.

(٥) *Ibid.*, p. 39.

الموضوعية الناضجة ، لا سيما فى ذروة الحب الجنسى . وترى « بالينت » أن « الحب والتوحد بالوالدين يمتزجان بحيث يمتنع التمييز بينهما بوضوح »[١].

ومما يعقد تفهم معنى التوحد لدى « فرويد » تنوع صوره . فبجانب التوحد الذى أشرنا إليه بأنه تشكيل المرء ذاته وفقاً للموضوع ، هناك نمط آخر يدل على المشاركة الوجدانية أو « إمكان أو الرغبة فى أن يضع المرء نفسه موضع الآخر » . وهو بهذا المعنى قريب من الفهم الوجدانى الذى « يلعب أعظم الأدوار فى فهمنا الجوانب الغريبة عنا فى غيرنا من الناس »[٢]. ويشير « فرويد » أيضاً إلى التوحد على أنه وسيلة للتغلب على عداء أولى موجه ضد الموضوع ، وهو ما يحدث مثلا إبان تسوية عقدة « أوديب ». ويصف حال « شخص حد من عدوانه نحو من توحد بهم فأشفق عليهم ومد إليهم يد العون »[٣].

وتتوسع « أنّا فرويد » فى دراسة ما سمته « التوحد بالمعتدى » ، وفيه يسيطر الفرد على مخاوفه من الشخص أو الموضوع المعتدى بتوحده به . تقول : فى التوحد بالمعتدى ، « يتحول الشخص المهدَّد إلى شخص يهدد »[٤]. ومن اليسير مشاهدة هذه العملية لدى الأطفال الذين يتوحدون بالوحوش الضارية ، فيشاركون الحيوان قوته فى الخيال . ولما كان الخوف هو الدافع الأول لهذا النوع من التوحد ، كان فيه إضعاف لإنية الشخص . تقول « تومسون » : إن الفرد فى توحده بالمعتدى « ينزل عن جانب من اهتماماته . فأخذه بإيديولوجية معينة لا يكون عن إعجاب أو إيمان بها بل لمجرد النجاة بنفسه . والعدو الذى كان يرهبه فى الخارج يعود إلى الظهور فى دخيلة نفسه ، إن صح التعبير »[٥]، لذلك يعتبر التوحد عملية يستعين بها الأنا على مواجهة النوازع التى تهدد الشخص

---

(١) Balint, A., "Identifieation", *op. cit.*, p. 326.

(٢) Freud, S., *Group psychology and the analysis of the Ego*. p. 66.

(٣) *Ibid.*, p. 70.

(٤) Freud, A., *The Ego and the mechanisms of defense*, p. 121.

(٥) Thomson, C., "Identification with enemy and loss of the sense of self", *The psychoanalytic quarterly*, IX, 1940, p. 37.

من الداخل (الدوافع) ، استعانته بها على مواجهة الأخطار التى تصدر عن البيئة .

ومن الممكن تحديد نوع مختلف آخر من التوحد « على أساس الحاجات المشتركة » . فقد لا يكون للشخص أية رابطة بالموضوع إلا على أساس رغبته فى الحصول على اللذة التى يستشعرها الموضوع . « فالذات قد رأت تشابهاً هاماً بينها وبين ذات أخرى فى نقطة معينة ؛ فقام التوحد على هذه النقطة »(١). وعلى هذا النحو ، « قد يحدث التوحد كلما أدرك الشخص أنه يشارك شخصاً آخر فى صفة بعينها » دون أن تربطه بهذا الشخص أية رابطة انفعالية سابقة . « وكلما زادت أهمية هذه الصفة المشتركة زاد نجاح هذا التوحد الجزئى ، بحيث يصبح بداية لرابطة جديدة »(٢). ويرى « فنيكل » أن من الممكن محاكاة شخص تؤدى محاكاته كنموذج إلى نفع لبيدى أو احتمال التنفيس عن صراع باطنى .

ويميز « فرويد » بين ما يسميه « توحد الأنا بموضوع ما » وبين « إبدال المثل الأعلى للأنا (الأنا الأعلى) بموضوع ما »(٣). وتفسير ذلك أن الأنا فى التوحد « يكتسب صفات الموضوع ، فهو يدمج الموضوع فى ذاته » . وبالضد ، حين يحل الموضوع محل المثل الأعلى للأنا (الأنا الأعلى) ، كما هى الحال فى التنويم المغناطيسى والافتتان ، يُستبقى الموضوع ويفرط الأنا فى شحنه بالانفعال على حساب الأنا »(٤). فيكون ثمة إفقار للأنا ، يتوقف على مدى اضطراره للنزول عن معاييره الذاتية . أما فيما يتعلق بعملية إدماج بعض الناس أو الأفكار فى الأنا الأعلى ، فقد أشار « فنيكل » إلى الصعوبات المنوّعة التى تعترض طريقها . فحين يكون الاختلاف طفيفاً بين النماذج المدمجة الجديدة والمعايير القديمة ، يثير التكييف إشكالا غير ذى بال . بيد أن بعض

(١) Freud, S. *Group psychology and the analysis of the Ego*, p. 65.

(٢) *Ibid.*, pp. 65-66.

(٣) Freud, S., *op. cit.*, p. 110.

(٤) *Ibid.*, p. 76.

القوى الباطنية أو البيئية قد تخلق « طفيليات للأنا الأعلى » ، تقوم مؤقتاً بوظيفته — كما يحدث مثلا بتأثير التنويم المغناطيسى أو الإيحاء الجمعى . وتعتبر توحدات الأنا سابقة — من الناحية التكوينية — على توحدات الأنا الأعلى[١].

يوجد خلط كبير فى الربط بين مفهومى التوحد والإدماج . « ففرويد » لا يفرق بين استخدامه لهما ، ولكننا نعتقد أنه يرتأى فى الإدماج عملية تفضى إلى التوحد . وفى هذا الصدد يتحدث « فنيكل » عن « التوحد الذى يتم عن طريق الإدماج »[٢]. ويقر « فرويد » بغموض معنى التوحد فى قوله بأنه « عملية يصعب وصفها ، لم نعرفها بعدُ بما فيه الكفاية »[٣]. ويؤكد « نايت » أن « التوحد ليس عملية وليس مرادفاً للإدماج . إن التوحد واقعة تامة ، وليس فعلا ، وهو يمكن أن ينتج عن عدة عمليات مختلفة مفردة أو متجمعة ؛ وفى معظم الحالات يؤدى التفاعل المعقد بين الإسقاط والإدماج إلى خلق التوحد »[٤]

والملاحظ أن الشخص قد يتوحد بالموضوع كله أو بجزء منه . وقد يكون التوحد بالأفراد ، كما قد يكون بالجماعات والعائلة والأمة أو ما يرمز إليها من رموز ؛ كما يمكن أن يكون بالحيوان والجماد . وتعتبر توحدات الطفل المبكرة بشخص الوالدين من أهم عناصر تكوين الشخصية . يقول « فنيكل » : « إن أبرز التوحدات تكون بالوالد الذى يعتبره الطفل مصدر الحرمان الحاسم ، وهو عادة الأب فى المجتمعات الأبوية ، بيد أنه قد يكون الأم فى الأحوال الشاذة »[٥].

ومهما كان نقص معرفتنا بالتوحد فهو يلعب دوراً أساسيًّا فى نمو الشخصية ،

---

(١) Fenichel, O., *op. cit.*, p. 109.

(٢) *Ibid.*, p. 148.

(٣) Freud., S., *Group psychology and the analysis of the Ego*, p. 59.

(٤) Knight, R.P., "Introjection, Projection and Identification," *The psychoanalytic quarterly*, IX, 1940, p. 341.

(٥) Fenichel, O., *op, cit.*, p. 104.

فضلا عن كونه حيلة دفاعية حيال الخطر . ويندرج فى هذه المقولة الأخيرة مثلا « التوحد الثانوى » مفهوم « أنّا فرويد » الخاص بـ « التوحد بالمعتدى » ويرى « فرويد » أن التوحد عملية لاشعورية أولا وبالذات . وهو ما يؤكده « سايموندس » أيضاً إذ يقول : « إن التوحد عملية لاشعورية ، والشخص لا يكون شاعراً بأنه يعدل سلوكه وفقاً لسلوك شخص آخر »[١].

نمو الأنا

درس « فيرنزى »[٢]، وهو من أوائل مريدى « فرويد » ، المراحل المبكرة فى نمو الأنا . فارتأى أن الطفل ميال إلى جعل الخبرات اللاّذة جزءاً من ذاته (الإدماج) ، بينما يستبعد المؤلم منها إلى العالم الخارجى (الإسقاط) . والحاجات المادية غير المشبعة تنقص من اعتبار الطفل لذاته ، على حين يؤدى الإشباع إلى رجوع هذا الاعتبار وتكوينه ، وكل نقص فى حب الراشد يسبب حرماناً مماثلا . يقول « فنيكل » : « كل دليل يقدمه الراشد القوى على حبه يؤثر فى الطفل تأثير اللبن الذى يتغذى به »[٣].

ويميز « فنيكل » ، فى نمو الأنا المبكر ، مرحلة هى « السيطرة السلبية التقبلية » التى تأتى فى أعقاب « مرحلة النرجسة الأولية » . فالطفل إذ يشعر بدور الوالدين فى إشباع حاجاته ، يسعى إلى اللذة دون إعطاء ما يقابلها . « والأطفال قادرون على التمييز بين الأشياء وحبها ما دامت تجلب لهم اللذة . فإذا لم تفعل ، توحد الطفل بالموضوع وأحب نفسه عوضاً عنه »[٤]. وعلى نقيض « النرجسية الأولية » يسمى « فرويد » هذه الصورة من حب الذات « النرجسية الثانوية » (والتوحد المشار إليه هنا « التوحد الثانوى») .

---

(١) Symonds, P.M., *The dynamics of human a djustment*, p. 319.

(٢) Ferenczi, S., *Contributions to psychoanalysis*.

(٣) Fenichel, O., *op. cit.*, p. 41.

(٤) *Ibid.*, p. 84.

وفى مستهل العام الثانى ، يأخذ الطفل فى التبصر بالموضوع ، إلا أن هدفه الأساسى لا يزال إشباع حاجاته الشخصية ، والحاجة إلى الحب ما تزال أعظم من القدرة على بذله . أما فى الحب الموضوعى الحق ، الذى لا يبدأ فى التكوّن إلا بعد العام الخامس ، « فإن اعتبار الموضوع يكون من القوة بحيث يمتنع إرضاء الذات دون إرضاء الموضوع »(١).

ونمو السيطرة الحركية ضرورة فى نضوج الأنا ، فالطفل لا ينفك ينمى فى نفسه القدرة على تحمل درجات متزايدة من الحرمان ، بما فى ذلك كبت الحوافز ، بدلا من الأرجاع الحركية المباشرة التى يستجيب بها على المنبهات . كل هذا مرتبط بزيادة النشاط الحركى والقدرة على التعلم عن طريق المحاولات والأخطاء . وعلى وجه العموم ، فثمة رابطة وثيقة تجمع بين ملكة تقدير الواقع وملكة تحمل التوتر .

مراحل تطور العلاقات بالموضوعات

تتميز الأشهر الأولى من نمو الطفل ببنيان نفسى غير متفاضل الأجزاء وبانعدام القدرة على إدراك الأشخاص (الموضوعات) ومن ثمة على أى نوع من العلاقات ، وهو ما يسميه « فرويد » بمرحلة « الشبقية الذاتية » . وبتدرج نمو الأنا ، تتركز الطاقة اللبيدية برمتها فى الأنا . وهى مرحلة أطلق عليها اسم « النرجسة الأولية » ، وفيها تكون الذات نفسها موضوع اللذة ، بدلا من الموضوعات الخارجية التى يدركها الطفل الآن كموجودات مستقلة . فالطفل يسلك ، وكأن الوالدين وكل من يحيط به مجرد امتداد لذاته . وأول أنواع العلاقات بالموضوعات يصحب عادة وعى الطفل الضرورى بمطلق اعتماده على أمه التى تلبى حاجاته البدنية وتوفر له الطمأنينة . وينتقل الطفل بالتدريج من النرجسية الأولية إلى الحب الموضوعى حين ترتبط مشاعره (اللبيدو) بالأم

---

(١) *Ibid.*

أو ببديلة الأم . وهذا يؤلف أول ارتباط حقيقي بشخص آخر (استثمار موضوعي لليبيدو) ويكون مسبوقاً بتوحد مبكر بهذا الشخص . تقول « أنّا فرويد » إن الإشباع المتكرر للحاجات البدنية المبكرة هو العامل الأساسي الذي يغري الطفل بصرف اهتمامه اللبيدي عن جسده ؛ وحينذاك يأخذ هذا الاهتمام في التوجه إلى من كان في بيئته مسئولا عن تهيئة هذه اللذة[١]. مثل هذا التطور من حالة مركزية الذات (النرجسية الأولية) إلى العلاقة بموضوع معين ، عنصر ضروري في نمو الطفل نمواً انفعاليًّا سويًّا . يقول « فرويد » : « وأخيراً لا بد من أن نحب لئلا نمرض ، ولا بد من أن نمرض إذا لم نستطع أن نحب نتيجة للحرمان »[٢]. ويرى « ربيل » أن الحد الفاصل بين الوظائف الجسمية والنفسية حد رقيق لما كان للنمط الذي تقدم به العناية البدنية من تأثير حتمي في الطفل من الناحية السيكولوجية . . . « إنها أول علاقة في الحياة تنشط مشاعر الطفل الرضيع وتهيئ جهازه العصبي الوسنان للنشاط الوظيفي المكتمل ، خالعة بهذا على كل شخصية فردة طابعها الأصيل »[٣].

وعلاقات الأطفال المبكرة بالموضوعات ، من الثانية إلى الخامسة ، تعوزها مميزات الاختيارات الموضوعية الناضجة . ففي كل هذه الارتباطات ما يزال مهيمناً هدف إرضاء الذات وما يتصل به من العجز عن البذل الوجداني . أضف إلى ذلك أن مشاعر الحب التي يستشعرها الطفل نحو الموضوع تكون مصحوبة بمشاعر كراهية لها نفس القوة : فالعلاقات إذن مزدوجة إلى أقصى حد ، تتصاحب فيها دوافع حفظ الموضوع وتدميره . وتصف « أنّا فرويد » و « برلنجهام » تعلق الطفل بشخص الأم بأنه « شخصي ، استئثاري ، عنيف ، مصحوب بصنوف الغيرة والخيبة ، قد ينقلب إلى بغض وقد يكون قادراً على البذل . وهو يتجه أولا إلى شخص الأم ثم يتدرج فيشمل الأب ويأخذ في

---

(١) Freud, A., "Certain types and stagres of social maladjustment", *Searchlights on delinquency*, p. 194.

(٢) Freud, S., "On narcissism : An introduction," *op. cit.*, p. 42.

(٣) Ribble, M.A., *The rights of infants*, p. 13.

اعتباره وجود الإخوة والأخوات على أنحاء منوّعة »[١]. والمعتقد أن من الممكن — حتى سن الرابعة — أن توجد هذه النوازع المتناقضة ، مثل الحب والكراهية والميل والنفور ، دون أن يختل ميزان تكيف الطفل . ويرى « فينكل » أن نقطة التحول فى نمو الأنا تكون عندما يعجز الطفل عن تحمل هذه المشاعر المتعارضة دون صراع . أو كما يقول « ميرفى » : « إن التناقض الانفعالى بين جوانب الحب والخوف (الكراهية) هو المتسبب فى الصراع » ، وهى فكرة تلعب دوراً كبيراً فى سيكولوجية « فرويد »[٢]. مثال ذلك أن الصبى ، فى مستهل ما يسمى « بعقدة أوديب » ، يكتشف أن من المحال عليه الاحتفاظ بتوحده بالأب بجانب شعوره المتزايد بالعداوة نحوه . فى هذه المرحلة من التطور ، تكون النوازع اللبيدية ذات طبيعة جنسية مباشرة ، فهى تتضمن رغبات وأخيلة حسية مدارها الوالد من الجنس الآخر ، وتكون مصحوبة بمشاعر مزدوجة من المنافسة والكراهية موضوعها الوالد من نفس الجنس .

وتقتضى تسوية الصراع الأوديبى كبت الرغبات الجنسية كبتاً جزئيًّا وتحويل اتجاهها . فالمشاعر الحسية تفسح الطريق أمام مشاعر الحب . أو بتعبير فرويدى ، تتحول مقوّمات اللبيدو الجنسية إلى طاقة لبيدية غير جنسية أو « معطلة الهدف » .

« إذ ذاك تنتهى الشحنات الانفعالية للموضوعات ويحل التوحد محلها ، وتجرد الميول اللبيدية المميزة لعقدة " أوديب " تجريداً جزئيًّا من طابعها الجنسى فتتسامى ، وهو ما يحدث فى كل حالات التوحد . وتتعطل هذه الميول من حيث الهدف تعطلا جزئيًّا فتتحول إلى مشاعر الحب »[٣].

وعلى أثر تسوية عقدة « أوديب » يدخل الطفل فى مرحلة من نموه تسمى « بفترة الكمون » ، التى تمتد من الخامسة إلى أوائل البلوغ . وتتميز هذه المرحلة ، على نقيض سنوات الطفولة ، بتناقص الاهتمام الجنسى المباشر (بالذات أو

---

(١) Freud, A., Burlingham D.T., *War and children*, p. 190.

(٢) Murphy, G., *Personality : A biosocial approach to origins and structure*, p. 845.

(٣) Freud, S., "The passing of the Oedipus-Complex", *Collected Papers*, II, p. 273.

بالموضوعات) . وتظهر الطاقات اللبيدية فى صور متسامية معطلة الهدف ، فتستخدم فى التعلم والتطبع الاجتماعى أولا وبالذات . وفى فترة المراهقة ، تنبعث ثانية دوافع الجنسية الذاتية المكبوتة بجانب نوازع المراهقة الجنسية . فيحدث امتزاج بين جوانب اللبيدو الوجدانية والجنسية المباشرة ، بحيث ينسجم نشاطهما . وبتغلب النوازع التناسلية الناضجة وصيرورتها نمط الإشباع الأساسى ، يتحرر الفرد من قيود التعلق الوجدانى المفرط بالوالدين .

الأنماط العامة للعلاقات

يرى التحليل النفسى أن العلاقات بالموضوع تندرج تحت ثلاث مقولات كبرى . فنى العلاقة « النرجسية » يكون اختيار الموضوع ومسلك الفرد منه محفوزاً أولا بحاجات الفرد ودوافعه . والشخص يتصور أن للموضوع صفات مماثلة أو مناقضة لصفاته كل المناقضة . هذه الصفات قد تكون حقيقية أو خيالية ، والموضوع لا يستخدم بالطبع إلا فى إرضاء الذات . وتتضمن العلاقة « البديلة » ربط الموضوع بشخص مهم من أشخاص الطفولة ، فيرى الفرد فى هذا الموضوع خصائص ذلك الشخص (وهو عادة أحد الوالدين) ، وتظهر الانفعالات المتعلقة بهذه الرابطة الأولى . أما فى العلاقة « الحقة » أو الناضجة فيكون الموضوع مدركاً باعتباره شخصية منفصلة ، فيكون ثمة تبادل صحيح ، ويصبح من المحال إرضاء الذات بدون إرضاء الآخر .

فى السنوات الأولى من العمر ، تكون روابط الطفل بغيره أقرب إلى النوع « النرجسى » ثم تتزايد بالتدريج الأنماط « البديلة » إلى أن تظهر فى فترة الكمون العلاقات الموضوعية « الحقة » . ثم لا تلبث هذه الأخيرة أن تصير النمط الغالب على حياة الفرد السوى . ولكن لنذكر أنه ما دام ليس ثمة حد قاطع بين السوى وغير السوى ، فالعلاقات المميزة للطفولة لا تنقطع إلى حد ما لدى الراشدين .

وفضلا عن مختلف أنواع العلاقات المذكورة التى تبدأ بالتوحد وتنتهى

« بالحب الموضوعى » . هناك علاقات مجردة فى ظاهرها عن العناصر الانفعالية ، يسعى إليها الأفراد لتحقيق حاجات معينة . بهذا المعنى يتحدث « فنيكل » عن مواقف « لا يستجيب فيها المرء على الموضوع من حيث إنه موضوع ، وإنما يستخدمه كوسيلة للتخفيف عن صراع باطنى معين »(١).

تأثير البيئة المبكرة

يحدد نوعُ العلاقة بالوالدين انتقال الطفل السوىّ من اعتماده المطلق على الغير إلى الاستقلال المتزايد والقدرة على إقامة العلاقات السوية بالموضوعات . فحين يغلب على سنى الطفولة الأولى إشباع حاجات الطفل ، تقوى رغبة الطفل فى الخروج من ذاته والتقدم إلى مراحل النمو الجديدة . وبالضد ، يبعث الحرمان المبكر المستمر فى نفس الطفل شعوراً بعداء العالم له وخلوه من اللذات . وقد تبين أن الأطفال يستجيبون بالمرض على ما يفرضه عليهم الوالدان من حرمان وصد فى مستهل حياتهم . هذه الاستجابات المرضية تتخذ صورة الانكماش عن العالم أو المعاندة والعدوان السافرين . ويعتقد كثير من أطباء النفس أن نمو الذات القادرة على القيام بوظائف التنسيق . يعتمد على ما تخلفه الأم فى نفس الطفل خلال الأشهر الأولى من صور ثابتة مطمئنة . ويرى « ريبل »(٢) أن الطفل الرضيع الذى لم تخصه الأم بقدر كاف من العناية والتدليل يظهر سورات من الغضب فى الأشهر الأولى من الحياة . وإذا استطال الحرمان أظهر الطفل اضطراباً بيناً فى السلوك يستدعى عقاب الوالدين . وقد اتضح أن أمثال هذا الطفل يفقدون إحساسهم بالألم وبمواقف الخطر التى تثير الخوف فى الأطفال الأسوياء . وبتعبير أدق ، كما تقول « أنا فرويد » ، فى المواقف التى لم تتوافر فيها عناية الأم لسبب ما « لا يكتمل تحول اللبيدو النرجسى إلى لبيدو

---

(١) Fenichel, O., *op. cit.*, p. 87.

(٢) Ribble, M.A., "Anxiety in infants and its disorganizing effects", *Modern trends in child psychiatry*, pp. 11-25.

موضوعى ، بل يبقى فى المستقبل ثمة ميل قوى لانسحاب اللبيدو من الموضوعات وارتداده إلى الذات كلما أصبح عالم الموضوعات ممضًّا »[١].

ويرتأى « فرويد » أن العوامل الوراثية أيضاً تلعب دوراً كبيراً فى تعيين النحو الذى يستجيب به الفرد على صنوف الحرمان التى تفرضها عملية النمو. مثل هذه العوامل ، على غموضها ، لا تؤثر فى شدة الدوافع الرئيسية فحسب ، بل فى بناء الأنا كله . وقد دلت أبحاث « فريس » على وجود « أنماط محددة للنشاط » عند الوليد ، تؤثر تأثيراً خطيراً فى نمو الشخصية التالى[٢]. وهناك ما يدل على أن للأنا مميزات موروثة مستقلة، لها أثرها فى نمو الأنا فى المستقبل . ويفترض « فرويد » ، كما ذكرنا فيما سبق ، أن للدوافع مصدراً عضويّاً وأن « نظرية اللبيدو» تضرب بجذورها فى علم الحياة . ومن ثمة، فنحن لا نستخدم كلمة « الفرد » إلا وأدخلنا فى مضمونها تكوين الفرد الوراثى الخاص . وينظر « بيلوك » و « إكشتاين » إلى « نظرية اللبيدو » باعتبارها « صورة خاصة لمبدأ حفظ الطاقة كما يطبق على الظواهر النفسية »[٣]. وفى رأيهما أن « التحليل النفسى فرع من علم الحياة ، اختص بدراسة طبيعة العلاقات الإنسانية »[٤].

ويري التحليل النفسى أن ما يعرف عادة بتدريب الأطفال المبكر ينطوى فى الواقع على حث الطفل على الإقلاع عما يلتذ به من ضروب النشاط الطفلى . فإذا استجاب الطفل ، كان ذلك لأن حب الوالد ورضاه أهم لديه من الاحتفاظ بأنماط السلوك الممجوج ، مهما بلغ رضاه عنها . فكلما طلب الوالد من الطفل أن يكف عن التبول المتعمد فى الفراش أو عن تهشيم الأشياء ، استاء الطفل منه لطلبه العدول عن مسلكه . غير أنه يقبل التضحية إن كان الوالدان يحبّانه

(١) Freud, A., "Certain types and stages of social maladjustment," *op. cit.*, p.194.

(٢) Malcove, L., "Margaret Fries, research in problems of infancy and childhood," *The psychoanalytic study of the child*, I, pp. 405-414.

(٣) Bellak L. Ekstein, R.,, The extension of the basic scientific lawsto psychoanalysis and to psychology", *The psychoanalytic* review, XXXIII, 1946, p. 309.

(٤) *Ibid.*, p. 311.

حقاً . وبمضى الوقت ، يستغنى الطفل عن المزيد من التدريب لأنه يستبطن بالتدريج مواقف والديه ، فتصبح هذه المواقف سلطة أخلاقية باطنية (الأنا الأعلى) . ويرى « فرويد » أن بعض مشاعر الاستياء والدوافع العدوانية التى يستشعرها الطفل نحو من يقوم بتربيته ، تندمج فى الأنا الأعلى . يقول : « حين يظهر الأنا الأعلى لأول مرة ، يخلع الطفل على تلك الوظيفة جزءاً من عدوانه الذى يحسه نحو والديه دون أن يستطيع التعبير عنه ، لتعلقه بهما ولوجود العقبات الخارجية . لذلك ليس لصرامة الأنا الأعلى بالضرورة مقابل من صرامة التربية ذاتها »[1]. ولبقاء قدر كبير من العدوان الداخلى دور هام فى خلق الحالات المرضية التى تتضمن الميول اللاشعورية إلى تحطيم الذات ووخز الضمير .

ومن الوالدين من يعجز ، لأسباب متنوعة ، عن منح أطفالهم الحب والأمن الضروريين لنمو الشخصية السوىّ . فهم لا ينقطعون عن مقابلتهم بالصد والحرمان ، بدلا من إثابتهم على محاولتهم تطبيق معايير الوالدين السلوكية . وما دام الطفل لا يثاب على نموه ، فلا عجب إن ظل متعلقاً فى عناد بأنماط سلوكه الطفلية . وبجانب هذا . قد يصطدم الطفل بالبيئة عن طريق الاضطرابات السلوكية مثل السرقة والتخلف عن المدرسة ، بعد أن خاب أمله فى الحصول على الحب والاستحسان مقابل ما يقوم به من جهود لكبح جماح ميوله الطفلية . وقد يستبقى الطفل عادات يمجها المجتمع ، كالتبول فى الفراش ومص الأصبع ، ثأراً من والديه ، وبحثاً عن السلوى وتلذذاً بجسده . هذه الاضطرابات تدخل تحت مقولة « الانحرافات السلوكية الأولية »[2] . ولما كان هؤلاء الأطفال عاجزين عن أن يُحبوا وأن يحبوا . وأن يقيموا العلاقات بالغير ، فهم يوجهون إلى أنفسهم جل طاقتهم اللبيدية ، فيحبون أنفسهم ، بينما يصوبون عدوانهم إلى البيئة

(١) Freud, S., *New introductory lectures on psycoanalysis*, p. 150.

(٢) Van Ophuijsen, J.H., "Primary coduct disturbances, their diagnosis and treatment." *Modern trends in child psychiatry*.

الخارجية . والعلاقات التى يكونونها علاقات من النوع النرجسى ، تظل إلى حد بعيد رهن أهوائهم . ولما كانوا « يريدون ما يريدون حين يريدونه » ، كان اعتبارهم للخير والشر خاضعاً لحاجتهم إلى إشباع رغباتهم الاندفاعية إشباعاً مباشراً .

العوامل المؤثرة فى التعلق

رأينا كيف يعتمد أسلوب الفرد فى تعلقه بالآخرين ، سواء كان سوياً أو غير سوىّ ، على نوع العلاقات التى خبرها فيما مضى . وبعبارة أخرى ، تنضج إنية الطفل وتصبح قادرة على إدراك العالم وتفهم الناس ، إذا ما حصل الطفل على القدر الأمثل من اللذة . فهو حين يحس بحب الوالدين إذ يشبعان حاجاته البدنية ، يربط بهما معظم دوافعه اللبيدية (الحب) ، وفى الآن نفسه يسيطر على دوافعه العدوانية ويعدل من اتجاهها ، ويتعلم التمييز بين البدنى والانفعالى من الحاجات وتحمل مقادير متزايدة من الحرمان ، وبالتدريج يضبط استجاباته الطفلية ، لأن ارتقاءه إلى مستويات جديدة من النمو الانفعالى تحقق له لذة أكبر . ثم لا يلبث أن يحول إلى الغير ما يشعر به من مشاعر نحو والديه وإخوته . وتعتقد « أنّا فرويد » أن الطفل ينظر إلى الراشدين وكأنهم امتداد لأسرته . فيتوقع منهم أن يخصوه بنفس المعاملة التى خصته بها أسرته . ولكن الطفل يتمكن عادة من تمييز الأشخاص ذوى الأهمية بالنسبة إليه ، فيحول مشاعره على نحو أكثر استبصاراً[1].

وإن لم يوفق الطفل إلى تسوية الصراع الأوديبى ، صعب عليه الانتقال من حياة الأسرة إلى حياة المجتمع . فقد يميل الفرد إلى تحويل مشاعره ومشاكله الأوديبية إلى الآخرين ، بدلا من أن يرى فيهم شخصيات منفصلة . فتظل العلاقات ، فى المحل الأول ، من النوع « الإبدالى » ، الذى يلعب فيه الآخرون

---

(١) Freud, A., "Certain types and stages of social maladjustment," *op. cit.*, p. 196.

دور الوالدين . مثل هذا الشخص تنقلب حياته إلى « ميدان قتال تتصارع فيه المشكلات العائلية »[١].

أشرنا حتى الآن إلى عدد من العوامل المهمة التى تؤثر فى قدرة الشخص على إقامة العلاقات الاجتماعية ، وأول هذه العوامل مشكلة القدرة على تعدى المرحلة النرجسية . ذلك لأن « الأنانية » ، وليست الكراهية ، هى نقيض المقدرة على الحب . فالمشاعر المخصصة للموضوعات الخارجية تظل فى دخيلة الفرد وتستهلك فى حب الذات »[٢]. وحين يصبح الفرد قادراً على العلاقات الاجتماعية يبقى عليه أن يسوى الصراع الأوديبى ، بحيث يتمكن من أن يرى الآخرين بصفاتهم الحقة ، لا امتدادات للموضوعات الأولى . ومتى اشتد الصراع الأوديبى ، أصبح القلق المسبب عنه عقبة كأداء ، لا سيما فى تكوين العلاقات الجماعية . فإلى جانب النرجسية وما يصحبها من عجز عن البذل الانفعالى ، هناك مقدار القلق العصابى الذى يؤثر فى قدرة الفرد على تكوين العلاقات الاجتماعية الناضجة الدائمة (علاقات بموضوعات حقة) . وثمة عنصر آخر يتصل بحسن التصرف فى الدوافع العدوانية . كنا قد أشرنا إلى أن نضوج الأنا يقتضى تكامل الدوافع اللبيدية والعدوانية المتصارعة . وهو ما يتم عادة بعد حل عقدة « أوديب » . ثم إن هناك عاملا آخر هو ماهية العلاقة ، وفيها يكون لتخطى الفرد مراحل السلبية والاعتماد على الغير أهمية عظمى . وتظل حاجة الطفل إلى الاعتماد ، إذا لم تكن قد أشبعت بقدر كاف فى مستهل حياته ، قوة دافعة كبرى فى علاقته بالجماعة . ويرتبط بهذا مدى الضعف الذى لحق بالأنا الناشئ نتيجة لضغط البيئة ، مما جعل الفرد يلوذ بالسلبية والهرب ، وبلغة « أنا فرويد »[٣] ، تتطلب العلاقات السوية بالغير حداً أدنى من « قيود الأنا » التى تفرض على الشخصية . والنضج الانفعالى والصحة العقلية مرادفات لنمو الأنا القوى . « ويعتبر الأنا قوياً إذا لم يكن فى التوتر الغرزى الناجم عن الدوافع ،

---

(١) *Ibid.*

(٢) Freud, A., and Burlingham, D.T., *op. cit.*, p. 191.

(٣) Freud, A., *The Ego and the mechanisms of defense*, pp. 100-113.

تهديد بالقضاء على الأنا أو شل لوظيفته ، وإذا لم تكن فى مطالب الأنا الأعلى ، وما تسببه من قلق ووخز ضمير ، إضعاف للأنا ، ونحن نعتبر الأنا قوياً إذا كان الشخص قادراً على السيطرة الفعالة على حياته ، بالتوفيق بين أوضاعه الفردية وحاجاته الاجتماعية ؛ إذا كان قادراً على أن يوسع من مجال ذاته وأن يلتذ بها كما يلتذ بعلاقاته بالآخرين ؛ وكما يلتذ بنشاطه وعمله وبخيرات العالم وثقافاته »[١].

دعاوى « فرويد » الخاصة بالسلوك الجماعى

يرى « فرويد » إذن أن الميول الاجتماعية فى الإنسان هى فى جوهرها استجابات متعلمة ، تتطور بتطور الشخصية طوال الحياة . ويرجع الفشل فى تطورها إلى مقدار الحرمان الذى تفرضه البيئة أو القوى الباطنية من ناحية ، ومن ناحية أخرى قدرة الكائن العضوى على مواجهته . هذا إلى أن الحرمان المفرط الصادر إما عن النفس (الصراع الباطنى) وإما عن البيئة ، قد يؤدى أيضاً إلى تدهور كيفية العلاقات الاجتماعية القائمة ودوامها .

وثمة دعوى أخرى تقول بأن كل العلاقات الاجتماعية ، بغض النظر عن شكلها الخارجى ، تسلك نفس المسلك وتنبع من نفس الدوافع الدينامية . فالارتباط البدائى الذى يربط الطفل بأمه ، وحب الأم له ، وحب الطفل لوالديه وإخوته وارتباطه بأقرانه وبالراشدين ، واصطدامات الحدث وروابطه بالجماعة ، وحب الراشد لزوجه وولائه لأصدقائه و « حبه لوطنه » — كل هذه النماذج من العلاقات لا توجد فحسب فى مراحل مترابطة ترابطاً تاريخياً وديناميًا ، بل هى متشابه فى طبيعتها أيضاً . يقول « مننجر » : « إن الميل والحب لا يختلفان إلا من حيث الشدة »[٢].

أما فى حالة ما إذا كان التعلق بالموضوعات والمثل العليا خالياً من العناصر

---

(١) Schoenberger Mahler, M., *op. cit.*, p. 56.

(٢) Menninger, K., *Love against hate*. p. 271.

الجنسية المباشرة ، فذلك مرجعه إلى حدوث ما يسميه « فرويد » «بتعطل هدف » الدوافع اللبيدية . يقول : « لقد أستبيح بعض التقدم فى اتجاه الإشباع ثم حدث التعطل أو الانحراف »[1]. وقد يكون مثل هذا الكف أحياناً ذا طبيعة مؤقتة . فيخلق « مرحلة إضافية ممهدة لإتمام الدافع » ، قد تجلب فى النهاية لذة أعظم من لذة الإشباع الفعلى . وفى مواقف أخرى ، قد يكون التعطيل دائماً ، إذ يحل محل الحافز الأصلى من الناحية الدينامية . وبتغير السلوك على هذا النمط قد يظهر التسامى بالإضافة إلى مجرد تعطيل اللبيدو . ويستخدم الأنا هذه الطاقة اللبيدية والعدوانية « المعطلة الهدف» والمتعادلة فى إقامة العلاقات بالموضوعات ، إذ أن « دوام العلاقات بالموضوعات لا يتوقف فقط على تعطيل الدوافع اللبيدية وتعادل اللبيدو المتبقى ؛ وإنما نفترض أن نفس المقتضيات توجد بالنسبة للعدوان ، فيقيد تصريف العدوان ، وتتعادل الطاقة العدوانية المتبقية »[2]. ويؤكد « فرويد » ميزة الحوافز « المعطلة الهدف » على الحوافز اللبيدية المباشرة . ذلك لأنها « ما دامت لا تقدر على الإشباع الكامل الحق ، فهى مؤهلة لخلق الروابط الدائمة على وجه التخصيص ، بينما تتعرض الدوافع الجنسية المباشرة إلى نقصان طاقتها كلما أشبعت ، فلا بد من أن تنتظر تجددها بتراكم اللبيدو ثانية ، بحيث قد يتغير الموضوع إبان هذه العملية . والدوافع المعطلة قادرة على أية درجة من درجات الامتزاج بغير المعطل منها ؛ وفى وسعها أن تستحيل إليها كما صدرت عنها . وغنى عن البيان أن علاقات الودّ المبنية على التقدير والإعجاب تتطور فى يسر إلى رغبات شبقية »[3].

وهكذا ينكر « فرويد » وجود أى ثنائية حقة بين العلاقات الشبقية والعلاقات ذات الطابع الاجتماعى الأولى ، أى بين الحاجات البيولوجية والاجتماعية ،

---

(١) Freud, S., "Instincts and their vicissitudes.," *Collected Papers*, IV., p. 65.

(٢) Hartmann H., Kris, E., Loewenstein, R.M., "Notes on the theory of aggression", *op. cit.*, p. 31.

(٣) Freud, S., *Group psychology and the analysis of the Ego*, p. 119.

ويعبر « مونتاجو » عن فكرة مماثلة فى قوله : « إن الحب هو المبدأ المسيطر على كل سلوك بيولوجى سوىّ ، والحب والسلوك الاجتماعى والتضامن والأمن ، تكاد تعنى كلها نفس الشىء . فبدون الحب لا وجود لمسلك اجتماعى سليم ، ولا للتضامن أو الأمن . فالقول بأن تحب جارك محبتك لنفسك ، ليس مجرد نص جيد لموعظة يوم الأحد ، وإنما هو مبدأ بيولوجى مصيب كل الإصابة »[١]

ويشير « ميرفى » كذلك إلى امتناع التمييز بين الحاجات البيولوجية والاجتماعية ، « لأن ما هو اجتماعى هو حقيقة بيولوجية أسوة بالحقائق الأخرى . والمجتمع يقوم على العلاقات البيولوجية مثل علاقة الأم بطفلها ، وهذه القوى البيولوجية الأساسية لا بد أن تتفهمها أية دراسة فى الشخصية »[٢].

(١) Montagu, M.F.A., "Man and the social appetite" *Saturday review of literature*, November 19, 1949, p. 57.

(٢) Murphy, G., *op. cit.*, p. 769.

الفصل الثالث

العمليات الأساسية فى الجماعات

علم النفس الفردى والجماعى

كان « فرويد » من أوائل الكتاب الذين أنكروا وجود أية ثنائية حقيقية بين علم النفس الفردى وعلم النفس الجماعى ، وتستند نظرياته فى التطور النفسى إلى افتراض أن المراحل الهامة فى نمو الشخصية تظهر فى التفاعل الدينامى المستمر بين الفرد والبيئة أى فى المواقف الجماعية المنوّعة . ولما كان الفرد يقضى مع أسرته أولى سنوات حياته وهى سنوات ذات أثر بالغ ، تعتبر الجماعة العائلية والأنماط التى تغرسها فى نفس الطفل ، أساساً للعلاقات الفردية والجماعية المستقبلة . يقول « فرويد » : « تنطوى حياة الفرد النفسية على وجود فرد آخر على الدوام ، باعتباره نموذجاً أو موضوعاً أو نصيراً أو خصماً ، بحيث يكون علم النفس الفردى ، منذ البداية ، علم نفس اجتماعى أيضاً — بالمعنى الواسع المسوغ لهاتين اللفظتين »(١) . وقد كان « فرويد » على ما يلوح ، واعياً بتعدد الأدوار التى تقوم بها الشخصية الفردة ، رغم أنه لم يفصّل الكلام فى ذلك . وهكذا يرى أن « كل فرد جزء مقوّم لعدة جماعات ، فروابط التوحد تربط به فى اتجاهات كثيرة ، وهو يبنى مثله الأعلى للأنا (الأنا الأعلى) محتذياً أشد النماذج تنوعاً »(٢).

ويؤكد « آكرمان » أخيراً مفهوم الأسرة باعتبارها جماعة ووحدة اجتماعية ووجدانية . وهو يرتأى أن هذه الجماعة فى كليتها أشد تأثيراً فى بناء شخصية الطفل من علاقته بأى فرد من أفرادها .

ويدرس « إريكسون » العلاقات المتبادلة بين العناصر السيكولوجية الجماعية

(١) Freud, S., *Group psychology and the analysis of the Ego*, p .22.

(٢) *Ibid*., p. 101.

والفردية . وهو يقتفى أثر « فرويد » فى ملاحظته السالفة الذكر ، فيفحص بالتفصيل دور النماذج الاجتماعية والأطرزة التى تتقمص مُثُل الخير والشر فى تطور الأنا الفردى . ويسلم المؤلف نفسه بوجود مفهومين هما « وحدة الجماعة » و « وحدة الأنا » . يشير المفهوم الأول إلى « الطرق الرئيسية التى تتبعها الجماعة فى تنظيم التجربة »[١] . وتخضع هذه الوحدة لتأثير منظورات الجماعة الجغرافية والتاريخية ، ولتأثير « الأنا والزمان والمكان » الجماعية ، وأهداف الجماعة الاقتصادية وحدودها ، وخطة الحياة الجماعية » . أما « وحدة الأنا » فهى الوعى الذاتى عند الفرد بأن « الأنا يتعلم كيف يتخذ خطوات فعالة نحو مستقبل جماعى ملموس ، وإنه يتحول إلى أنا معين داخل واقع اجتماعى معين »[٢]. ويحتوى هذا المفهوم على أكثر من مجرد الوحدة الشخصية ، لأنه « يعنى أكثر من مجرد الوجود . . . ؛ إنه الصفة الذاتية من هذا الوجود . . . ؛ إنه الوعى بأن ثمة مماثلة واتصالا فى طرق الأنا التركيبية وأن هذه الطرق فعالة فى صون المماثلة والاتصال فى معنى الفرد بالنسبة للغير »[٣].

ويوتأى « إريكسون » أن تربية الطفل هى طريقة الجماعة فى نقل « وحدتها الجماعية » إلى خبرات الطفل البدنية المبكرة وذاته الناشئة . والأنا عند الطفل لا يكون قد نما بقدر كاف إن لم يكن ثمة شعور بأن طريقته الخاصة فى السيطرة على التجربة ، هى صورة موفقة من وحدة الجماعة ، وإنها فى اتساق مع زمن الجماعةومكانها وخطة حياتها ، ويؤكد « إريكسون » دور العوامل الانفعالية فى تربية الأطفال داخل نطاق الجماعة . ويرى أن أتفه المظاهر الانفعالية وأدقها إنما هى وسائل تنقل إلى الطفل وحدة الجماعة . ويشير « إريكسون » أيضاً إلى أن مفاهيم الهو والأنا والأنا الأعلى عند « فرويد » يجب أن تشمل ثلاث عمليات كبرى هى : « ١ — عملية تنظيم الأجهزة العضوية أثناء دورة

(١) Erikson, E.H., "Ego development and historical change", *The psychoanalytic study of the child*, II. 1947, p. 361.

(٢) *Ibid.*, p. 363.

(٣) *Ibid.*

الحياة الزمانية المكانية (النمو ، النشوء التلقائى ، تطور اللبيدو إلخ) . ٢ — عملية تنظيم التجربة عن طريق قدرة الأنا التركيبية (الأنا والزمان والمكان ، وحيل دفاع الأنا ، ووحدة الأنا إلخ) . ٣ — عملية تنظيم الأنا المتعضى تنظيماً اجتماعياً فى وحدات جغرافية تاريخية »[١].

والملاحظ أن هذه الصيغة تتجه إلى الربط بين العناصر السيكولوجية الفردية والجماعية . وفى رأى المؤلف ، « أن هذه العمليات ، وإن تباينت ، إنما توجد ببعضها وبالنسبة لبعضها البعض . فأى عنصر يتغير معناه وطاقته فى إحدى هذه العمليات يتغير فى العمليات الأخرى فى الآن عينه »[٢].

الأسرة — أولى جماعات الفرد

رأينا فى الفصل السابق كيف تتطور شخصية الطفل — فى الظروف الملائمة — من حالة المركزية الذاتية التامة إلى القدرة والرغبة فى الاتصال بالأم وبالوالدين كزوجين وبالإخوة وبغيرهم من الناس . ولاحظنا أيضاً كيف تشتمل العلاقات الموضوعية الناضجة على المقدرة على البذل والأخذ الانفعاليين ، وكيف يتعين على الطفل أن يؤجل الكثير من نوازعه (الحب والعدوان) أو يتخلى عنها أو يغير وجهتها ، إن أراد أن يصير كائناً اجتماعياً . وتعلم الطفل التقاسم والتعاون يصدر عن اضطراره إلى أن يعاشر جماعة من الناس هى أعضاء أسرته . والحياة العائلية تتضمن حتماً فقدان بعض التفرد والإنية الشخصية وكذلك النزول عن الرغبات الشخصية ، لا سيما إذا كانت تتعارض وحاجات الغير . وقدرة الفرد على التكيف مع مطالب الحياة العائلية تتوقف على مقدرته على تحمل الحرمان كما تتوقف على توفر اللذات البديلة . وكون المرء عضواً فى الجماعة العائلية ، وإن كان يستدعى بعض التضحيات ، إلا أنه يحقق اللذات والفوائد التى لا تنفصل عن الحياة الاجتماعية .

---

(١) *Ibid.*, p. 394.

(٢) *Ibid.*, p. 395.

وليست الأسرة أولى خطوات الفرد نحو الارتباط بالغير فحسب ، ولكنها أيضاً نموذج للعلاقات الجماعية التالية . فالطفل ينقل إلى الجماعة التى يلعب معها ، اتجاهاته الشعورية واللاشعورية الهامة نحو نفسه والوالدين والأطفال الآخرين ، وهى نفس الاتجاهات التى تكونت فى مجرى الحياة العائلية .

والإشباع الأمثل لحاجات الفرد المبكرة . يمكن الفرد من توسيع نطاق اتصالاته الاجتماعية توسيعاً مطرداً ، فتشمل الجماعة المدرسية والنادى والجمعيات المميزة للجماعات الراشدة ؛ وقد وجد « فلوجيل » أن التوحد بالجماعات الكبيرة المعقدة يتطلب « مستوى عالياً نسبياً من النضج السيكولوجى . وهو ما لا يمكن بلوغه إلا من خلال المراحل المتوسطة التى يكون فيها الاهتمام موجهاً إلى جماعات أصغر حجماً وأيسر منالا ، وضمنها الأسرة وهى أكثر الجماعات بدائية وفطرية وجوهرية »(١). ويقول « فولكس » : « إن آثار الجماعة العائلية لترسب فى أعماق النفس الإنسانية مكونة نواة الأنا والأنا الأعلى »(٢). ويولى « ميرفى » الخبرات العائلية المبكرة أهمية مماثلة . يقول : « تتحول الاستجابات المشروطة إلى أشخاص مماثلين لمن تكونت بهم أولى الارتباطات . إذا كان هذا حقاً ، لكان لنا أن نتوقع أن تصبح الاستجابات العميقة القوية للوالدين والإخوة والأخوات ، الأصل الذى يتفرع عنه مجال الصداقات والعداوات والعلاقات الاجتماعية المستقلة بذاتها وغير المستقلة »(٣). ويرى « ميرفى » أن هذه الأصول العائلية هى الجوانب الثابتة الأقل تعرضاً للتحلل من بناء الخلق .

أظهرت هذه المناقشة بجلاء أن « موضوع المشاهدة التحليلية ، فى رأى « فرويد » ، ليس الفرد فى عزلته ؛ فالفرد جزء من عالم . والتحليل النفسى لا يدعى أنه يفسر السلوك الإنسانى باعتباره نتيجة للدوافع والأخيلة فحسب ؛ بل إن السلوك الإنسانى موجه إلى عالم من الناس والأشياء »(٤). كذلك يؤكد

(١) Flugel, J.C., *Men and their motives*, p. 80.

(٢) Foulkes, S.H., *Introduction to group analytic psychotherapy*, p. 17.

(٣) Murphy, G., *Personality*, p. 843.

(٤) Hartmann, H., Kris, E., "The genetic approach in psychoanalysis," *The psychoanalytic study of the child*, I, 1945, p. 25,

« كون » أنه ما من أحد يكون وحيداً أبداً ، ملحًّا فى أن الإنسان يولد داخل جماعة هى الأسرة ويقضى جل حياته عضواً فى مختلف الجماعات[١]، وبتفاعل الفرد مع هذه الجماعات تنمو بالتدريج الجوانب الاجتماعية من نفسه . وقد بين « إريكسون » بوضوح أنه ما من إنيّة فردية إلا وكانت لها مقوماتها الاجتماعية . وفى كل موقف اجتماعى (الأسرة ، زمرة اللعب ، جماعة العمل) قد يظهر الفرد أنماطاً من السلوك مختلفة فريدة فى ظاهرها ، أى أنه يلعب أدواراً اجتماعية ، هى عناصر فى الذات الكلية ، تتكشف إبان عملية التكيف مع جماعة معينة .

درست « إيزاكس » مسلك الأطفال الصغار فى إحدى دور الحضانة وتدل مشاهداتها على أن ميول الأطفال الذين هم دون الرابعة من العمر تتركز بطبعها على الأنا . أو كما تقول : « إن ثمة اعترافاً بوجود الأطفال الآخرين ، لا بشخصياتهم أو بأغراضهم المستقلة ، فالطفل مفتقر إلى الآخرين وهو يستخدمهم للذته الخاصة »[٢]، وهى ترى أن أمثال هؤلاء الأطفال لا يؤلفون جماعة حقة بالمعنى السيكولوجى للكلمة ، بل إن كلا منهم مستقل فى مسلكه عن غيره ومستغرق فى أغراضه الشخصية . وكل يستخدم الآخرين كوسيلة لغاية ، بغض النظر عما إذا كانت المعاملات السائدة عدوانية أو وديّة . وبعد سن الرابعة ، تأخذ الظواهر الجماعية المؤقتة فى الظهور ، بمعنى أنه يمكن تبين أن ثمة اهتماماً أو نشاطاً مشتركاً بين طفلين أو أكثر . هذه الظواهر تكون أولا عابرة غير مستقرة ثم تزداد دواماً ويصبح لها كيان محدد عند الأطفال بعد سن السابعة . وتخلص « إيزاكس » من هذا كله إلى أن نمو الطفل الاجتماعى يتميز بسلسلة متصلة من مراحل التطور الدينامية والتكوينية ، تبدأ بالاتصالات العائلية المبكرة . « ومن الممكن استقصاء آثار النمو الاجتماعى فى حركته الأمامية

---

(١) Kohn, E., "Die Psychoanalyse in den Gesellschaftswissenschaften." *Das Psychoanalytische Volksbuch*, Switzerland, 1949, p. 574.

(٢) Isaacs S., *Social development in young children*, p. 214.

والخلفية ؛ وإن كانت الصورة الإجمالية للطفل فى السابعة مثلا تختلف فى جوانب عديدة عن صورته فى السنتين الأوليين ، فهى ليست فى جوهرها بالجديدة فما من شىء فى المراحل المتأخرة لم ترسم معالمه فى المراحل المتقدمة ولا يمكن رده إليها عن طريق عمليات التغير والنمو التى لا تنقطع »[١].

الجمهرة والجماعات الأكثر ثباتاً

حين وضع « فرويد » كتابه الرئيسى فى علم النفس الجماعى سنة ١٩٢١[٢]، كان جل اهتمام علماء الاجتماع موجهاً إلى ظواهر الجمهرة . وقد أشار « فرويد » فى كتابه إلى نظريات « لوبون » و « تارد » و « تروتر » و « ماك دوجال » فى هذا الموضوع . وكان لوصف « لوبون » مسلك الجماهير أعمق الأثر فى نفس « فرويد » ، « لأنه يتفق كل الاتفاق مع مبادئنا التى تؤكد أهمية الظواهر اللاشعورية فى الحياة النفسية »[٣]. ويتوسع « فرويد » فى دراسة الظواهر اللاشعورية فى السلوك الجمعى فيقول : « يمكن القول بأن الأطباق العليا من البناء النفسى ، وهى متباينة فى الأفراد ، قد تلاشت ، وأن الأسس اللاشعورية المتماثلة فى الجميع قد تجلت سافرة للعيان . . . فالفرد يجد نفسه فى موقف يتيح له أن يطرح جانباً كل كبت لدوافعه اللاشعورية »[٤].

وإن كان « فرويد » يسلم مع « لوبون » بوجود الحوافز اللاشعورية فى ظواهر الجمهرة ، إلا أنه يأخذ على نظريته قصورها عن تفسير دور القائد وطبيعة التماسك الاجتماعى وأسبابه ، ويستطرد إلى ذكر الملاحظة التالية : « إذا كان الأفراد فى الجماعة يؤلفون وحدة معينة ، فلا بد من وجود شىء يوحد بينهم ، وهذه الرابطة قد تكون هى نفس ما يميز الجماعة »[٥].

---

(١) *Ibid.*, p. 388.
(٢) Freud, S., *Group psychology and the analysis of the Ego.*
(٣) *Ibid.*, p. 23.
(٤) *Ibid.*, p. 9.
(٥) *Ibid.*, p. 7.

وكان « فرويد » واعياً بأن ثمة فارقاً بين ظواهر الجمهرة المؤقتة التى يصفها « لوبون » و « تلك الجماعات الثابتة التى يقضى فيها الإنسان حياته والتى تتمثل فى النظم الاجتماعية »[١]. وبهذه المناسبة ، يستعرض « فرويد » أفكار « ماك دوجال » فى السلوك الجماعى ، مبرزاً خاصة التفرقة التى يضعها « ماك دوجال » بين الجماهير باعتبارها جماعات « غير منظمة »، والجماعات الأكثر نظاماً ، ثم يسرد « الشروط الرئيسية » الخمسة التى يميز بها « ماك دوجال » الجماعات الثابتة : ١ — وجود بعض العناصر المستمرة فى حياة الجماعة . ٢ — وعى الأعضاء بطبيعة الجماعة الجوهرية وأغراضها ، ٣ — تفاعل الجماعات مع غيرها من الجماعات المماثلة . ٤ — وجود قانون يعين العلاقات بين الأعضاء . ٥ — وجود بناء مسئول عن تمايز الوظائف وقسمتها بين أعضاء الجماعة[٢] . وليس لهذه الجماعات ما للجماهير من « نقائص سيكولوجية » ، كما « يمكن أن نتجنب التدهور الجمعى للقدرة الفكرية فيها بسحب أداء المهام العقلية من الجماعة وإسنادها إلى الأفراد من أعضائها »[٣].

لم يبد « فرويد » اعتراضاً أساسيًّا على صياغة « ماك دوجال » هذه لمميزات الجماعات الأكثر ثباتاً . ولكنه يفسر « تنظيم الجماعة » على نحو مختلف . « والمشكلة هى كيف تكتسب الجماعة نفس الصفات المميزة للفرد والتى تختفى منه بتأليف الجماعة . فالفرد ، خارج الجماعة البدائية (الجمهرة) ، يكون مالكاً لوجوده وشعوره بالذات وتقاليده وعاداته ووظائفه الخاصة ومركزه ، فضلا عن انعزاله عن أنداده . وهو يفقد هذا التمييز لوقت ما ، نظراً لدخوله فى جماعة غير منظمة »[٤] . وبعبارة أخرى ، كلما زادت الجماعة انتظاماً ، زاد ضبط الدوافع اللاشعورية الفردية ، ومقاومة قوى الإيحاء والانتكاص واحتفاظ الفرد بذاتيته .

(١) *Ibid.*, p. 26.
(٢) McDougall, W., *The group mind*, Putnam, 1920.
(٣) Freud, S., *op. cit.*, p. 31.
(٤) *Ibid.*, pp. 13-32.

وإذا كان « فرويد » يتقبل آراء الكتاب السالفى الذكر ، أمثال « لوبون » و « ماك دوجال » التى تنص على أن التجمهر يؤدى إلى « اشتداد الانفعالات وتعطل العقل » . فهو يقر فى الآن نفسه بأن « زيادة الجماعة تنظيماً يمنع إلى حد ما ظهور هذه النتائج المجموجة »[١]. وفى موضع آخر يتحدث « فرويد » عن ظواهر الجمهرة باعتبارها « بيئة لا تخطئ على انتكاص النشاط الذهنى إلى مرحلة بدائية لا ندهش لوجودها عند المتوحشين والأطفال . مثل هذا الانتكاص على وجه التخصيص ، هو المميز الجوهرى للجماعات العادية ، بينما يكون من الممكن التحكم فيه إلى حد ما ، داخل الجماعات المنظمة غير التلقائية »[٢].

ويعترف « فرويد » بتعقد التجمعات وتباينها داخل نطاق المجتمع . يقول : « هناك الجماعات الزائلة والجماعات الدائمة الباقية ، وهناك الجماعات المتجانسة المؤلفة من أفراد متماثلين ، والجماعات غير المتجانسة ؛ وهناك الجماعات البدائية (الجماهير) والجماعات المعقدة التنظيم ذات البناء المحدد »[٣]. وهو يفرق بين الجماعات المتزاحمة وغير المتزاحمة ، ويميز أيضاً بين ما يسميه بالجماعات « الطبيعية التى تخرج إلى حيز الوجود من تلقاء نفسها » ، والجماعات « المصنطعة » مثل الكنيسة والجيش ، التى « تخضع لقوة خارجية تمنعها من التحلل وتحد مما قد يعترى بناءها من تغير »[٤].

وسوف نرى فيما بعد أن « فرويد » يستنتج ضمناً أن كل الجماعات تشترك فى بعض العناصر الانفعالية الدينامية المعينة ، رغم هذا التعدد الخارجى .

---

(١) *Ibid.*, p. 33.

(٢) *Ibid.*, p. 82.

(٣) *Ibid.*, p. 41.

(٤) *Ibid.*, p. 42.

القابلية للإيحاء

لم يرض « فرويد » عن محاولة « لوبون » و « ماك دوجال » تفسير ما يطرأ على سلوك الفرد من تغير فى الجماعة ، عن طريق « كلمة سحرية » هى الإيحاء ، وقد وجد أن تصور المحاكاة نفسه عند « تارد » مرتبط ارتباطاً جوهرياً بمفهوم الإيحاء ، وذلك لأن المحاكاة هى نتيجة للإيحاء . ولا يقتصر « فرويد » على الاعتراض على الغموض الذى يكتنف استعمال هذه اللفظة ، وإنما يلاحظ أيضاً أن « أحداً لم يفسر طبيعة الإيحاء ، أى طبيعة الظروف التى يحدث فيها التأثير دون أساس منطقى كاف »[1]. ثم إنه ينبه إلى أن تأثير الإيحاء لا ينقل من القائد إلى أعضاء الجماعة فحسب ، بل من فرد إلى آخر أيضاً . وينتهى به التحليل إلى أن الروابط اللبيدية « تختبئ وراء ستر الإيحاء » ، وعلى هذه الروابط تقوم كل العلاقات الجماعية ؛ فهى القوة الممسكة بكيان الجماعة . أضف إلى هذا ، أن تغير سلوك الفرد بتأثير الجماعة — وهو المقصود بالقابلية للإيحاء — لا يكون إلا « لأنه يحس الحاجة إلى التناغم معها بدلا من معارضتها ، أى أنه يصدر فى سلوكه عن محبته لها »[2]. وهكذا . لا ينظر « فرويد » إلى الإيحاء « كظاهرة أولية نهائية »[3]، بل يستعين بالمفهوم التحليلى للبيدو لكى يفسر الإيحاء وغيره من جوانب العمليات الجماعية . وبهذا الصدد ، وضع « رديل » مفهوم « اللبيدو الجماعى » ، وحدده بأنه اللبيدو (دوافع الحب) « الذى يظهر فى أحوال تكون الجماعات . . . وإذا تعارفنا على النظر إليه من ناحية الأحوال التى تكون فيها كميات اللبيدو ، إما صالحة للاستعمال وإما معطلة ، بات من الممكن استخدامه أيضاً كصورة لفظية مختصرة لموقف بالغ التعقيد »[4]. وفى الجمهرة ، كما فى سائر الجماعات ، يشبع الفرد حاجته إلى

---

(١) *Ibid.*, p. 37.
(٢) *Ibid.*, p. 40.
(٣) *Ibid.*, p. 35.
(٤) Redl, F., "Group emotion and leadership", *Psychiatry*, V, 1942, p. 588.

الحب ورغبته فى الارتباط بالغير ، ويعترف « ميرفى » هو الآخر بوجود مثل هذه العملية وراء الظواهر الجمعية . يقول : « ليس الحافز إلى التجمع إلا مظهراً قوياً من مظاهر هذا الحافز إلى المعاشرة . وقابلية الجماعة للإيحاء التى ينعيها الكتاب ، تنطوى على الحاجة الإيجابية إلى الأقران . وهى وإن كانت تعتبر تحقيقاً كاملا لحاجة عميقة إلى الاعتماد على الغير ، إلا أنها تكون دائماً مختلطة على أنحاء متفاوتة ، برغبة القائد والمقود فى الاحتفاظ بفرديتهما »(١).

ولنتنبه إلى أن « فرويد » لم ينكر وجود العدوى الانفعالية فى العلاقات الإنسانية . يقول : « لا ريب أن ثمة شيئاً فينا يدفعنا إلى الإحساس بنفس الانفعال الذى نرى علاماته فى غيرنا من الناس »(٢). ويؤكد كذلك أن الأفراد يستسلمون دائماً جماعة لهذه العدوى ، بينما يسهل عليهم مقاومتها فى علاقاتهم الفردية . ويلوح أن التوحد هى العملية الفعالة فى ظاهرة العدوى الانفعالية . فالأفراد يحاكون أنماط سلوك الغير بعد توحدهم بمن بدأ بهذه الأنماط . ومن المستطاع الربط بين التوحد الذى نشير إليه ههنا وبين ما يسميه « فينكل » « بالتوحد على أساس الحاجات المشتركة »(٣).

ويقول « فرويد » : « إن العملية هى التوحد القائم على الإمكان أو الرغبة فى أن يضع المرء نفسه فى نفس الموقف »(٤). وقد يوجد أيضاً ذلك النوع البدائى من التوحد الذى أشارت إليه « جريناكر » بقولها : « يختلف الناس قطعاً فى سهولة عدواهم بالمسلك الجماعى ؛ ويرجع ذلك إلى غلبة هذا النوع من التوحد البدائى على شخصيتهم ووجود حالة خاصة من الاستهداف مصدرها التوترات الانفعالية الكامنة فى أنفسهم . ولكن من المحال التحصن ضد العدوى الانفعالية الجماعية ، حتى إذا كان مضمون أو قضية المظاهرة الجماعية معارضة لمبادئ الفرد العقلية »(٥).

---

(١) Murphy, G., *Personality*, p. 766.

(٢) Freud, S., *op. cit.*, p. 35.

(٣) Fenichel, O., *The psychoanalytic theory of neurosis*, p. 222.

(٤) Freud, S., *op. cit.*, p. 64.

(٥) Greenacre, P., "A genetic approach to the problem of inconsistency in social attitudes", *The journal of social issues*, V. 1949, p. 22.

وحديثاً . درس « رديل » العدوى الانفعالية فى الجماعات الصغيرة التلقائية ، وحدّ الظاهرة بأنها « انتشار السلوك من شخص إلى شخص أو إلى جماعة بأسرها »[١]. ويعتبر ما حدث إبان اجتماع مجلس الإدارة الذى عرضنا له فى الفصل التمهيدى : مثالا للعدوى الانفعالية فى حياة الجماعة . وسوف نعرض لمثال آخر فى سياق الحديث عن ظاهرة الضحية . ويميز « رديل » بين العدوى الإيجابية والسلبية على أساس تيسير أو تعويق حركة الجماعة . وبعبارة أخرى ، قد تكون العدوى — بعكس ما يلوح للكثيرين — قوة مفيدة تدفع بالجماعة قدماً .

وغنى عن القول أن تفسير العدوى لا يكون إلا بالرجوع إلى كل من العوامل الجماعية والفردية . ويسود « رديل » ، ضمن العوامل الجماعية ، ما يلى : (١) مكانة المبادئ فى الجماعة (كلما ارتفعت مكانة المبادئ فى السلوك ، زاد الاحتمال فى حدوث العدوى) ، (ب) قرب منطقة السلوك من قانون الجماعة (تقوى العدوى إذا كانت بعض جوانب السلوك فى اتساق مع قانون الجماعة وكانت محل أفراد الجماعة) ؛ (حـ) اشتراك الأفراد فى نفس الاتجاه التعبيرى الأساسى (تزيد عدوى السلوك بدرجة مساعدته على إطلاق الحد الأقصى من الحاجات المعطلة) ؛ (د) حجم برنامج الجماعة وبنيانه ونمطه التنظيمى وطبيعته (تبين أن لهذه العوامل آثار تختلف باختلاف الظروف المعينة . ولم يكن فى وسع « رديل » أن يستخرج منها النتائج العامة) ، (هـ) الجو الجماعى (يزيد احتمال حدوث العدوى حين يكون السلوك متناغماً مع « مزاج الجماعة » السائد)[٢].

أما عن العوامل الشخصية الفردية فى العدوى الجماعية ، فيقول « رديل » : « إن ثمة احتمالا كبيراً بأنها تعين وقت العدوى ومداها أكثر من تعينها سبب

(١) Redl, F., "The phenomenon of contagion and 'Shock effect' in group therapy", Searchlight on dilinquency, p. 315.

(٢) Redl, F., *op. cit.* pp. 317-319.

العدوى » . ثم ينتقل إلى تحليل العمليات الانفعالية فى الفرد المُبادئ بالسلوك (المُبادئ) وفيمن يأخذون بأنماط السلوك نفسه (المحاكون) . وقد وجد أن المُبادئ « يصور تحقيق رغبة الآخرين ، ويظهر أن من الممكن تحقيقها دون وخز من ضمير » . أما المحاكون ، فهم إذ يعاينون تحقيق ما يريدون فعله تحقيقاً فجائياً خلواً من الخوف والذنب ، يتذبذبون بين الرغبة (الهو) وضبطها (الأنا الأعلى) حتى تتغلب الرغبة . وتسوية الصراع الذى ينشأ عن ذلك يكون عن طريق فعل صريح أوحى به سلوك المُبادئ . وفى بعض الأحايين ، لا يكون من الضرورى أن يقطع المُبادئ الشوط حتى نهايته : فقد يكون فى مجرد إيماءته أو تعبير وجهه ما يفصح عن عدم خوفه من إشباع دافع ما ، فترجح كفته الميزان . وفى بعض الأحايين الأخرى ، تكون المعاينة المباشرة لسلوك المُبادئ عنصراً جوهرياً فى إثارة العدوى »[1] . وقد يفقد أعضاء الجماعة قدرتهم على ضبط أنفسهم بتأثير ما يسميه « رديل » « بالتسمم النفسى الجماعى » . فقد يشتركون فجأة مع غيرهم فى صور من السلوك لم تخطر لهم على بال . ولنأخذ على سبيل المثال حالة « ليليان » ، وهى طالبة ممتازة ، متعاونة — بشكل نادر — فى مختلف نواحى الحياة المدرسية ، خالفت ذات مرة لوائح المدرسة مخالفة خطيرة . فهى لم تستسلم فحسب لإغراء زمرة من أترابها تخلفت عن الدراسة يوماً بأسره ، ولكنها تسربت أيضاً معهم فى المساء إلى الملعب للعب كرة السلة ، وبهذا الصدد ، يتقدم « رديل » بفرض شيق هو : قد يكون للفرد فى الجماعة « نقطة انصهار سيكولوجية جماعية » مختلفة ، بغض النظر عن « مستوى سيطرة الأنا » المميز له[2] . فقد يكون فى الفرد « مستوى سيطرة الأنا » منخفضاً ، ولكنه قد يكون أكثر مقاومة لتأثير الجماعة ، بينما قد يكون فرد آخر عاجزاً عن هذه المقاومة رغم ارتفاع مستوى سيطرة الأنا لديه ...

ويناقش « رديل » أيضاً ظاهرة متصلة بالأولى يسميها « بالعدوى غير

(١) Redl, F., *op. cit.*, pp. 317-319.

(٢) Redl, F., "The concept of Ego disturbances and Ego Support", *American journal of orthopsychiatry*, XXI, 1951, p. 276.

المباشرة » ويقصد بها حال الفرد الذى يجعل الجماعة تستجيب انفعاليًّا إلى أنماطه السيكولوجية ، دون أن تحاكى مسلكه مباشرة . ويسرد مثل طفل مازوشى الميول ، « دفع بالجماعة إلى حد الوقوع فى نقيض النمط الذى يسلكه فى إشباع ميوله (الإغراء السادى المازوخى) »[١] . ويعتبر « رديل » ما يسميه « بالعدوى » و « العدوى غير المباشرة » « شيئاً واحداً من الناحية الكلنيكية » .

ويذكر « سلافسون » ظاهرة مماثلة للعدوى ، يسميها « العدوى المزاجية » ، تحدث « حين يعتنق سائر الأطفال حاجة الطفل الأقوى » . وهو يتحدث أيضاً عن « عملية التشجيع المتبادل » وفيها « قد يبدأ طفل ما لعبا صاخباً أو تعبيراً مفرطاً عن فرحته . فإذا بسائر الأطفال يتخلون عن شغلهم أو عن هدوء طبعهم فيفقدون بالمثل سيطرتهم على أنفسهم . وهذا يؤثر فى غيرهم فيخرجهم عن أطوارهم ، مما يزيد من هياج الجماعة الأولى . فثمة إذاً سلسلة لانهائية من الأفعال التى يستحث بعضها البعض والتى قد تبلغ حد الهستيريا الجماعية »[٢] . ويميز « سلافسون » بين من يقوم بدور « المحرِّض » وبدور « المحايد » من أعضاء الجماعة . فالمحرضون ينشطون الجماعة ، بينما يكبح المحايدون جماحها . وقد يكون نشاط المحرضين إنشائيًّا أو هداماً . أما المحايدون فهم « المؤثرون تأثيراً إنشائيًّا فى الجماعة ، القادرون على الحد من سورة الخصومة والعدوان فيها . وهم يعملون على استقرار الجماعة ويكون ذلك عن طريق الكلام أو النشاط الجماعى أو الاهتمام الجماعى »[٣] . كذلك تقوم « الضحية بأدوار منشطة للجماعة إذ تجلب على نفسها عدوان بعض الأفراد وخصومتهم ، والمثل يقال عن العامل الحفاز إذ يشجع النشاط اليدوى والاجتماعى بين أفراد الجماعة »[٤] . والعامل

---

(١) Redl, F., "The phenomenon of contagion and 'Shock effect' in group therapy", *loc. cit.*, p. 322.

(٢) Slavson, S. R., "Some elements in activity group therapy". *op. cit.*, p. 588.

(٣) Slavson, S.R., *An introduction to group therapy,* p. 119.

(٤) *Ibid.*, p. 120.

الحفاز يؤثر فى الجماعة دون أن يكون ثمة بينة خارجية على حدوث أى تغير فى السلوك .

ويضع « رديل » مفهوماً آخر من مفاهيم التفاعل الجماعى ، هو ما يسميه « أثر الصدمة » ويقصد به عجز الفرد عن تحمل تأثير الجماعة فيه . وهكذا قد يستجيب الأفراد بسورات مباغتة من القلق أو الغضب أو التنكب ، حين تهدد الجماعة اتزان شخصيتهم . وفكرة « رديل » فرضية بالطبع ، يقول : « إن السؤال عما يحدد ما إذا كانت الاستجابة فى موقف ما من قبيل العدوى أو أثر الصدمة ، سؤال شيق ، كان بودى أن أعرف كيف أجيب عنه »[١] .

وما زلنا قاصرين عن تفهم ظاهرتى الحث المتبادل والعدوى تفهماً كاملا ، بالرغم من أن المفاهيم التى عرضنا لها تعد خطوات لبلوغ هذه الغاية . ويرجع بعض الصعوبة إلى العجز عن فصل التيارات الانفعالية ، وهى فى الغالب لاشعورية ، المميزة للتفاعل الجماعى ، ودرسها على حدة . وبهذا الصدد ، يشعر « رديل » أنه « أعزل حيال الدقة الحدسية التى ينقل بها أفراد الجماعة معانيهم على نحو يعدو مجال اللغة المعتادة رموزها »[٢].

العوامل الانفعالية فى تماسك الجماعة

رأينا كيف استرعى انتباه « فرويد » ما تتركه الجماعة من تأثير قوى فى أفرادها . لاحظ أنها قد تغير مشاعر أفرادها وأفعالهم تغييراً بعيد المدى . فهو يرى أن الأنانية والتزمت والاستخفاف بالغير تقل أو تختفى « على أثر تكوين الجماعة وداخل نطاق الجماعة »[٣]. كذلك يقرر « ألبورت » « أننا إذا استثنينا بعض الحالات الفردية ، لوجدنا أن الإنسان يجنح بطبعه إلى تلطيف

---

(١) Redl, F., "The phenomenon of contagion and 'Shock effect' in group therapy", *loc., cit.*, p. 325.

(٢) *Ibid.*, p. 327.

(٣) Freud, S., *op. cit.* p. 56.

آرائه ومسلكه ، احتراماً لآراء الغير ومسلكهم . . . ومشاركة الآخرين التفكير والحكم معناه خضوع المرء لاشعوريًّا لمعاييرهم »[١] . ويفحص « فرويد » الروابط الانفعالية داخل جماعتين « مصطنعتين » هما الكنيسة والجيش ، ويستنتج من ذلك أن القوى السيكولوجية المقوّمة للجماعة هى الروابط اللبيدية القائمة بين أعضاء الجماعة ، وبين الأفراد وقائد الجماعة . « فإذا كان الحب النرجسى للذات يخضع فى الجماعة لقيود لا تفرض عليه من الخارج ، ففى هذا بيّنة قوية على أن جوهر الجماعة يتألف من نوع جديد من الروابط اللبيدية تربط أعضاءها بعضهم ببعض »[٢] . وذلك لأن « تغيير النرجسية لا يمكن أن ينجم إلا عن عامل واحد ، هو الرابطة اللبيدية بالغير . فحب الذات لا يعرف إلا عائقاً واحداً — هو حب الغير أو حب الموضوعات »[٣] . فإذا كان كل فرد فى الجماعة « مرتبطاً فى اتجاهين مختلفين بنفس الرباط الانفعالى العنيف ، كان من السهل علينا أن نرد إلى هذا الظرف ما شاهدناه فى شخصيته من تغير وتقيد »[٤] .

ومن جهة أخرى : يدلل « فرويد » على أن مجموعة من الناس لا تربط بينهم الروابط الوجدانية السالفة الذكر ، لا يمكن أن تؤلف جماعة سيكولوجية . ولكنه يرى أن من الممكن أن تستحيل مجموعة معينة من الأفراد إلى جماعة بهذا المعنى لا سيما إن كانت تجمعهم اهتمامات أو حاجات مشتركة . ويقارن « فرويد » هذه العملية بارتباط الطفل بمن يشبع حاجاته الأولى ارتباطاً لبيديًّا . « فاللبيدو يستند إلى إشباع الحاجات الحيوية الكبرى »[٥] . ويقول فى موضع آخر : « إن الوعى بوجود اهتمامات واحدة مشتركة ، يولد

---

(١) Allport, F.H., *Soocial psychology*, p. 278.

(٢) Freud, S., *op. cit.*, p. 58.

(٣) *Ibid.*, p. 56.

(٤) *Ibid.*, p. 45.

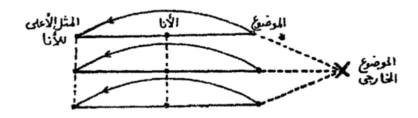
(٥) *Ibid.*, p. 57.

لدى أعضاء الجماعة شعوراً بالوحدة والتضامن الأخوى . هو أساس قوتها الحقة »(١).

ويؤكد عالم النفس الاجتماعى « ماى » ، أهمية التبادل الانفعالى وإثابة أعضاء الجماعة بعضهم بعضاً ، فى تكوين التآزر الجماعى . يقول : « من أهم ما يتعلمه المرء أن يلتذ باللذة التى يوفرها للغير وإن كان فيها تضحية لنفسه »(٢).

ويميز « فرويد » بين نوعين من العلاقات الليبيدية فى الجماعات هى التوحيد والروابط بالموضوعات . ويرى أن التوحد يحدث بالذات فى الجماعات المقودة بين أعضاء الجماعة ، بينما تميز الروابط بالموضوعات علاقة كل فرد بقائد الجماعة . يقول : « إن الرابطة المتبادلة بين أعضاء الجماعة هى من قبيل التوحد القائم على اشتراكهم فى صفة انفعالية هامة . ونحن نرجح بأن هذه الصفة المشتركة تنشأ عن طبيعة الرابطة التى تربط الأعضاء بالقائد »(٣). أما مبدأ «فرويد» الخاص « البنيان الليبيدى للجماعات » : فينطبق فى رأيه على الجماعات المقودة التى لا تتميز بالإغراق فى « التنظيم » . هذا المبدأ يقول : **« إن جماعة من هذا القبيل هى عدد من الأفراد استبدلوا المثل الأعلى للأنا (الأنا الأعلى) بموضوع واحد بالذات ومن ثمة توحد بعضهم بالبعض من حيث الأنا »** (٤).

وهو يقترح التمثيل لهذا المبدأ بالشكل الآتى :



(١) Freud, S., "Why War", in *Civilization, war and death*, p. 85.

(٢) May, M.A., *A social psychology of war and peace*, p. 121.

(٣) Freud, S., *Group psychology and the analysis of the Ego*, p. 66.

(٤) *Ibid.*, p. 80.

وقد أدخل « فرويد » تعديلا على هذا المبدأ ، يقول بأن أى مثل أعلى جماعى بل أى اشتراك فى الاهتمامات ، قد يحل محل القائد ، فيؤدى إلى تكوين الجماعة تكويناً سيكولوجياً . ويضرب « فرويد » لذلك مثلا من الجيش . يقول : « من البيِّن أن الجندى يتخذ من رئيسه ، أى من قائد الجيش ، مثلا أعلى يحتذيه ، على حين أنه يتوحد بأقرانه ، مستمداً من هذا التوحد الالتزامات التى ينص عليها التآخى ، الالتزامات الخاصة بتبادل العون واقتسام الممتلكات ولكنه يصبح هزءة إن حاول التوحد بقائد الجيش »[١] .

أضف إلى هذا أن كل عضو من أعضاء الجماعة ينظر إلى القائد باعتباره رمزاً لشخص الوالدين ، بينما يخلع على سائر الأعضاء القيمة الانفعالية للأخوة . وعلى هذا النمط تتحول الاتجاهات الانفعالية من الأسرة إلى العلاقات الجماعية اللاحقة . وهو ما يقره « ميرفى » إذ يقول : « لقد أحس " فرويد " بهذه الحقيقة وتعمق فى دراستها فى كتابه علم **النفس الاجتماعى وتحليل الأنا** ، حيث بين أن الكنيسة والجيش يستمدان سلطانهما الوجدانى من البناء العائلى الذى لا ينفصل عن كيانهما . وهكذا حين يقابل المرء رجلا يقود جماعة ويحميها ، فبم يدعوه ؟ سيدعوه بالأب طبعاً ، وهو اللقب الذى يطلق على قس الأبراشية . وما اسم جماعة من العزاب وقفوا حياتهم على غرض سماوى ؟ " الإخوة " بالطبع . وما شأن نساء لهن نفس الأهداف ؟ اسمهن " الأخوات " . وما اسم المرأة الموكول إليها رئاستهن ورعايتهن ؟ اسمها " الأم الرئيسة " . كذلك يكون قائد الجيش " أبا لرجاله " — بمعنى الكلمة . والرباط الأخير لوفاء الجندى يتجلى فى تعبيرات تعكس خبراته العائلية ، مثل " أخى "[٢] . »

ويجدر بالملاحظة أن المبدأ السالف الذكر الخاص بتكوّن الجماعات والرسم التخطيطى المرفق به ، لا يصدق بحرفيته ، فى رأى « فرويد » ، إلا على ظواهر الجمهرة . يقول : « نحن لانرى معجزة اختفاء مقوّمات الفرد اختفاء تامًّا ،

---

(١) *Ibid.*, p. 110.

(٢) Murphy, G., *Personality*, p. 843.

وإن كان مؤقتاً ، إلا فى تلك الجماعات الزائلة الصاخبة »[١]. ولكنه يعتقد أن هذه العلاقات تختلف من حيث الدرجة فى الجماعات الأكثر ثباتاً ودواماً . فالفرد لا ينزل إلا عن جزء من الأنا الأعلى ، والنكوص فى مسلكه واتجاهاته يكون أقل أو منعدماً على الإطلاق . وكل عضو فى الجماعة يستبقى جزءاً على الأقل من استقلاله وإنيته . ونضجه الانفعالى يعين مدى تأثره بالجماعة . وفى حالة الجماعات غير المقودة ، يرتئى « فرويد » أن « المثل الأعلى للجماعة » (قانون الجماعة الأخلاقى) قد يحل محل القائد ويستبدل بالأنا الأعلى لدى الفرد ، بل قد يتقاسم هذا الدور مع « قائد ثانوى » .

وحين نظر « كريس » فى العناصر الانفعالية المقوّمة للدعاية أثناء الحروب وجد أن فكرة « فرويد » فى فقدان الفرد إنيته فى الجماعة واعتناقه الأنا الأعلى لدى قائده ، تعبر بالدقة عما يحدث فى الجماعات الاستبدادية ، فى هذا النمط من الجماعات ، يتقبل الفرد قائده بوصفه مثلا أعلى للأنا ، بحيث يمكننا أن نتكلم عن توحد فى الأنا الأعلى . . . »[٢]. أو بتعبير أدق « يحدث توحد جزئى بالأنا الأعلى لدى القائد ، بينما ينصب التوحد الكلى على المثل الأعلى الذى يشترك فيه كل من القائد والمقود » ، أما فى المواقف الجماعية الديموقراطية : « فإن التوحد بالأنا يكمل التوحد بالأنا الأعلى » : مما يمكن عضو الجماعة من الاستجابة الفردية ، بل النقدية أحياناً[٣]. ومما يساعد على قيام نوع من التوحد يتميز بشدة الاعتماد على الغير ، إفراط الأفراد فى نكوصهم الانفعالى ونبذهم استقلالهم العقلى والخلقى .

وقد بين « فرويد » فى دراسته للكنيسة أن من الممكن أن يتوحد الفرد بالقائد ، بجانب ارتباطه به كموضوع مستقل . هذا إلى أن من المستطاع أن يساير التوحد بين أفراد الجماعة وجود العلاقات بالموضوعات . ولكن « فرويد »

---

(١) Freud, S., *op. cit.*, pp. 101-102.

(٢) Kris, E., "Some problems of war propaganda", *The psychoanalytic quarterly*, XII. 1943, p. 395.

(٣) *Ibid.*

لم يتحقق دراسة هذه الأنماط ، تاركاً لغيره مهمة دراسة مفاهيمه الأصيلة فى العلاقات الانفعالية الجماعية ، ومحاولة توضيح غوامضها . أكمل « رديل » مثلا مبدأ « فرويد » الخاص بتكون الجماعات على النحو التالى : « إذا استخدم عدة أشخاص موضوعاً بعينه كأداة للتخفيف من حدة نفس الصراع المشترك . فإنهم يجنحون إلى التوحد بعضهم بالبعض الآخر ، وإلى الشعور بالود نحو بعضهم البعض »[١]. إذ ، كما يقول « فينكل » : « لا يشعر الناس بالرضا تجاه فعل " ممجوج " يخفف من وخز ضميرهم فحسب ، وإنما يشعرون أيضاً بالامتنان نحو فرد " طيب" لا يثير فى أنفسهم أفكاراً شريرة بل يدفعهم إلى المشاركة فى طيبته »[٢].

وفى تحليل العمليات الانفعالية التى تحدث بين أعضاء الجماعات التلقائية يميز « رديل » بين « الانفعالات الجماعية الجوهرية » و « الانفعالات الجماعية الثانوية » . ويتناول المفهوم الأول عمليات تكوّن الجماعة ، بينما ينطبق المفهوم الثانى على العمليات التى تحدث أثناء وجود الجماعة . يقول : « الانفعالات الجوهرية هى الأحداث الغرزية والانفعالية التى تحدث فى نفوس أفراد الجماعة المستقبلة والتى هى أساس لعمليات تكوّن الجماعة . أما الانفعالات الجماعية الثانوية فهى تلك العمليات الغرزية والانفعالية التى تحدث داخل أعضاء الجماعة وفيما بينهم والتى ظهرت نتيجة لبعض العمليات المسئولة عن تكوّن الجماعة »[٣] . ويتقدم « مونى — كيرل » بتعديل شيق لنظرية « فرويد » فى تكوّن الجماعات . فهو يسلم بأن النموذج اللاشعورى الذى تحتذيه الجماعة فى تكوينها ، هو العائلة المتخيلة ، لا الحقيقية . ففى وسع الطفل أن يتخيل والديه فى أربع صور على الأقل — بوصفهما خيرين أو شريرين . وهو يتصورهما خيّرين فى لحظات حبه لهما ، وشريرين حين يستثيران عداوته . واستبطان هذه

---

(١) Fenichel, O., *op. cit.*, p. 87.

(٢) *Ibid.*, p. 500.

(٣) Redl, F., "Group emotion and leadership", *loc. cit.*, p. 575.

الشخوص الأبوية الخيرة والشريرة يؤدى إلى تكوين ضمير الطفل الخلقى ، والمرء لن ينفك — طيلة حياته — أن يسعى باحثاً عن صورة العائلة التى تخيلها ، وهو يبحث عنها فى العالم الخارجى ولا سيما فى مختلف الجماعات [١].

ويميز نفس المؤلف بين ثلاثة أنواع من الرموز التى تمثل الوالدين فى الصورة اللاشعورية التى يكونها الطفل عن أسرته : — ١ — « الوالدان الخيران » (ولا سيما الأم) يتصورهما الطفل باعتبارهما يمثلان معايير الجماعة ومثلها العليا ، بينما يبدو — ٢ — « الوالدان الشريران » فى صورة المضطهدين المهددين لقيم الجماعة . ثم إن — ٣— « الوالدين الخيرين » ، ولا سيما الأب باعتباره مسئولا عن حماية الأم ، يظهر ثانية فى شكل قائد الجماعة أو قوادها . وبناء على ما سبق ، يتقدم « مونى — كيرل » بالمبدأ التالى : « تتألف الجماعة ، حين يقع عدد من الأفراد على رموز واحدة تمثل عناصر هذا النمط اللاشعورى (صور الوالدين الخيرين أو الشريرين) » [٢].

ويعتبر « الكسندر » الاعتماد الانفعالى لدى أفراد الجماعة عنصراً أولياً فى تماسكها . يقول : « إن القوة الممسكة للحياة الجماعية هى اعتماد الأعضاء بعضهم على بعض وثقتهم بقائدهم » [٣] كذلك يؤكد « شيلدر » أهمية عنصر الاعتماد فى العلاقات الجماعية . وهو يعتبره حاجة إنسانية شاملة ، يساعد على وجودها بطء النمو الإنسانى . وينطوى اعتماد الفرد على غيره من أفراد الجماعة ، على عناصر شبقية وأخرى اجتماعية ، بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة. [٤]

ولا يعتبر التماسك الجماعى مجرد نتيجة للارتباطات الانفعالية السالفة الذكر بين الأعضاء والقائد . فقد يكون أيضاً امتداداً لنرجسية الفرد (من الزهو

---

(١) Money-Kyrle, R., "Varieties of group formation," *Psychoanalysis and the social sciences*, pp. 314-315.

(٢) *Ibid.*, p. 329.

(٣) Alexander, F., *Our age of unreason*, p. 260.

(٤) Schilder, P., "Introductory remarks on groups", *The journal of social psychology*, XII, 1940, p. 89.

بالذات إلى الزهو بالجماعة) ، أو نتيجة لحاجته إلى جماعة أقوى تحميه . ويلمح « فرويد » فى موضع من مواضع **علم النفس الجماعى وتحليل الأنا** ، إلى أن تماسك الجماعات وما يصحبه من مناداة بالمساواة بين أعضائها ، هو مظهر من مظاهر توحد الأعضاء بعضهم ببعض . وقد يكون هذا التوحد رد فعل على مشاعر التنافس على حب القائد ، وهى لاشعورية بطبعها[1] . إذا كان هذا مقصده ، لكان ذلك غير متسق مع قوله السابق بأن من الممكن أن يوجد التوحد فى الجماعات دون أن يكون ثمة رابطة لبيدية سابقة بالقائد . وهذا التوحد يجنح إلى خلق التماسك الجماعى وتقويته . ويقرر « فرويد » صراحة فى ١٩٣٢ : « أن الاعتراف بوحدة الاهتمامات ، يفضى إلى تنمية الروابط بين جماعة متحدة من الناس — فيخلق مشاعر الوحدة وهى مصدر قوتها الحقة »[2] : ويقول « كل ما يؤدى بالناس إلى الاشتراك فى اهتمامات ذات بال ، يولد هذا الاشتراك فى المشاعر ، أعنى التوحد »[3]. ويشير « فرينش » إلى عوامل أخرى تعمل على تقوية التماسك الجماعى هى : توفير الأمن والرضا عن طريق نشاط الجماعة المعتاد وتذكر العقبات التى وفقت الجماعة إلى تخطيها[4].

طبيعة الروابط اللبيدية

يفترض « فرويد » . كما أشرنا سابقاً ، أن الطاقة النفسية الكامنة وراء علاقات الفرد بغيره (وهى تتضمن أيضاً العلاقات الجماعية) مشتقة من الدوافع اللبيدية . وفى الروابط الجماعية التى لا تظهر فيها مباشرة العناصر الشبقية *، تتخذ

(١) Freud, S., *op. cit.*, pp. 86-88.

(٢) Freud, S., *Collected Papers*, vol. V, p. 276.

(٣) *Ibid.*, p. 284.

(٤) Freneh, T.M., "The psychodynamic problem of democracy" in *Civilian morale* (G. Watson, editor), p. 28.

* هناك بعض المواقف الاجتماعية التى تتبدى فيها الدوافع الجنسية بشكل سافر ، كما هو الشأن فى زمر الأحداث الذين يرتكبون جرائم الجنس ، أو جماعات المنحرفين الجنسيين .

الدوافع اللبيدية (والعدوانية) صورة « معطلة الهدف» . « فى الجماعات لا محل بالطبع لوجود أهداف جنسية من ذلك النوع ، وإنما ينصب اهتمامنا على الدوافع الشبقية التى تحولت عن أهدافها الأصلية والتى ما تزال محتفظة بكامل طاقتها »[١] ويمكن اعتبار هذه التحولات فى الحوافز الجنسية « درجات من الحب » ، وأنها تطغى « بعض الطغيان على الأنا »[٢].

ومهما يكن من شىء ، يؤكد « فرويد » أن العناصر الشبقية يمكن أن تتبدى بسهولة فى كل الجماعات ، بل قد تحل أحياناً محل الطابع الاجتماعى الودى الخالص للعلاقات . والسبب فى هذا هو أن الدوافع المعطلة الهدف لا تزال محتفظة ببعض أهدافها الجنسية الأولى ، ففى العلاقة الأفلاطونية ذاتها ، لا يفتأ الصديق أو المعجب أن يرغب فى التقرب الجسدى إلى من يحب . وإذا كانت الدوافع المعطلة الهدف ، فى رأى « فرويد » ، أكثر دواماً من الدوافع الجنسية المباشرة ، « فهى قد تمتزج بالدوافع غير المعطلة امتزاجاً متفاوت الدرجات ؛ وقد تتحول إليها ثانية كما صدرت عنها »[٣].

أشار « فلوجيل[٤]» إلى سهولة ظهور هذه العناصر الشبقية فى العلاقات « الاجتماعية » الخالصة . وهى أكثر وضوحاً فى الجماعات المؤلفة من الجنسين ، ولكن يمكن مشاهدتها أيضاً فى الجماعة المقصورة على جنس واحد ، لاسيما ، النساء . كذلك قد تقوم هذه الروابط الاستجناسية بين أفراد جماعات الذكور كما هو مشاهد فى جماعات الأحداث والمدارس والجيش .

ولا يغيبن عنا أن وجود الجماعة يتعرض للخطر ، كلما كانت الحوافز التى تربط أعضاء الجماعة جنسية خالصة . وذلك لأن « اجتماع فردين بغية الإشباع الجنسى ، وبقدر ما يكون هذا الإشباع فى معزل عن الناس ، إنما

(١) Freud. S., *Group psycholagy and the analysis of the Ego, p.* 58.

(٢) *Ibid.*

(٣) *Ibid.*, p. 121.

(٤) Flugel, J.C., *Men and their motives*, London, 1934.

هو احتجاج على غريزة القطيع والشعور الجماعى . وكلما زاد الحب الذى يربط بينهما ، زاد اكتفاء الواحد بالآخر . وإطراح تأثير الجماعة يتخذ شكل الإحساس بالعار ، أما مشاعر الغيرة العنيفة فتساعد على وقاية موضوع الاختيار الجنسى من طغيان الروابط الجماعية »[١].

وهو ما يحدث مثلا فى جماعات المراهقين . فقد يظل الصبيان والبنات أعضاء مشغوفين بالجماعة سنيناً طوالا ، إلى أن يكوّن بعضهم أزواجاً فى منأى عن الجميع ، إذ ذاك يتضاءل تعلقهم بالجماعة فجأة . وغالباً ما ينفك على هذا النحو عقد زمر المراهقين عندما يقربون من سن الرشد . واستجابات أعضاء الجماعة على أول زوج ينفصل عنها ، شيقة جديرة بالتسجيل . أول ما يلفت النظر هو الاستياء ، الذى يتجلى فى الإشارة إلى « الأضرار التى يلحقها بالنادى هؤلاء المفتونون بالجنس » ؛ أو « كيف يمكنه أن يفضل امرأة واحدة على الزمرة القديمة بأسرها » . وهى مشكلة قد يصعب حلها إذا قامت فى جماعات المراهقين الخاضعة للإشراف ، إبان إقامتها فى المعسكرات والمدارس ومنازل الطلبة . إذ يجب على المشرف أن يستعين بكل ما أوتى من لباقة لمقاومة الانجذاب الجنسى المباشر مقاومة مجدية . وإذا أراد أن يستبقى الجماعة كجماعة فعالة ، وجب عليه أن يبتكر أساليب تنمية الشعور الجماعى والاهتمامات والنشاط المشترك .

ويقول « فرويد » إن الاهتمامات الجنسية المباشرة بين أفراد الجنسين ، تجنح إلى تهديد وحدة الجماعة أكثر من الاهتمامات الجنسية بين أفراد نفس الجنس . كذلك وجد « فلوجيل » أن العلاقات الاجتماعية بين أفراد الجنس الواحد أكثر دواماً من العلاقات بين الجنسين . وهو ينسب هذا الثبات إلى الحرية النسبية التى يتمتع بها الأولون حيال الميول الجنسية المشتتة[٢]. ويقول « فرويد » : « لا معنى للتساؤل عما إذا كان الليبيدو الذى يمسك بنيان

---

(١) Freud, S., *Group psychology and the analysis of the Ego*, p. 121.

(٢) Flugel, J.C., *op. cit.*, p. 58.

الجماعات ، منتمياً إلى الجنسية المثلية أو الغيرية ، وذلك لأنه غير متمايز بحسب الجنس ولأنه — على وجه التخصيص — لا يأبه ألبتة لأهداف التنظيم التناسلى للبيدو »[١]. غير أن «فينكل» يتمسك بأن « الحوافز المعطلة » التى تحرك الجماعات « تنتمى إلى الجنسية المثلية ، لاسيا فى مجتمعنا الحالى »[٢]. ويعترض « رديل » على هذا الرأى ، مؤكداً أن الدوافع الجنسية فى لبيدو الجماعات لا تقل عن الدوافع المثلية ، ويعتقد أن عملية « التوحيد الثانوى » تستخدم العلاقات الجماعية كوسيلة لحل الروابط المنغصة بالموضوعات . يقول : « تفترض حجتى أن اللبيدو الجماعى ينمو ويطرد على أساس التوحد . وثمة نوع واحد على الأقل من التوحد ، هو مجرد تحويل بسيط لكميات لبيدية فى أصلها . هذه الكميات تستحيل إلى التوحد ، إذا وجد سبب قوى فى عدم ظهورها بصورتها الأصلية . ويتوافر مثل هذا السبب إذا لم يكن ثمة أمل فى استجابة موضوع الحب ، أو إذا كانت كميات اللبيدو المستخدمة خاضعة لضغط النواهى الصارمة ، ومن ثمة معرضة للكبت . لذلك يبدو أن هذه الكميات اللبيدية تسعى إلى الإشباع فى مستوى التوحد الإدماجى الفمى ، بدلا من أن تنفجر مخترقة خطوط الكبت»[٣].

ويرى « شيلدر » أن العلاقات الجماعية تتميز بكل من التيارات الجنسية المثلية والغيرية . وقد تكون هذه التيارات شعورية أو لاشعورية ، وقد يتغير مجراها عن طريق عمليتى التوحد والمحاكاة . وهو يرتأى أن الاتجاهات الجنسية واتجاهات التفوق والنقص تلتقى متآنية فى الزعامة[٤].

ولا يصبح المجون ممكناً فى رأى « فرويد » ، إلا « حين يحل العامل الحسى الخالص محل العامل الوجدانى فى علاقة الحب » . إذ ذاك يرى المرء فى شريكة الجنس مجرد آلة لإشباع الجسد ؛ وهذا الإشباع نكوص إلى « مرحلة أولية

---

(١) Freud, S., *op. cit.*, p. 123.

(٢) Fenichel, O., *op. cit.*, p. 87.

(٣) Redl, F., "Group emotion and leadership", *op. cit.*, p. 588.

(٤) Schilder, P., "Introductory remarks on groups", *op. cit.*, p. 91.

من مراحل تطور العلاقات الجنسية ، لا يقوم فيها الحب بأى دور كان ، وفيها تعتبر الموضوعات الجنسية متكافئة القيمة »[١].

ويلخص « فاوجيل » العلاقة بين الاهتمامات الجنسية المباشرة والاهتمامات الاجتماعية فيقول : « تشترك كل من العواطف الاجتماعية والجنسية فى بعض العوامل الأساسية ، لا سيما فى عدم ازدهار العلاقات الاجتماعية حيث يكون كبت الوظائف الجنسية عميق الغور ، بل حيث يتحول الاهتمام من المجال الجنسى إلى المجال الاجتماعى على أثر اكتمال نمو الوظائف الجنسية »[٢] .أضف إلى هذا أن الجانب الأكبر من الصراع الظاهرى بين الاهتمامات الجنسية والاجتماعية لا يرجع إلى الجنس فى ذاته بقدر رجوعه إلى ما يصحبه عادة من غيره تصدع من بنيان المجتمع .

صور العلاقات الاجتماعية

أشرنا فيما سبق إلى أن صورتى الارتباط الانفعالى الرئيسيتين — العلاقات بالموضوعات والتوحد — توجدان أيضاً فى السلوك الجماعى . ويرى « فرويد » أن « هذه الروابط من نوعين . الأول هو أمثال العلاقة بموضوع حبيب ، رغم خلوها من المقصد الجنسى . . . أما الرابطة العاطفية الأخرى فهى التوحد »[٣].

ويجدر بالملاحظة أن « ميرفى » و « نيوكوم » يرتئيان أن التعاون يأتى من هذين الطريقين . « فمن الجلى أن موقف التعاون الذى يقفه شخص من آخر ينتج — بتعبير « فرويد » — أما عن الأنا أو عن اللبيدو . وبتعبير دارج نقول إن المرء يصبح متعاوناً إما لأن له القدرة على التوحد (بالمعنى الفرويدى) بشخص آخر ، وإما لأنه يحب هذا الشخص الآخر (اللبيدو) . والاتجاهان قد يمتزجان

(١) Freud, S., *op. cit.*, p. 121.

(٢) Flugel, J.C., *op. cit.*, p. 98.

(٣) Freud., S., *Collected Papers*, vol. V, p. 284.

بالطبع ، ولكنهما قد ينفصلان أيضاً »[١] والعلاقات بالموضوعات قد تكون أصلا من نمط نرجسى أو إبدالى أو واقعى ، حسب نضج الفرد ومقدار القوى النكوصية التى تساعد الجماعة على ظهورها .

والروابط بالموضوعات تكون عادة بين الأفراد (بين فرد وآخر أو بين الفرد والقائد) بينما قد يحدث التوحد بين الأفراد ، أو بين الأفراد والجماعة برمتها بل بين الأفراد وما يرمز للجماعة . ومن الممكن أن توجد كل أنماط التوحد فى الجماعة ، ولكن الأنماط التالية أكثرها انتشاراً : (ا) التوحد الأولى بشخص أو جماعة يعجب بها الفرد ؛ (ب) التوحد بمنافس أو بمنافسين يود الفرد لو حل محلهم ؛ (حـ) التوحد بفرد أو بجماعة على أساس اختيار موضوعى ، أو صفة أو اهتمام يشترك فيه أعضاء الجماعة ، (د) التوحد بفرد أو بجماعة لها نفس الحاجات ؛ (هـ) التوحد بفرد أو بجماعة من المعتدين ؛ (و) التوحد فى الكل مشاركة فرد أو جماعة مشاركة وجدانية ؛ (ز) التوحد بوصفه نكوصاً وحلا لرباط بموضوع منغص (التوحد الثانوى) .

وأيسر أنواع التوحد تحدث بالموضوعات المألوفة التى تشبهنا على نحو من الأنحاء . فالأطفال مثلا يتوحدون بالحيوانات التى تقرب منهم حجماً . كذلك يكون التوحد أيسر مثالا بين أفراد الجنس الواحد .

وفضلا عن التوحد ، وهو فى أصله عملية لاشعورية ، يدرس « أوبرندورف » عمليتين شعوريتين على صلة به ، هما المحاكاة والإبدال . وجد « أوبرندورف » أن التوحد فى السنوات التى تتكون فيها الشخصية ، يكون عادة مصحوباً بمحاكاة الموضوع من حيث سلوكه واتجاهاته . وفى الحالات التى لا يحدث فيها التوحد أو يمتنع حدوثه ، يستمر الفرد فى محاولته « إبدال نفسه » بالموضوع . والإبدال فى رأيه ، يتضمن المحاكاة إذا لم يكن ثمة توحد . وهو ينظر إلى العمليات الثلاث المذكورة آنفاً بمثابتها محاولات للتشبه بموضوع ما ، مع وجود فارق هو أن

---

(١) Murphy, G., Murphy, L.B., and Newcomb. T.M., *Experimental social psychology*, p. 752

الإبدال والمحاكاة عمليات شعورية . والتوحد الحق يوجد فى كل جماعات الأطفال ، مهما اختلف حجمها . ثم إنه لا يمكن المبالغة فى أهمية تأثير التوحد فى الأنا أو فى الأنا الأعلى ، لا سيما حين لا تكون الشقة واسعة بين المعايير الأخلاقية المميزة للموضوعات ومستوى نمو الطفل . إذ ذاك يصبح التوحد عملية سهلة يسيرة(١).

وكما ذكرنا سلفاً ، يصحب التوحد عادة الروابط بالموضوعات داخل الجماعات التلقائية الثابتة ، بحيث يغدو من العسير ، إن لم يكن من المحال ، التمييز بينهما .

وغنى عن القول أن العلاقات الجماعية تتميز بالتنافر والاستياء والكراهية والخوف ، بجانب تميزها بالروابط الإيجابية . وسوف نفرد فصلا مستقلا لمناقشة هذه العناصر فى الجماعة .

عناصر النكوص والتقدم فى الجماعات

درسنا فيما سبق النحو الذى تكتسب به الجماعة « طابعاً نكوصياً » . أما درجة النكوص فى أفراد الجماعة فتتوقف ، من ناحية ، على مدى اقتراب الجماعة من التقلب الانفعالى المميز للجمهرة ، وتتوقف من جهة أخرى ، على مدى اقترابها من الثبات المميز « للجماعة المنظمة » . وقد أظهر بعض أتباع « فرويد » وجود عناصر أخرى تؤثر فى درجة هذا النكوص ، مثل شخصية الأعضاء المعينة ، « والجو » الجماعى الناتج عن تفاعل القائد والجماعة ، واتزان الجماعة ، والعوامل الفريدة التى يستحيل التنبؤ بها لا رتباطها بمنوع المواقف .

والتسليم بوجود القوى النكوصية فى الجماعة ، مبنى على افتراض أن أفراد الجماعة يجتحون إلى تكرار أنماط السلوك العائلية المبكرة فيما يجد من مواقف .

(١) Oberndorf, C.P., "Psychotherapy in a resident children's group", in *searchlights on delinquency*, p. 166.

تقول « باكسباوم » : « تبعث الجماعة أنماطاً قديمة من السلوك ، يستجيب إليها الفرد وفق تثبيتاته الشخصية ، وشأن الجماعة فى هذا شأن سائر مواقف الحياة »[١]. وثمة عامل آخر تسميه « شتيرنباخ » « بالتقلب الوجدانى والانفعالى » للجماعات[٢]. ويدخل فى هذه المقولة الاعتماد الشديد على الرموز والإثارات الانفعالية و « سحر المثل العليا الجمعية »[٣] بوجه عام . وبالإضافة إلى هذا أشار « فرويد » إلى سهولة تحلل ضوابط الفرد النفسية ، وتغير معايير الخير والشر لديه ، عن طريق تأثير الجماعة ، فيعظم النكوص بقدر ما تفرضه الجماعة على الفرد من فقد لإنيته وخضوع واعتماد مطلقين على قائد الجماعة .

وقد يقصر هذا النكوص على الاستجابات الوجدانية والاتجاهات ، أو قد يكون مصحوباً بأنماط من السلوك المميز لمراحل النمو البدائية . وتبين « شتيرنباخ » أن إحساس الفرد فى الجماعة بأنه بمنأى عن الخطر والقلق ، يساعد على ظهور هذه الاستجابات . وهكذا يتمكن الفرد من « التعبير عن هذه الحوافز الطفلية تعبيراً أكثر انطلاقاً »[٤]. هذه الحوافز قد تكون دوافع حب أو عدوان ، شعورية أو لاشعورية ، وتندرج تحت الأخيرة الحوافز العدوانية اللاشعورية التى استبطنها الفرد فصارت جزءاً من الأنا الأعلى .

ومن الملاحظات الشيقة أن المحللين النفسيين لا يعدون النكوص مرضياً بالضرورة . يؤكد « فرويد » أن الجماعة المتسامحة تفضى إلى انخفاض معايير السلوك انخفاضاً مؤقتاً ، وأن هذا الانخفاض قيمته من حيث الصحة العقلية .

---

(١) Buxbaum, E., "Transference and group formation in children and adolescents", *The psychoanalytic study of the child*, I, 1945, p. 365.

(٢) Sternbach, O., "The dynamics of psychotherapy in the group", *The journal of child psychiatry*, I, 1947, p. 98.

(٣) See E.H., Erikson, "Hitler's imagery and German Youth", *Personality in nature, society and culture*, p. 509.

(٤) Sternbach, O., "The dynamics of psychotherapy in the group", *op. cit.*, p. 98.

يقول : « ثم إن المرء لا يقوى على الاحتفاظ طويلا بالتفرقة بين المثل الأعلى للأنا (الأنا الأعلى) والأنا . وأن عليه أن يلغى هذه التفرقة إلى أجل ما . . . ويشتمل المثل الأعلى للأنا جماع القيود التى يجب على الأنا التسليم بها ، ولهذا السبب كان فى إلغاء المثل الأعلى عيد عظيم يشعر فيه الأنا بالرضا عن نفسه ثانية »[١].

ويشير « كريس » أيضاً إلى الاحتمالات الإنشائية الكامنة فى السلوك النكوصى . يقول : « من التبسيط المخل معارضة النكوص بسيطرة الأنا أو السلوك المنطقى بالسلوك غير المنطقى ؛ إذ لا وجود لمثل هذه الحواجز ، فليس النكوص دائماً مناقضاً لسيطرة الأنا ، وذلك لأنه قد يكون فى خدمة الأنا ، إذا جاز التعبير »[٢]. ويمضى « الكسندر » إلى حد القول بأن النكوص تعبير عن اتجاه الحياة على العموم إلى اقتصاد الطاقة . ويخص بالإشارة الرياضيات والنوم والأحلام ، لما لها من قيمة فسيولوجية . ولكن نفس المؤلف يعتبر النكوص مرضياً إذا لم يساعد المرء فى مواجهة مواقف الحياة الواقعية[٣]. وأود أن أضيف عرضاً ، أن كافة طرق العلاج التى تستلهم التحليل النفسى ، تؤكد أهمية النكوص كجزء متمم لعملية الشفاء .

كان « فرويد » متفطناً إلى أن للجماعات إمكانيات فى نمو الفرد الانفعالى بجانب ما بها من قوى نكوصية . وقد سبقت لنا الإشارة إلى ما لاحظه من أن من المستطاع ضبط المركزية الذاتية وما عداها من أنماط السلوك المدجوج عن طريق تأثير الجماعة اللبيدى . ولكنه يلاحظ أن العصابيين يلقون الأمرّين فى إقامة الروابط الاجتماعية ما داموا خاضعين لضغط لاشعورى عنيف ، ناتج عن الفشل فى كبت « الميول الجنسية المباشرة » أو التصرف فى الميول « المعطلة الهدف» بنجاح . وشدة القلق العصابى يجعل من الروابط الاجتماعية أمراً عسيراً

---

(١) Freud, S., *Group psychology and the analysis of the Ego*, p. 105.

(٢) Kris, E., "Some problems of war propaganda", *op. cit.*, 1943, p. 397.

(٣) Alexander, F., *Our age of unreason*, p. 186.

بل محالا . ولكن « فرويد » يتقدم بفرض يقره الآن كل مشتغل بالعلاج النفسى الجماعى ، هو : « إذا قوى الباعث إلى تكوين الجماعات ، قلت وطأة الأعصبة إلى حين واختفت على كل حال اختفاء مؤقتاً . ومن ثمة قامت محاولات ، لها مسوغاتها ، تهدف إلى الإفادة من هذا التعارض بين الأعصبة وتكوين الجماعات فى العلاج النفسى » [1]. ويلمح « فرويد » فى موضع آخر إلى أن الجماعة إذ تحمى الفرد فيها ، تعارض القلق وتخفف من حدته .

ويعقد « الكسندر » مقارنة بين عملية التطبع الاجتماعى عند الطفل واستجابة الفرد فى الجماعة لتأثيراتها . فالطفل يكبح جماح مسلكه المعوج نظير حب والديه إياه ، والفرد فى الجماعة يسلك نفس المسلك طالما هو يشعر بأن الجماعة ترعى شئونه . ويزيد ارتباطه بالجماعة كلما نقصت القيود المفروضة عليه وزادت مكافآته [2].

وتحلل « شتيرنباخ » بعض قوى النمو فى الجماعة ، على ضوء المفاهيم الفرويدية . فالتوحد عامل يفضى إلى التغلب على الخصومات وازدواج الميول . والارتباط المشترك بالقائد يجعل كل فرد يشعر بأنه منتسب لنفس الجماعة كما يوفر له قدراً من الأمن أعظم مما توفره العلاقات غير المتبادلة . وترتأى « شتيرنباخ » أن السند الانفعالى الذى يحس به الفرد على هذا النحو « يسمح باقتصاد فى الليبيدو ، لأنه يطلق كميات كبيرة من الطاقة المستخدمة فى الدفاع وصون الذات ، ويهيئها لاستعمال أكثر جدوى » [3].وتشير « إيزاكس » إلى أن الجماعات التى يؤلفها الأطفال فى دور الحضانة توفر لهم السند الانفعالى الضرورى ، وأن قيمتها هى فى هذا التوفير . تقول : « هذا الإحساس بالسند الداخلى يأتى من مرافقة سائر الأطفال ، وهو ليس مجرد تفريج عن التوتر النفسى ، بل هو أيضاً شرط ضرورى لنمو إحساس الطفل بالواقع فى علاقاته

(١) Freud, S., *op. cit.*, p. 124.

(٢) Alexander, F., "Psychoanalysis and social disorganization", *The american jonrnal of sociology*, XLII, 1937, p. 807.

(٣) Sternbach, O., "The dynamics of psychotherapy in the group", *op. cit*, p. 98.

الفعلية بالراشدين . والطفل يستقل أول ما يستقل ، عن والديه ومعلميه عن طريق تحالفه مع أترابه من نفس السن ، ويبدأ في النظر إليهم على حقيقتهم ، لا باعتبارهم آلهة ووردة وغيلانا ، كما صورتهم مخيلته الطفلية»[١] . وتنبه « بكسباوم » إلى الدور الهام الذى تلعبه الجماعة إذ تساعد أطفال الخامسة والسابعة بل الأطفال فى سن المراهقة على حل مشاكلهم النفسية . فهم يجنحون إلى الاستعانة بقوة الجماعة لتخطى العقبات التى تقف فى سبيل حل الصراع الداخلى . والأطفال يفتقرون إلى هذه القوة الإضافية لا سيما حين يسعون — فى فترات معينة من نموهم النفسى — إلى الاستقلال عن الأسرة[٢].

وتخفيف حدة القلق لا يكون بشعور الفرد بأن الجماعة تحتضنه فحسب ، بل يكون كذلك باستبدال معايير الأنا الأعلى لدى الفرد بالمعايير الجماعية . وبهذا الصدد . يولى « الكسندر » اهتماماً خاصاً إلى استبطان الفرد لقانون الجماعة وتكوّن « الضمير الاجتماعى » . يقول : « إذا كان الضمير أو الأنا الأعلى عند الطفل نتاجاً للتوحد بالوالدين ، فإن الضمير الاجتماعى معناه التوحد بالقائد ، وعن طريق القائد ، بسائر أعضاء الجماعة . . . فما نسميه بالضمير الاجتماعى ما هو إلا بسط لرقعة سلطان الأنا الأعلى ، بحيث تشمل جماعة من الافراد أكبر حجماً . أما مبادئ تطوره فهى عين المبادئ التى يسير عليها تطور أول اتجاهات الطفل الاجتماعية فى أسرته »[٣].

ناقش مؤلف هذا الكتاب الإمكانيات العلاجية لجماعات الأطفال ، ثم أشار إلى بعض العمليات السيكولوجية الفعالة فى الجماعات التلقائية . وجد أن الأطفال يزيد شعورهم بالأمن والطمأنينة ، كلما تبين لهم أن الجماعة تستهدف أولا إشباع حاجاتهم ورغباتهم ، مما يزيد من تعلق الأطفال بالراشدين وبأترابهم جميعاً . فيصبح استحسان الجماعة والمشرف عليها قوة عظمى تدفع بالأطفال

---

(١) Isaacs, S., *op., cit.*, p. 395.

(٢) Buxbaum, E., "Transference and group formation in children and adolescents", *op. cit.*, p. 364.

(٣) Alexander, F., *op. cit.*, p. 810.

إلى التغير والنماء . وقد كانت الحرية والتسامح السائدان فى جو الجماعة مما يسر التعبير المبتكر وأطلق عنان المشاعر والدوافع التى لا غنى عنها فى بناء الشخصية [١]. كذلك يؤكد « ميرفى » و « ميرفى » و « نيوكوم » ما تنطوى عليه الجماعات من إمكانيات النمو النفسى عن طريق الروابط الانفعالية فى مختلف المواقف الاجتماعية . « فالفرد يحقق فى الجماعة شخصيته . . . ونحن نعتقد أن المواقف الجماعية لا تعين مسلكاً مؤقتاً فحسب ، وإنما تمس أيضاً مصادر شخصية الطفل العميقة . والفرد يدرك ذاته لأن الآخرين قد أدركوه . فإذا استطاع الطفل أن يختار تلقائياً من يحبونه ومن يحبهم ، وأن يوثق ارتباطه بهم ، تهيأت له فرصة تنمية شخصية تنمية قوية سوية معاً » [٢].

أشرنا فيما أنف إلى أن « تعطيل أهداف » الحوافز (وهى عملية مميزة للعلاقات الاجتماعية) قريبة الصلة بالتسامى . والعلاقات الاجتماعية تشجع التسامى . فهى توفر عنصراً إنشائياً جديداً . ومما يحبذ التسامى فى الجماعات التلقائية الاشتراك فى النشاط والاهتمامات والرياضيات والألعاب والأشغال اليدوية وتبادل الرأى عن طريق النقاش .

الرمزية

لم يفت « فرويد » وهو ينظر فى أنواع التوحد المسئولة عن تقوية الشعور الجماعى ، أن يلمح إلى قيمة « الوجبة التى يتناولها الأفراد معاً » [٣]. فبعض الولائم تكتسب معانى رمزية متباينة ، إلى جانب كونها مجرد مشاركة فى لذة الطعام . ويشير « منجر » إلى أن كل مشاركة فى الأكل هى إشباع وجدانى معين . يقول : « إن تقديم الطعام هو أول تعبير عن الحب يفهمه الطفل ، وهو

(١) Scheidlinger, S., "Understanding the adolescent in a group setting", *The journal of educational sociology*, XXIII, 1949, pp. 60-61.

(٢) Murphy, G., Murphy, L.B., and Newcomb, T.M., *op. cit.*, pp. 314-315.

(٣) Freud, S., *op., cit.*, p. 70.

مدخله إلى الحب . لذلك تظل قيمة الطعام الرمزية عالية طيلة الحياة . وفى اللاشعور الطعام = الحب »[١]. وليس عرضاً أن كثيراً من الصفقات التجارية تعقد بين جدران الحانات والمطاعم . وقد أكد لى خبير بمشاكل العمل والإدارة أن مؤتمرات « المائدة المستديرة » تزيد توفيقاً فى حل المشاحنات الصناعية إذا تحولت « المائدة المستديرة » إلى مأدبة عشاء .

وبوجه العموم ، تمثل الرموز الجماعية أو النشاط الجماعى (الطقوس) نواح مختلفة من حياة الجماعة أو الجماعة كلها . فهى تجنح إلى أن تزيد من شعور الفرد بوجود الجماعة وقوتها . وكل هذا يتمثل فى الطرق التى تتبعها مختلف حركات الشباب ، مثل حركة الكشف ، التى ترمى إلى غرس أديولوجيات معينة فى نفوس النشء . والرموز المقررة — مثل الرتبة والشعار والشارة والطقوس — تنطوى على جاذبية رمزية ووجدانية . وهى وثيقة الصلة بمثل الجماعة العليا التى تتجسد فى قسم الكشاف وقوانين الكشف . وحين يشترك صغار الكشافة بزيهم الرسمى وأعلامهم ، فى استعراض ما ، وحين يشهدون فى الطقوس المقدسة داخل الكنائس أو حول نيران المعسكر ، يشعرون بأنهم قد أصبحوا رجالا ذوى شأن ، وأنهم جزء من جماعة متآخية كبرى مشتركة الهدف .

وقد يصير النشاط الرمزى وسيلة مستترة التعبير عن دوافع الحب أو الكراهية الشعورية أو اللاشعورية . فالأفراد إذ يحيون بعضهم بعضاً برفع قبضة اليد المنطبقة إلى أعلى ، ويشيعون الجنازات الوهمية أو يحرقون الأصنام ، ينفسون عن عدوانهم فى صورة رمزية . وقد بدأ الكثير من الطقوس الجماعية بكونه وسيلة سحرية لدرء خطر حقيقى أو متخيل . ويعقد « فرويد » بعض المقارنات الشيقة بين الأفعال القهرية والطقوس الدينية ؛ وجد مثلا أن « الطقوس تبدأ كفعل يقصد به الدفاع أو الأمن — أى كإجراء وقائى » [٢] ويناقش « كلوكهون » الأنحاء التى تتحول عليها الأساطير والطقوس إلى وسائل مقررة لدفع

---

(١) Menninger, K., *Love against hate* p. 273.

(٢) Kluckhohn, C., "Myths and rituals : A general theory", *Harvard theoretical review*, XXXV, pp. 45-79.

القلق . وبين « أريكسون » فى دراسته للنظام الهتلرى ، كيف تحل العمليات السحرية والرمزية محل التفكير والمسلك العقلى فى حياة الجماعة . يقول : « ما دام الناس — البدائيون منهم أو المتحضرون — يشعرون بأن منطقهم ومناهجهم المألوفة لا تكفى لمواجهة مصير مفارق لمصيرهم كأفراد ، فهم على أهبة الاستعداد لإبطال القيم الفردية التى أخذوا بها ، من أجل القيم الجمعية السحرية . وطالما بقيت فتنة هذه الأفكار السحرية ، فلن يشعر الفرد بأى تناقض ، مهما كان واضحاً جلياً ، بين المثل العليا الشخصية والجماعية ، بين مسلكه فى حياته العادية ومسلك القادة — الذين وكل إليهم أمره — فى تصريف أمور الدولة »[1] . والرمزية الجماعية تعمل على ضبط الحوافز المهجوجة ، لا سيا الحوافز العدوانية ، المهددة لوجود الجماعة . والرمزية تتدرج من الأغانى إلى الشارات والطقوس ، وهى وسيلة قوية يمكن بها دعم التضامن والمثل العليا الجماعية ، لذلك فهى تزيد شعور الفرد بالأمن داخل نطاق الجماعية .

مفهوم « التحويل » وتطبيقه على الجماعات

يدل مفهوم التحويل على نقل صورة من صور الوالدين وربطها بشخص موجود فى محيط الفرد المباشر . وينظر المحللون إلى التحويل بوصفه ظاهرة مميزة للعلاج النفسى التحليلى . يقول « فرويد » فى آخر مجمل لنظرياته : « يأبى المريض رؤية المحلل على حقيقته الواقعية باعتباره نصيراً ومرشداً يتناول أجراً عما يبذل من جهد ؛ وإنما يرى المريض فى المحلل عوداً — أو تقمصاً — لشخص مهم بُعث من عهد الطفولة أو من الماضى ، فالمريض يحوّل إليه المشاعر والاستجابات التى لا تنطبق إلا على هذا الأصل »[2] .

غير أن ظواهر التحويل تتجلى أيضاً خارج غرفة التحليل النفسى ، وهى غالباً ما تميز الروابط بين الأفراد فى الجماعة . فالتحويل ، كما يقول « أيسلر » ،

(١) Erikson, E.H. "Hitler's imagery and German Youth", *op. cit.*, p. 507.

(٢) Freud, S., *An outline of psychoanalysis*, pp. 65-66.

« يظهر فى العلاج التنويمى والظواهر الجمعية وحياة كل يوم »[1]. فإذا ما وضعناه موضع المشاهدة خارج الموقف التحليلى ، وجدنا أن « عوامل الأنا » فى التحويل تبلغ أوج قوتها وأن الفرد « يأخذ فى التعبير ، بمسلكه المعتاد ، عن الحوافز الغرزية والاستجابات الدفاعية المطمورة فى العواطف المحولة »[2]. وهو ما تسميه « أنّا فرويد » « بالسلوك التحويلى » . وقد وضح « فنيكل » مجال تطبيق هذا المفهوم . فنى ظاهرة التحويل « يسىء الفرد فهم الحاضر برده إلى الماضى ؛ وإذ ذاك لا يستعيد الفرد ذكرى الماضى وإنما يسعى ، عوضاً عن ذلك ، إلى أن يعيش الماضى مرة أخرى وأن يعيشه أفضل مما فعل فى طفولته ، وهو فى كل هذا لا يدرك طبيعة ما يفعل »[3].

وجد « فينكل » أن الحياة اليومية تزخر بالمواقف التحويلية . فالناس على وجه العموم يجنحون إلى تفسير الخبرات الحالية بإرجاعها إلى الخبرات الماضية . وكلما ألحت الحاجة إلى التعبير عن الدوافع المكبوتة ، زاد الميل إلى التحويل . وهو ما قصد إليه « فرانك » فى قوله : « إذا أكره الراشد الطفل أو أقنعه بالحسنى على فعل شىء ما ، فإن الطفل يستجيب بنسق انفعالى أوشعورى هو استجابة عضوية بقدر ما هو استجابة حركية . هذه الاستجابات الوجدانية تؤدى إلى نسق عام من الاستجابة إلى السلطة أينما وجدت . فليست السلطة كائناً أو قوة وإنما هى النحو الذى تثير عليه المواقف والأشخاص استجابات وجدانية تعلمها الفرد بالنسبة لمواقف وأشخاص معينين ، هم النموذج الذى شكل سلوكه اللاحق »[4] ويرتأى « سلفربرج » أن اعتماد الفرد على العلاقات التحويلية يتوقف على

---

(١) Eissler, K.R., "The Chicago Institute of psychoanalysis and the Sixth period of development of psychoanalytic technique", *The journal of general psychology*, XLII, 1950, p. 112.

(٢) Freud, A., *The Ego and the mechanisms of defense*, p. 24.

(٣) Fenichel, O., *op. cit.*, pp. 29-30.

(٤) Frank, L.K., "Cultural coercion and individual distortion", *Psychiatry*, II, 1939, p. 17.

درجة نضجه الانفعالى ، وإنه ليس مَرَضياً فى ذاته[١].

يقول « روهايم » : « نقصد بالشخص السوّى من يكون قادراً على تكرار مواقف الطفولة السعيدة ، دون إخلال بتوافقه الاجتماعى ، ومن لا يكرر مواقف الحرمان الطفلية إلا تحت ضغط البيئة ، أى إذا كان ثمة سبب يدعو إليها »[٢]. وبالرجوع إلى ما ذكرناه فى الفصل الثانى ، نقول إن العلاقات « البديلة » تتميز بكثرة الاستجابات التحويلية .

وما دامت الاستجابات التحويلية تتضمن استعادة اتجاهات الطفولة الأولى بالنسبة إلى شخص موجود فى حياة الفرد الحالية ، فمن الواضح أنها متصلة بالاعتماد الانفعالى على الغير . يبين « فرويد » كيف يدفع التحويل لاشعورياً بالمريض إلى العمل على إرضاء المحلل ، انتظاراً منه لحبه واستحسانه ، وهو عين ما كان ينتظره من والديه وهو طفل . « فهو يسلك مسلك طفل لا حول ولا فكر له ، يصدق دون استبصار من يحب ولا يصدق إلا من يحب »[٣]. ويحذر « فرويد » من « سوء استخدام هذا التأثير الجديد » ، وإلا وقع المحلل النفسى ، فى خطأ الوالدين اللذين قضيا على استقلال الطفل ، مستبدلا ضرباً من الاعتماد بضرب آخر »[٤]. ودرست « بكسباوم » استجابات الأطفال والأحداث التحويلية داخل الجماعات ، فوجدت أن الفرد فى الجماعات يكرر اعتماده على والديه عن طريق العواطف المحولة إلى القائد[٥]. وليس معنى هذا أن الاعتماد يتضمن حتما استجابة تحويلية . وذلك لأن للاعتماد صوراً عديدة ، بحيث يجب على المرء

---

(١) Silverberg, W.V., "The concept of transference," *The psychoanalytic quarterly*, XVII, 1948, p. 319.

(٢) Roheim, G., "Sublimation", in *The Yearbook of psychoanalysis*, p. 119.

(٣) əud, S., *An outlin of psychoanalysis*, p. 69.

(٤) F*Ibid*, p. 67.

(٥) Buxbaum, E., "Transference and group formation in children and adolescents", *op. cit.*, p. 361.

أن يحلل جميع أجزائه المعقدة قبل الجزم بأنه قد أدرك معناه بوضوح .

وفى التحويل قد يعيش الفرد دوافع الحب أو العدوان مرة أخرى . وقد تظهر أيضاً طرق تكيف الأنا فى الماضى . وقد بينت « أنّا فرويد » أن ظاهرة التحويل تشتمل على عنصرين : « عنصر لبيدى أو عدوانى مصدره الهو ، وحيلة من حيل الدفاع التى ترتد إلى الأنا . . . »(١). وينبه « فرويد » إلى أن الانفعالات المحولة تكون غالباً منطبعة بطابع الازدواج .

يتضح من المناقشة السالفة أن ميل الفرد إلى أن يعيش اتجاهاته العائلية المبكرة مرة أخرى ، وأن يعيشها فى الجماعات اللاحقة ، هو ظاهرة تحويلية إلى حد كبير . أضف إلى هذا أن بعض الاستجابات الانفعالية التى تتبدى أثناء التفاعلات الجماعية ، أمثال دوافع الحب والعدوان وحيل الأنا الدفاعية ، قد تكون راجعة إلى التحويل أكثر مما ترجع إلى واقع الجماعة وأعضائها ووضعها . وينبه « سلافسون » إلى أن العواطف التى يحولها الفرد إلى قائد الجماعة تظهر بصورة « مخففة » داخل نطاق الجماعة ، وذلك لوجود أشخاص آخرين تحول إليهم العواطف فى الآن نفسه(٢).

تزخر سجلات الجماعات بأمثلة على الاستجابات التحويلية . هناك مثلا حالة طالب فى السنة الرابعة اسمه « فرد » ؛ كان يبغض زميلا له يدعى «جون » أشد البغض . وكان « فرد » متعاوناً حسن التكيف فى المدرسة ، ولكنه كان مفرطاً فى تحرشه واعتدائه على « جون » . ولم يكن ثمة سبب ظاهر لمثل هذا المسلك الشاذ، فلم يعد بد من دراسة البيئة العائلية التى يعيش فيها « فرد ». وقد دلت هذه الدراسة على وجود أخ يكبر « فرد » بقليل ، كان يسىء معاملته منذ أمد طويل . وكان « فرد » يحسد أخاه على مواهبه النادرة ، وكان الشجار كثيراً بين الأخوين . ولم يكن اسم هذا الأخ سوى « جون » . ومن ثمة فقد أوعز إلى « فرد »أنه يستجيب إلى زميله وكأن الزميل هو الأخ . وقد اعترف الطفل

---

(١) Freud, A., *The Ego and the mechanisms of defence*, p. 21.

(٢) Slavson, S.R., *The practice of group therapy*, p. 37.

بعد هنيهة بأن زميله يذكره بأخيه فى أكثر من ناحية. وأردف يقول : « إنى أتحمله فى البيت وأنتقم منه فى المدرسة » . وبدأ يشعر بعواطفه المحوّلة من أخيه إلى رفيقه فى المدرسة . وفى نفس الوقت ؛ تمكن من تعديل مسلكه بالتدريج ، وسوّى علاقاته « بجون » بوصفه شخصاً مستقلا .

وتكون الاستجابات التحويلية أوضح ما تكون فى علاقة الفرد بذوى السلطان . فما من معلم أو قائد أو مشرف لم يكن هدفاً لاتجاهات أو أفعال غير منطقية ولا مرتبطة بالموقف الحاضر ، وتنقلب هذه الاتجاهات عادة من نقيض إلى نقيض . من العدوان إلى الحب مثلا . هذه الانقلابات تقابل المشاعر المزدوجة الأصيلة التى يشعر بها الفرد نحو الوالدين ، والتى تفصح عن نفسها فى موقف جديد .

ولنذكر ههنا أن التحويل عملية لاشعورية فى المحل الأول ، مثلها فى هذا مثل التوحد وغيره من العمليات الوجدانية التى تحدث داخل الجماعات . والأفراد لا يكونون على وعى بالدوافع التى ينطوى عليها مسلكهم واتجاهاتهم فيها . وهو ما يفسر التباين القائم بين مسلك الفرد الفعلى فى الجماعة وفكرة الفرد عن مسلكه فيها . وظواهر التحويل لا تقتصر ألبتة على أعضاء الجماعة . فالقائد كذلك يستجيب باتجاهات محوّلة إلى أعضاء الجماعة . وهو ما يدعى عادة « بالتحويل العكسى » . وكلما خضع الفرد فى مسلكه أولا للحوافز الشعورية ، وكانت استجابته موجهة إلى الحاضر كما هو على حقيقته (دون أن يتدخل إلا عدد محدود من التحويلات) ، زادت قدرته على التأثير فى الجماعة تأثيراً إنشائياً . وهكذا ، يعين النضج الشخصى قدرة الفرد على المساهمة فى حياة الجماعة مساهمة قيمته مثمرة .

الفصل الرابع

دور القائد

القائد والوالدان

تنصب ملاحظات « فرويد » عن العمليات الجماعية على الجماعات المقودة أصلا (رغم اعترافه بإمكان وجود جماعات غير مقودة) . ويحتل القائد مكان الصدارة فى المبدأ الذى يفسر به « فرويد » العمليات الانفعالية فى الجماعات السيكلوجية الضئيلة التنظيم . فارتباط أفراد الجماعة بعضهم ببعض يكون باشتراكهم فى الارتباط بالقائد . يقول « فرويد » : « من المحال إدراك طبيعة الجماعة إذا أُهمل القائد»[1]. وقد لاحظنا أيضاً أن الجماعة تمثل للفرد — لاشعورياً — وضعاً عائلياً معيناً، يحل القائد فيه محل الوالدين (عادة محل الوالد الممثل للسلطة) ، بينما يلعب أعضاء الجماعة دور الأخوة .

وجد « سلافسون » أن القائد يمثل الوالدين ، مهما بلغت أعمار الأفراد الخاضعين له . يقول : « لا مناص من عنصر الرمزية فى العلاقة بين القائد والمقود . فأكثر الناس وعياً ينسبون إلى القائد من الصفات ما ليس موجوداً فيه وينتظرون منه أن يعيش فى مستوى أخيلتهم ، وهى مهمة يصعب إنجازها فى العلاقات اليومية »[2]. كذلك تبين لى ، من عملى مع الأطفال ، أنه كلما توطدت أواصر العلاقات الودية بين الراشد وجماعة الأطفال ، وتماسكت الجماعة بعض التماسك ، ظهر القائد فى مظهر الوالد المثالى .

يعترض « مونى — كيرل » على « فرويد » فى توكيده بأن قائد الجماعة ممثل للوالد فى المحل الأول . فهو يرى أن لصورة الأم ، مثل ما لصورة الأب ،

(١) Freud, S., *Group psychology and the analysis of the Ego*, p. 85.

(٢) Slavson, S.R., *Recreation and the total personality*, p. 141.

دوراً فى مخيلة الطفل اللاشعورية ، وبالتالى فى تكوين الجماعات ؛ وأن من الممكن تخيل الوالدين على السواء بوصفهما خيرين أو شريرين . ثم إنه يشير إلى أن صورة الأم كثيراً ما تكون رمزاً للأمم والجماعات الدينية (الكنيسة الأم) بل للمثل العليا السياسية ، ويقول المؤلف ، استناداً إلى نظريته الآنفة الذكر فى أخيلة الطفل اللاشعورية عن الأسرة ، إلى « الوالدين الخيرين ، لا سيما الأم باعتبارها شخصاً يجب الدفاع عنه ، يتبديان ثانية فى صورة القيم الجماعية »[١]. فى نفس الوقت الذى يمثلان فيه قادة الجماعة . والدفاع عن الأم دور يقوم به الأب على وجه التخصيص ، فهو الذى يدافع عن الجماعة (الأم) ضد الأعداء الخارجيين .

والملاحظ أن بعض المعالجين الجماعيين ، ومن بينهم « شيلدر »[٢]، يقولون بأن قائد الجماعة يمثل كلاً من الأب والأم . ولم يعترض « فرويد » على « فيرنزى » فى افتراضه أن المنوّم (وهو يلعب دوراً مماثلا لدور القائد المستبد من الناحية السيكولوجية) قد يمثل الأب أو الأم على حد سواء[٣] .

القيادة وحاجات الاعتماد على الغير

كان أكثر ما استرعى نظر « فرويد » فى سلوك الجمهرة ، اعتماد الفرد المطلق على القائد ، وخضوعه التام له . ويقارن « فرويد » الرابطة التى تربط الفرد فى الجمهرة بالقائد ، بالعلاقة بين الفرد والمنوِّم ، وهو يعلن أن « من الحق أن يوصف التنويم المغناطيسى بأنه جماعة مؤلفة من فردين »[٤] ، وهو يتفق مع « فيرنزى » فى قوله بأن المنوم إذ يأمر الفرد بالنوم ، إنما يقوم بدور الوالدين .

---

(١) Money-Kyrle, R., "Varieties of group formation", in *Psychoanalysis and the social sciences*, II, p. 327.

(٢) Schilder, P., "Introductory remarks on groups," *The jonrual of social psychology*, XII, 1940, p. 100.

(٣) Freud, S., *op. cit.*, p. 98.

(٤) *Ibid.*, p. 100.

كذلك يستبدل الفرد الأنا الأعلى عنده بالموضوع (المنوِّم)، وهكذا «يتم لنا عزل عنصر من عناصر الجماعة المعقدة، ألا وهو سلوك الفرد بالنسبة للقائد»(١).

ويرى «فنيكل» أن تحويل وظائف الأنا الأعلى إلى مختلف الأشخاص ذوى السلطان، حدث كثير الوقوع فى الحياة اليومية، ويقوى هذا الميل فى المواقف التى يفقد فيها الفرد سيطرته الفعالة على العالم الخارجى، نتيجة لاصطدامه بعقبات ذاتية أو موضوعية لم يقو على تخطيها. فنحن إذن حيال نكوص يرجع بالفرد إلى فترة بدائية من تكوين الأنا، كان فيها الطفل مفتقراً إلى حب البالغين وتقديرهم. لأنه يرى فيهم مخلوقات قادرة على كل شىء، يقول: «إن كل فرد ليتذكر بغموض كائنات قوية بدت له فى طفولته قادرة على كل شىء، يستطيع إذا مست إلى ذلك حاجة ما، أن يعتمد على مؤازرتها له والسهر على راحته ورد الأذى عنه، وفيما بعد، يتعلم الأنا كيف يستخدم الوسائل الإيجابية للسيطرة على العالم، وهو ما لا يمنع وجود بقية من الاتجاه الفمى السلبى، تخلفت منذ عهد الطفولة. والراشد يجد نفسه أحياناً فى مواقف يكون فيها كالطفل، لا حول له ولا قوة... فيحن إلى الأمن والراحة الشاملين اللذين كانا طوع يده إبان طفولته، والمبدأ القائل: إن أطعت أمنت، يصدق على الآلهة صدقه على السلطات الدنيوية»(٢). كذلك يؤكد «الكسندر» أن «موقف الأفراد الانفعالى من قائدهم له نفس خصائص موقف الطفل من والديه وهو مشتق منه فى نهاية الأمر. والاعتماد الطفلى على الغير هو أقوى مقومات هذا الموقف»(٣). ويفسر هذا الموقف، إلى حد كبير، جنوح الإنسان إلى الاستسلام إلى القيادة الجماعية المستبدة، بل السعى إليها.

يخضع الأفراد أحياناً لأنماط الاعتماد على من بيدهم السلطان ولكن هذا لا يمنع من وجود تفاوت كبير فى درجة هذا الاعتماد. ويعترف «فرويد» أن

(١) *Ibid.*, p. 78.
(٢) Fenichel, O., *The psychoanalytic theory of neurosis*, pp. 491-492.
(٣) Alexander, F., *Our age of unreason*, p. 250.

الأنا الأعلى فى أشد الأفراد خضوعاً لا يختفى تماماً فى شخص المنوّم المغناطيسى بل قد يقاوم ما يتعارض ومعاييره الشخصية من إيحاء. كذلك وجد « فرويد » تبايناً عظيماً فى درجة الركون إلى قائد الجماعة . يقول : « فى كثير من الأفراد ، لا تكون الشقة بعيدة بين الأنا والأنا الأعلى ؛ فالاثنان لا يزالان متطابقين ، وهو ظرف ييسر انتقاء القائد تيسيراً عظيماً »[١].

ومما يؤثر فى قدرة الناس داخل الجماعة على تقبل هذا الاعتماد المفرط ، ما يتمتع به القائد من هيبة ، « وما يتركه فى النفوس من عظم فى القوة وحرية فى الرغبة »[٢]. وثمة عامل آخر هو نوع التكوين الجماعى (الاستبدادى أو الديموقراطى) ، ونمط القيادة على وجه التخصيص . مثال ذلك ، يبلغ الاعتماد على القائد (وعلى سائر الأعضاء) أقصاه فى الجماعة ذات القيادة الاستبدادية . كذلك تؤثر الظروف المميزة للموقف الجماعى تأثيراً كبيراً ، كما أسلفنا الذكر . ففى أوقات المحن الشاملة والانقلابات الاجتماعية والاقتصادية يكون الناس مهيئين لقبول قائد مهيمن (الأب) يأخذ بيدهم و « يخلصهم » مما هم فيه من محنة . كذلك يمهد الحرمان والقلق الشاملان طريق حكم الطغيان . وينبه « بيشوفسكى » فى دراسته تاريخ الطغيان ، إلى أن « الطاعة العمياء والانصياع لسلطة فرضت نفسها بنفسها هما نتيجة ما يشعر به الناس من ضعف إنيتهم ونزولهم عما بلغوا إليه من قدرة على النقد واستقلال ذاتى »[٣]. بيد أن لعوامل الشخصية الفردية آثاراً مهمة فى كل هذه الظروف السالفة الذكر . وذلك لأننا نجد دائماً ، فى أكثر الظروف ملاءمة للخضوع للقائد أو للجماعة الحاكمة ، بعضاً من الناس ما يزالون يحتفظون بإنيتهم الشخصية وباستقلالهم احتفاظاً بعيد المدى . ومرجع هذا إلى نشاط الأنا الفردى ومبلغ استمرار حاجات الاعتماد منذ عهد الطفولة . ويرتأى « كريس » و « ليتيس » أن « فشل وظائف الأنا الفردى يهدد العلاقة الإيجابية بين الأنا والأنا الأعلى ، ويجنح إلى تشجيع التيارات

---

(١) Freud, S., *op. cit.*, p. 102.

(٢) *Ibid.*

(٣) Bychowski, G., *Dictators and disciples*, p. 242.

النكوصية . والفرد إذ يشعر بالعجز حيال عالم لا يفهمه ، ويرتاب فيمن يجب أن يكون له مرشداً وهادياً ، يتجه إلى أنماط السلوك الطفلية ، التى قد تؤدى إلى ظهور العمليات العصابية أو الجناحية »[١]. كذلك يشير « فنيكل » إلى أن الخنوع التام للقيادة ، أى تمثل الأنا الأعلى للموضوع تمثلا كاملا ، مرتبط عادة باستجابات الشخصية المريضة[٢].

عند ما ينظر « فرويد » فى أنماط الشخصية العامة على أساس اختلاف التوازن النفسى ، يميز « نمطاً لبيدياً » خليطاً هو أكثر الأنماط قدرة على الارتباط بالغير فى مستوى الاعتماد عليه . هذا النمط من الناس يجمع بين مميزات الأنماط « الشبقية » التى « تعتمد على من يقدر على منع الحب » ، وبين مميزات الأنماط « الوسواسية » التى يشتد فيها الصراع بين الأنا ومقتضيات الضمير (الأنا الأعلى) . وهكذا يرى « فرويد » أن « معظم الدوافع تنكمش فى النمط « الشبقى — الوسواسى) . تحت تأثير الأنا الأعلى ، بينما يبلغ الاعتماد على الموضوعات الحاضرة وبقايا الموضوعات الماضية — الوالدان والمربون والأشخاص المثاليون — أقصى ذروته »[٣].

كشفت محاولة أخيرة تستهدف الربط بين التعصب وديناميات الشخصية فى الأفراد المتعصبين[٤] ، عن الدور الهام الذى تلعبه الحاجات الأساسية التى لم تشبع إلى الاعتماد . فالمخاوف والقلق والحنين إلى العلاقات الخاضعة المستسلمة ، تكمن خلف ما يسميه المؤلفون « بالشخصية الاستبدادية » ، أى خلف الجمود الظاهرى والبرود الوجدانى والتوحد بالسلطان والميول الهدامة والجحود وسائر أنواع التبرير والإسقاط .

---

(١) Kris, E., Leites, N., "Trends in Twentieth Century propaganda", *Psychoanalysis and the social sciences*, I, 1947, p. 407.

(٢) Fenichel, O., *op. cit.*, p. 109.

(٣) Freud, S., *Collected Papers*, vol. V, pp. 248-249.

(٤) Adorno, T.W., Frenkel-Brunswik, E., Levinson, D.J., Sanford, R.N., *The authoritarian personality*, New York : Harper and Brothers, 1950.

ويناقش « كريس » الفروق بين علاقات الفرد بالقائد وبالأعضاء فى كل من الجماعات الاستبدادية والديموقراطية . فنى النوع الأول من الجماعات ، لا تكون للفروق الفردية أية أهمية بينما تتوحد استجابة الجماعة إلى القائد . وفى النوع الثانى من الجماعات ، يدرك كل فرد رسالة القائد باعتبارها موجهة إليه كفرد ويستجيب إليها وفقاً لخبرته الفردية . « وبينما الاستجابة ، فى الحالة الأولى ، تكون مملاة ، فهى هنا حرة ، والأفراد لا يشتركون إلا فى المنبه فقط »[١].

وقد تفضى الاستجابات الفردية إلى التقويمات الفردية ، بما تتضمنه من نقد وخلاف فى الرأى ، ويرتأى « كريس » أن النقد « يتطلب نوعاً جديداً من التوحد : نوع يتوحد فيه الناقد بالمنقود باتخاذه موقفاً هو : « إن كنت فى مكانه . . . »[٢]. وقد يكون النقد موجهاً إلى المضمون ذاته أو إلى طريقة العرض ؛ وقد يكون موضوعياً أو ذاتياً خالصاً . والمهم أنه يدخل فى حياة الجماعة عاملا جديداً هو التمحيص والرأى الموضوعى . وتضارب التوحدات والاتجاهات يزيد من فرص الفرد فى الاستجابة المستقلة عن قائد الجماعة .

أنماط القيادة

بنى « فرويد » معظم فروضه فى سيكولوجية الجماعات على تحليله لما يسميه « بالجماعات المصطنعة » التى « تتماسك بفضل قوة خارجة عنها » . فى هذه الجماعات الكبرى ، أمثال الكنيسة والجيش ، يتم اختيار القادة دون اعتبار لإرادة الجماعة . وقد فطن « فرويد » لنقص هذه المفاهيم ، فأشار إلى الاتجاهات التى يمكن أن يتخذها البحث فى المستقبل . يقول : « يجب أن نوجه اهتمامنا إلى مختلف أنواع الجماعات التلقائية المتفاوتة الثبات ، فندرس

(١) Kris, E., "Some problems of war propaganda", a *The psychoanalytic quarterly*, XII, 1943, p. 395.

(٢) *Ibid*, p. 395.

شروط نشوئها وانحلالها . وقبل كل شيء ، يجب أن نهتم بالتفرقة بين الجماعات المقودة وغير المقودة، ويجب أن ننظر فيما إذا كانت الجماعات المقودة هي أكثر الجماعات بداوة وكمالا ، وفيما إذا كان من المستطاع أن تحل فكرة أو تجريد محل القائد في الجماعات الأخرى ، وفيما إذا كان من الممكن أن ينوب عنه ميل مشترك أو رغبة يتقاسمها عدد من الناس . ثم إن هذا التجريد قد يكون متمثلا في شخص نسميه بالقائد الثانوى ، فتظهر صور شيقة من العلاقات بين الفكرة والقائد . كذلك قد يكون القائد أو الفكرة الموجهة سالبيين ، إذا جاز التعبير ؛ فقد تؤدى كراهية شخص أو نظام معين إلى توحيد الجماعة على نفس النحو ، وقد تخلق نفس النوع من الروابط الانفعالية التي يخلقها رباط موجب . إذ ذاك نتساءل عما إذا كان القائد ضروريًّا لجوهر الجماعة، وغير ذلك من الأمثلة الأخرى »[١].

وقد واصل « رديل » دراسة بعض المسائل التي أثارها « فرويد » ، لا سيما ديناميات الجماعات التلقائية . ويستبدل « رديل » لفظة « القائد » بلفظة « الشخص المركزى » ، وهي تدل إما على قائد معين من الخارج وإما على قائد تنتخبه الجماعة من تلقاء نفسها . وهو يعرّفه تعريفاً جامعاً فيقول : إنه « الشخص الذى تؤدى العلاقة الانفعالية به إلى إثارة العمليات الخاصة بتكوين الجماعات فى نفوس أفراد الجماعة المستقبلة »[٢]. ويمضى فيذكر عشرة مواقف مختلفة من مواقف تكوّن الجماعة والأدوار المختلفة التى يلعبها فيها الشخص المركزى . هذه المواقف تدخل تحت ثلاثة أنماط كبرى من أنماط العلاقة بين أعضاء الجماعة والشخص المركزى :

(١) الشخص المركزى باعتباره موضوعاً لتوحد أساسه حب أفراد الجماعة إياه أو خشيتهم منه .

(٢) الشخص المركزى باعتباره موضوعاً لدوافع أعضاء الجماعة العدوانية و/ أو اللبيدية .

---

(١) Freud, S., *Group psychology and the analysis of the Ego*, pp. 52-53.

(٢) Redl, F., "Group emotion and leadership, *psychiatry*, V., 1942, p. 576.

(٣) الشخص المركزى باعتباره عضداً للأنا لدى أعضاء الجماعة .

وتنتج الروابط الانفعالية بين أعضاء الجماعة (تكوّن الجماعة) من هذه العلاقات بالشخص المركزى ، « فعلى أساس هذا التشابه فيما بينهم ، تنمو مشاعرهم الجماعية نحو بعضهم بعضاً »(١).

وقد تتنوع التوحدات بالشخص المركزى ، كما ينص على ذلك أول أنواع العلاقات الآنفة الذكر . فقد يصبح الشخص المركزى نموذجاً يعجب به أفراد الجماعة : « فهم يحلونه فى أنفسهم محل ما يسمى عادة بالمثل الأعلى للأنا »(٢). وقد تظهر أيضاً صنوف من التوحد يستبطن فيها الأفراد معايير السلوك المميزة للوالدين الحبيبين ؛ « فهم يدمجون فى أنفسهم الأنا الأعلى لدى الشخص المركزى » . وقد تظهر صورة أخرى من صور التوحد على أساس خشية الشخص المركزى بوصفه معتدياً .

أما النوع الثانى ، فهو خلو من التوحد أو إدماج المعايير ، فأفراد الجماعة يختارون الشخص المركزى باعتباره موضوعاً لحبهم ، أو على أساس « سلبى » كما يقول « فرويد » ، باعتباره موضوعاً لعدوانهم .

ويشير النوع الثالث إلى استخدام أفراد الجماعة الشخص المركزى كوسيلة لتسوية نزاعاتهم أولا وبالذات . (وقد سبقت الإشارة فى الفصل الثالث إلى هذه النقطة ، باعتبارها تتمة لمبدأ « فرويد » الخاص بتكون الجماعات) .

فى كل ما تقدم ، نجد أن مفهومى «الفعل المبادئ» والعدوى الانفعالية عنصران هامان . وينبه « رديل » إلى أن أنماط القيادة التى يسردها قد تمتزج بدرجات متفاوتة فى نفس الجماعة وفى نفس الآن .

---

(١) *Ibid.*, p. 577.

(٢) *Ibid.*

الجماعات غير المقودة

يعتقد « فرويد » ، كما رأينا فى الباب السابق ، أن من المستطاع أن ينوب عن قائد الجماعة « فكرة أو تجريد » أو « ميل مشترك » بين أعضاء الجماعة . كذلك يتساءل « فرويد » عما إذا كان من الممكن لهذا التجريد أن يوجد بالإضافة إلى « القائد الثانوى » . يؤيد « رديل » هذا الافتراض بقوله : « كلما رسخت التغيرات الشخصية الدائمة فى نفوس أعضاء الجماعة ، ظهر ميل إلى أن يكون للجماعة فكرة أو مثل أعلى بجانب الشخص المركزى أو بدلا منه فى بعض الأحايين . وفى حالات نادرة ، قد يقوم هذا المثل الأعلى وحده بوظيفة التوجيه دون أن يكون له ممثل معين ، داخل الجماعة »[١].

كذلك وجد « فلوجل » « أننا نشعر بعواطف قوية موضوعها الجماعات ، بل الجماعات القومية الكبرى ، بغض النظر عن قادتها . ولكن يبقى أن من الأيسر تكوين العواطف نحو الأشخاص أو الموضوعات العينية منها نحو المجردات . . . ونحن لا ننفك نبحث عن رمز عينى لتقوية وتدعيم ولائنا لمثل هذه الجماعة ، المجردة »[٢]. ويعتقد « الكسندر » أنه كلما قل الجو الأوتوقراطى داخل الجماعة ، سهل تحول الإيمان بالقائد إلى « إيمان بالنسق ذاته إيماناً أكثر مطابقة للعقل ، ولكنه غير مفرط فى هذه المطابقة »[٣].

وبالرجوع إلى مبدأ تكون الجماعات لدى « فرويد » ، يمكن القول بأن الفرد قد يسقط الأنا الأعلى لديه على الجماعة أو على بعض المثل العليا الممثلة لهذه الجماعة . ومن ثمة تستطيع هذه المثل العليا بدورها ، أو قانون الجماعة ، أن تحل محل الأنا الأعلى عند الفرد .

(١) *Ibid.*, p. 587.
(٢) Flugel, J.C., *Man, morals and society*, p. 184.
(٣) Alexander, F., *op cit.*, p. 255.

القيادة والجو الجماعى

اقترب « فرويد » من فكرة الطقس أو الجو الجماعى حين ذكر ، ضمن معايير وجود الجماعة لدى « ماك دوجال » ، وعى الأعضاء بطبيعة الجماعة الجوهرية وغايتها . يقول : « يجب على الفرد فى الجماعة أن يكوّن فكرة عن طبيعة الجماعة وتركيبها ووظائفها وإمكانياتها ، كما يتمكن من الارتباط الوجدانى بالجماعة ككل »(١). وقد توسع آخرون فى هذه الفكرة على أنحاء مختلفة . يشير « فلوجل » إلى « صفة » من صفات الجماعات « تعتمد اعتماداً وثيقاً على صفات قادتها(٢)» . ويتصور « سلافسون » وجود « ملامح جماعية كاملة ، هى ثقافة الجماعة المعينة ، باعتبارها شيئاً متميزاً عن الأفراد الذين تتألف منهم الجماعة »(٣). ويرتأى « آكرمان » أن وجود القانون الجماعى ليس مقصوراً على الأسرة ، بل يشمل غيرها من الجماعات ، وأن « قانون الجماعة هو بمثابة ضميرها الجماعى ، إذا صح التعبير »(٤).

ويعرف « رديل » الجو الجماعى تعريفاً مفصلا . يسميه « باللون الشعورى الأساسى الذى يلوّن حياة الجماعة ، وهو جماع عواطف الأعضاء نحو بعضهم بعضاً ونحو العمل والتنظيم ، ونحو الجماعة بوصفها وحدة ، ونحو ما هو موجود خارج الجماعة »(٥). ويعتبر « رديل » القائد عاملا من أهم العوامل التى تكيف الجو الجماعى ؛ ودليله على هذه القضية مستمد من وصف مختلف

(١) Freud, S., *Group psychology and the analysis of the Ego*, pp. 30-31.

(٢) Flugel, J.C., *loc. cit.*

(٣) Slavson, S.R., "Some elements in activity group therapy". *American journal of Orthopsychiatry*, XIV, 1944, p. 580.

(٤) Ackerman, N.W., "Dynamic patterns in group psychotherapy". *Psychiatry* VII, 1944, p. 346.

(٥) Redl, F., "Disciplin in classroom practice", in Sheviakov and Redl, *Discipline for taday's children and Youth*, p. 48.

الأجواء الجماعية فى الفصول المدرسية ، ففى الجو العقابى مثلا « يبالغ الضغط المتصل على الأطفال درجة لا تلجأ فيها المعلمة إلى العقاب الفعلى إلا فيما ندر . . . والمعلمة لا تبدى إلا قليلا من الاحترام لأشخاص الأطفال فى فصلها وذلك لأنها على ثقة من قدرتها على السيطرة على مسلكهم عن طريق الوعيد والإرهاب ، بحيث لا تلقى بالا إليهم بوصفهم موجودات إنسانية ؛ والأطفال . وفقاً لمبدأ السلوك الذى فرضته المعلمة ذاتها ، يترقبون منها إما مطلق القبول أو مطلق الرفض . . . ويهيمن على الجو فى معظم الوقت خشية العقاب والعار »[١].

أما الجو الذى يطلق عليه « رديل » اسم جو الابتزاز الوجدانى فيتميز بأن « المعلمة "تحب" الأطفال جميعهم ولا تنقطع لحظة عن تكرار ذلك . وفى الآن ذاته ، تملأ أسماعهم بأنها طيبة القلب وديعة الخلق وأنها لن تعاقب أيًّا منهم إذا أخطأ ، وهى فى قرارة نفسها سعيدة بما تولده فى نفوس الأطفال من شعور بالذنب . . . ولسان حالها يقول : لن أعاقبك إذا أخطأت ، ولكنك ستسقط فى نظرى إلى أسفل سافلين . فى هذا الجو ، تخلق المعلمة لدى الأطفال اعتماداً وجدانيًّا هائلا ، مستغلة إياه باعتباره الوسيلة الوحيدة للتأثير فى الأطفال . وإليك النتائج : غياب كل أثر من آثار العنف البدنى أو غيره فى علاقة المعلمة بالأطفال . . .وفَرَق الأطفال من استهجان المعلمة ، وشدة التنافس بين الأطفال " المرضى عنهم "، والأطفال الأقل قرباً من المعلمة ...»[٢]

أما جو الزهو الجماعى فهو جو « يحاول فيه القائد أن ينمى فى نفس كل عضو من أعضاء الجماعة عاطفة قوية موضوعها الجماعة برمتها ، ثم يغذى شعور الزهو والاعتزاز المرتبطين بالجماعة كجماعة . هذا الجو يخلق حشداً من الجلادين ، الذين يكونون على أهبة الاستعداد للانقضاض على الشرير الذى تساوره نفسه بتدنيس شرف الجماعة . ومن ناحية أخرى ، يفضى هذا الجو إلى خلق عدد دائم من المنبوذين ، يحث على رجمهم تحت ستار الغضب الذى

---

(١) *Ibid.*, pp. 48-49.

(٢) *Ibid.*, p. 49.

يتملك الجماعة التقية »[١].

يتضح من الأمثلة السابقة أن الجو الجماعي كلٌّ دقيق معقد غير محسوس ، يتأثر إلى حد بعيد باتجاهات القائد الشعورية واللاشعورية . وفضلا عن ذلك ، فإن الارتباطات بالموضوعات والتوحد والحب والبغض التي يشعر بها أفراد الجماعة ، وهدف الجماعة وبناءها كلها تقوم بأدوار هامة . ويلمح « رديل » إلى الحاجة إلى زيادة فهمنا للأنحاء المختلفة التي تؤثر عليها الأجواء الجماعية في مسلك الفرد[٢] .

الاتجاهات الموجبة والسالبة نحو القائد

تتميز الروابط بالموضوعات بوجود كل من الدوافع اللبيدية والعدوانية بنسب متفاوتة . يقول « فرويد » : «كل علاقة عاطفية وثيقة تربط فردين لوقت ما — كالزواج والصداقة وعلاقات الوالدين بالأطفال — تخلف شيئاً من مشاعر النفور والعداء ، وهو عين ما يحدث حين يحتشد الناس في جماعات أكبر »[٣]. وتجنح هذه المشاعر المتناقضة في ظاهرها إلى التكامل في نفوس الأفراد الناضجين مما يهيئ للشخصية أداء وظائفها بمقتضى « مبدأ الواقع » .

وعواطف الطفل نحو والديه مزدوجة بطبعها ، وهو ما يصدق أيضاً على مواقف الفرد من ممثلي السلطة وضمنهم قادة الجماعات ، ويسلم « ميرفي » بأن « الأب يكون تارة موضوعاً يُهاب ، وتارة موضوعاً يُحب ، والمثل يقال عن بدلاء الأب أمثال الأجداد والأعمام ورجال الشرطة والأبطال العسكريين والملوك والرؤساء والباباوات ، وكلهم يحتلون المكان الأول من خبرة الطفل باعتبارهم صوراً من خبراته الأولى »[٤]. وقد أشرنا في الفصل السابق إلى أن أنواع التحويل

---

(١) Ibid., p. 50.

(٢) Ibid.

(٣) Freud, S., *Group psychology and the analysis of the Ego*, pp. 54-55.

(٤) Murphy, G., *Personality*, pp. 845-846.

والتوحد بقائد الجماعة (وبغيره من الأعضاء) قد تكون أيضاً موجبة أو سالبة أو بعبارة أدق ، قد تكون للعناصر الموجبة أو السالبة الغلبة فى أية لحظة من اللحظات. وسوف فيما نرى بعد كيف تحدد الاتجاهات والتحويلات الموجبة والسالبة روح الجماعة المعنوى ونموها ، بل عين وجودها فى بعض الأحيان . ومن الجوانب الجوهرية فى العلاج النفسى الجماعى ، وفى كل تربية جماعية ، استخدام هذه الاتجاهات والتحويلات استخداماً منهجياً مقصوداً .

وتتغلب الاتجاهات الموجبة نحو القائد ما دام القائد والجماعة يشبعان حاجات الأعضاء الأساسية . ولكن لما كان من المحال إشباع كل الحاجات ، فلا مفر من ظهور سورات العدوان العابرة ضد القائد . ويمكن أن تتخذ الاستجابات التحويلية المباشرة للقائد شكل إسقاط لاشعورى للمشاعر العدائية السابقة نحو الوالدين ، دون أن يكون لها بالطبع أية دعامة من الحاضر ، هذا الظرف الأخير هو أحد أسباب ضرورة التحكم فى تكوين الجماعة ، ذلك لأن الأفراد العصابيين يكشفون عن هذه الاتجاهات التحويلية بصورة تهدد كيان الجماعة .

وجملة القول ، تميل التوحدات والروابط اللبيدية الجماعية إلى معارضة الإفصاح عن العواطف السلبية نحو القائد . يقول « شتيرنباخ » : « إن شعور الفرد فى الجماعة بأنه فى منأى عن الخطر يؤثر فيه أبعد الأثر . إذ يقل إذ ذاك ازدواج الشعور نحو القائد — الوالد . وضرورة مقاسمة الجماعة موضوع الحب ، وما ينتج عن هذه المقاسمة من حرمان ، يفضى بالفرد إلى التوحد بالقائد . . . وهذا التوحد يمتزج بالتوحد بالجماعة ، فيصبح الفرد قادراً على التعبير عن حبه لقائده وللجماعة بما يناظر أى حب آخر ، من حيث التضحية بالنفس واكتمال التوحد »[1]، وفضلا عن هذا تيسر الجماعة ، كما سوف يتضح فيما بعد ، نقل الاتجاهات والأفعال العدائية من القائد إلى سائر أفراد الجماعة . فتقليل

---

(١) Stenbach, O., "The dynamics of psychotherapy in the group", *The journal of child psychiatry* I, 1949, p. 98.

العناصر السلبية فى التعلق بالقائد ، يبرز الجوانب الإيجابية الخالصة فى صورة أوضح .

القادة الناضجون وغير الناضجين

فى المقال الآنف الذكر ، المعنون « بالأنماط اللبيدية » ، يحدد « فرويد » بعض الأنماط العامة فى الشخصية ، من حيث اعتمادها على « تمركز اللبيدو فى إحدى مناطق الجهاز النفسى »[١] ؛ وهو يفرق بين الأنماط « الشبقية » و « الوسواسية » و « النرجسية » ، ويعتبر النمط الأخير أقدر الأنماط على قيادة الغير قيادة إنشائية . ويذكر « فرويد » ، ضمن ما يميز النمط « النرجسى » ، الاستقلال العظيم عن الغير والميل إلى « البذل » الوجدانى أكثر من « القبول » وإلى حد ما ، غياب الصراع النفسى . يقول : « ليس ثمة توتر بين الأنا والأنا الأعلى ، وليس ثمة غلبة للحاجات الشبقية ، وجل الاهتمام متمركز على حفظ الذات ، فهو نمط مستقل غير مرهوب الجانب . ويتصرف الأنا فى قدر عظيم من العدوان ، أحد مظاهرة الميل إلى النشاط . وفى الحب ، يفضل الفرد أن يحب لا أن يحب . مثل هؤلاء الناس يظهرون للغير بمظهر « شخصيات » يمكن لأترابهم الاعتماد عليها ، وهم يقومون بدور القيادة عن طيب خاطر ، فيمضون قدماً بالتطور الثقافى أو يقضون على الأوضاع الراهنة »[٢]. أما النمط « النرجسى الوسواسى » الخليط فهو « أقيم الأنواع من الناحية الثقافية لأنه يجمع بين الاستقلال عن العوامل الخارجية واحترام مقتضيات الضمير الأخلاقى من جهة ، وبين القدرة على العمل المثمر من جهة أخرى . هذا إلى أنه يزيد الأنا قوة أمام الأنا الأعلى »[٣].

وجملة القول ، تتطلب القيادة الناضجة قدرة على جذب انتباه الغير ،

---

(١) Freud, S., *Collected Papers*, vol. V, p. 248.

(٢) *Ibid.*, p. 249.

(٣) *Ibid.*, pp. 249-250.

كما تقضى أشخاصاً مرهفى الحس بحاجات الجماعة ، قادرين على البذل الوجدانى ، خالين نسبيًّا من أنواع الصراع اللاشعورى واللامعقول . والقائد يستخدم سلطته — بوصفه ممثلا للجماعة — للبلوغ بالجماعة إلى أهدافها . ومعنى هذا أيضاً أن مثل هذا القائد يتمكن من إشباع حاجاته وحاجات الجماعة دون تشجيع للعمليات الانتكاصية لدى الأفراد . يقول « ألكسندر » : « إن الحاجة إلى الاعتماد المتبادل والقيادة تفسر التماسك الاجتماعى ، ولكنها لا تفسر نشأة القيادة ووظائفها . إن ظهور القادة لا يفهم إلا بالرجوع إلى الفروق الفردية بين أعضاء الجماعة . فمن كان على قدر أقل من الحاجة إلى الاعتماد الانفعالى على الغير ، أو كان متلهفاً على حمل المسئولية ، أصبح بالطبع قائداً للأغلبية القلقة المفتقرة إلى قيادته »[١].

وقد ركز التحليل النفسى دراسته على دور الطغاة ، باعتبارهم مثالا للقيادة المبتسرة . استعرض « بايشوفسكى » مثلا حياة الطغاة من « يوليوس قيصر » إلى « ستالين »[٢]. وقد سبقت الإشارة إلى دراسة « أريكسون » بعنوان « الأخيلة الهتلرية والشبيبة الألمانية »[٣].

وصفوة القول ، تتضمن القيادة المبتسرة استخدام القائد مركزه لإشباع حاجاته الشخصية فى المحل الأول ، دون حاجات أعضاء الجماعة . وقد يصحب هذا الإشباع استهانته باهتمامات الجماعة ومطالبها الانفعالية . فى ظل هذه القيادة ، تقوى التيارات الانتكاصية، وتتوقف محاولات النمو الفردى والسيطرة على البيئة سيطرة مستقلة[٤] .

تبين لـ « شتيرنباخ » أن « بعض النرجسيين من الأفراد يفتقرون إلى الزعامة وإلا اشتد القلق عليهم إذا واجهوا واقعاً يطابق تقديرهم المتضخم لأنفسهم . وقد تكون القيادة فى يد البعض آلة يتوسلون بها إلى بسط نفوذهم وسيطرتهم على

(١) Alexander, F., *op. cit.*, p. 254.

(٢) Bychowski, F., *Dictators and disciples*, N.Y., International Univ. Press, 1948.

(٣) Erikson, E.H., "Hister's imagery and German Youth", in C. Klukhahn and H.A. Murray, *Personality in nature, society, and culture.*

(٤) Sternbach, O., *op. cit.*, p. 105.

الغير . وهذا عين ما يحدث مع القائد المفترى الذى يصب همه الأكبر على « الأخذ » واستغلال الجماعة لأغراض شخصية جائرة . كذلك قد يستعين البعض بالقيادة للتعبير عن ضروب القلق والصراع اللاشعورية ، بالرمز أو بالمسلك الفعلى . مثال ذلك ، الفرد الذى يعوض عن إحساسه اللاشعورى بالضعف والعجز عن طريق تزعم غيره وقيادته . مثل هذا الشخص يظهر غالباً فى علاقته بغير جماعته المختارة ، بمظهر الخجول المتردد . تلك كانت حال « دونالد » ، وهو حدث فى الخامسة عشرة من عمره ، اشتهر فى المدرسة بأنه « مخنث » . كان يشكو من نقص نموه الجسمى ، وقد اعترف لمعلم الرياضة البدنية بأنه مشغول البال بضآلة أعضائه التناسلية وأنه يخشى ألا « يصير رجلا على الإطلاق » . وقد تبين فيما بعد أن هذا الصبى نفسه كان ينشر الرعب فى الحى على رأس عصابة من أطفال يصغرونه سناً . ومن المعروف أيضاً أن بعض القادة يعبرون عن أفكار هلواسية وغيرها من العناصر الذهانية داخل نطاق الجماعة وعن طريق الحياة فيها ، كما كانت الحال مع « هتلر » مثلا .

والقيادة غير الناضجة تجنح إلى تشجيع عدم النضج فى أفراد الجماعة ، ولكن هذا لا يعنى أنها لا تكون قادرة أحياناً على الوصول إلى أهداف الجماعة وغاياتها المقررة . ثم إن الأفراد أو الجماعات قد يستكينون إلى مثل هذه القيادة . هذا الوضع يثير إشكالا يصعب على الإخصائى الاجتماعى حله . فقد تجدد جماعة انتخاب رئيس مستبد غير ناضج لأنه « يسير الأمور » . ويتطلب تخليص الجماعة من قائد لا يأبه بأهدافها أو بحاجات الأفراد فيها ، ويقف عثرة فى طريق حياتها الديموقراطية ، توجيهاً طويلا رحب الصدر ، وقدراً كبيراً من التحايل السيكولوجى الجماعى . وتكون المهمة أيسر منالا إذا اقتصر الأمر على تبصير القائد بما يفعله بالجماعة ومعاونته فى تغيير طرائقه . ولكن هذا المشروع يصعب أو يستحيل إنجازه ، لما فى شخصية القائد من نقص فى النضج . وتدل مشاهدات « رديل » على أن « الشخص المركزى » المصاب نفسياً ، قد يصبح وسيلة مجدية للتخفيف عن حدة الصراعات النفسية لدى الأفراد الأكثر استواء .

لكى نفهم القيادة الناضجة وغير الناضجة ، يجب دراسة بناء شخصية القائد بجوانبها المريضة والسويّة ، وكيف تتفاعل هذه الجوانب مع كل فرد فى الجماعة ومع الجماعة ككل . من هذه الناحية ، نجد أن الدراسة التى قامت بها « جينجز » الخاصة باختيار القادة فى معهد للبنات ، ذات أهمية خاصة . تدل نتائجها على أن اختيار القادة يكون على أساس إحساسهم بحاجات الجماعة وحاجات أفرادها. هؤلاء القادة يبتدعون الوسائل المبتكرة لتحسين وضع الجماعة ، ويمتنعون عن التعبير عن مشاكلهم الشخصية داخل إطار الحياة الجماعية . ومن الملحوظ أيضاً أنهم يهتمون بالتضامن الاجتماعى وأن قدرتهم على إقامة الروابط بالغير فى يسر وسهولة عظيمة حقاً (١).

يلوح أن هناك شيئاً من الثبات فى اختيار أشخاص الزعماء ، رغم أن القيام بدور الزعامة نفسه يعتمد على الوضع القائم . وهكذا ، حين تتشابه المواقف الجماعية ، نجد أن الأشخاص الذين قاموا بدور الزعامة فى الماضى يقومون بنفس الدور مرة أخرى . وهو ما يصدق خاصة على الجماعات التلقائية التى يتمركز فيها الاهتمام على العلاقات بين الأفراد . أما القادة غير الناضجين فلا ينفكون عن تولى القيادة مرة تلو المرة ، لشدة افتقارهم إلى استعادة مركزهم السابق .

وأساس القيادة فى التجمعات الكبرى (الجماعات الثانوية) هى النواحى الشكلية والرمزية ، بغض النظر ، إلى حد ما ، عن التفاعل الشخصى . لذلك لا تتجلى سمات القائد (وأفراد الجماعة) ، إذا تجلت على الإطلاق ، إلا ببطء، مما يجعل من العسير تحديدها على وجه الدقة .

---

(١) Jennings, H.H., *Leadership and isolation*, New York, Longsman, Green and Co., 1943.

الفصل الخامس

الصراع داخل الجماعات وما بينها

الدوافع العدوانية والعلاقات الجماعية

أشرنا فى الفصل الثانى إلى الفرض التحليلى الخاص بوجود نوعين من الدوافع الأساسية فى الحياة الإنسانية ، هما دوافع الليبيدو ودوافع العدوان ، ولاحظنا أيضاً أن من المحال فى الواقع دراسة أى من هذه الدوافع على حدة ، لأنها « تؤلف بين القوى أو تعارض بينها ، ومن هذه التواليف تنجم ظواهر الحياة . . . واستجابات الحب والكراهية ممتزجة بالطبع فى نفس الإنسان ، ومنذ بدء العلاقات بالموضوعات فى حياة الفرد ، يتجه هذان الميلان المتعارضان إلى نفس الأشخاص »[1].

ويعتقد « فرويد » أن الروابط اللبيدية بين الناس تجنح بوجه عام ، إلى تغيير الدوافع العدوانية وتحويل وجهتها . يقول : « فى الأحوال الحضارية التى خلقها الإنسان لنفسه ، يجب على الدوافع الشبقية أن تلطف الكثير وأن تمنع الكثير »[2]. كل دافع عدوانى مثلا ، « يمتزج دائماً بعنصر شبقى يعدل من هدفه أو يعاونه على بلوغ هذا الهدف فى بعض الأحايين »[3]. وقد رأينا من هذه الناحية ، أن جل الطاقة اللبيدية تخضع ، فى العلاقات الاجتماعية ، لتعطيل الهدف والتعديل . والمعتقد أن عملية مماثلة تحدث بالنسبة لدوافع العدوان ، رغم أن « فرويد » وغيره من علماء علم النفس الجماعى ، لم يخصوا هذه النقطة بالإشارة الصريحة . ويشير « هارتمان » و « كريس » و « اوفنشتاين »

(١) Freud, A., "Notes on aggression", *Bulletin of the Menninger Clinic*, XIII, 1949, p. 147.

(٢) Freud, S, *New introductory lectures on psychoanalysis*, p. 152.

(٣) Freud. S., *Collected Papers*, vol. X, p. 281.

إلى أن « الأهداف العدوانية تتغير إذا شحنت فى نفس الآن بالليبيدو . . . إن الحافز العدوانى الأصيل يهدد وجود الموضوع ، وفى شحن الموضوع بالليبيدو صون له »[١]. وأفرد « ننجار » كتاباً بأسره لبسط فكرة مركزية هى أن « الحب قادر على تحوير حوافز الكراهية وإدخالها فى نطاق القبول والنفع الاجتماعيين »[٢].

يذكر « فرويد » ، فى سياق تحليل الدوافع الليبيدية المعطلة الأهداف ، أن « المشاعر العدوانية لا تشذ عن هذه القاعدة ، رغم أنها أكثر تعقيداً »[٣]. وقد وجدنا أن انطلاق عدد كبير من الدوافع الليبيدية المباشرة يهدد كيان الجماعة ؛ والمثل يقال عن الدوافع العدوانية التى لم يتعطل هدفها . غير أن الميول العدوانية تتجلى دائماً فى حياة الجماعة ، شأنها فى هذا شأن الدوافع الليبيدية . (وهذه الميول قد تكون أحياناً رد فعل على الحرمان ، رغم أن بعضها قد يصدر عن الهو صدوراً تلقائياً) . وقد بينت « أنا فرويد» أن الفرد قد يسلك مسلكاً عدوانياً ، استجابة منه لضغط البيئة أو القوى الداخلية . والميل إلى العدوان جزء من جبلة الإنسان النفسية ، بحيث يعتقد « فرويد » أن لا أمل فى التخلص من دوافع الإنسان العدوانية ، وإنما يكفى أن نعمل على تحويل مجراها »[٤].

التصرف فى الميول العدوانية

فى أية جماعة نوعان أساسيان من القوى : القوى الليبيدية المسئولة عن تماسك الجماعة ، والقوى العدوانية الهدامة ، وهى تتجلى فى الاتجاهات السلبية

(١) Hartman, H., Kris. E., Lœwenstein, R.M., "Notes on the theory of aggression", *The psychoanalytic study of the child*, III-I V, 1949, p. 19.

(٢) Menninger, K., *Love against hate*, p. 263.

(٣) Freud, S., *Group psychology and the analysis of the Ego*, p. 118.

(٤) Freud, *S.*, *Collected Papers*, vol., p. 283.

التى تتراوح بين النفور الخفيف والحقد البالغ . يقول « الكسندر » : « يجب على كل مجتمع أن يحسب لهاتين القوتين الانفعاليتين المتضادتين حسابهما ، وكل نسق اجتماعى يتوقف وجوده على توازن هاتين القوتين »[١].

إذا نظرنا فى المسلك العدوانى الذى يسلكه شخص ما ، تبين لنا أن الميول العدوانية التى تنبع من صميم الشخصية ، ليست كل شيء ، وأن ثمة ميولا أخرى يثيرها الاعتداء الخارجى المترقب أو الفعلى . فى المواقف الجماعية ، ينجم هذا السلوك العدوانى الأخير عن مسلك بعض الأفراد المعينين أو عن بعض العناصر غير المرضية فى الجماعة ككل . ومن هذه الناحية ، وجد « سلافسون » أن كل الجماعات تهدد أعضاءها على نحو من الأنحاء . ومن ضمن عناصر هذا التهديد ، ذكر « سلافسون » تغير سلوك الفرد إذ ينضم إلى الجماعة تغيراً لا يمكن التكهن به[٢]، وهذا الظرف يزيد من احتمال حدوث الصراع داخل نطاق الجماعة ، وغنى عن البيان ، أن الأخطار الحقيقية أو المتخيلة التى تتمثل فى بعض الناس أو الجماعات الخارجية ، قد تقوم بدور مماثل .

لما كانت الروابط الليبيدية (الروابط بالموضوعات والتوحدات) هى المميز الرئيسى للجماعات السيكولوجية ، كان من اليسير نسبياً تغيير الاستجابات العدوانية وتعديل اتجاهها . هذا هو أحد الأسباب التى تجعل تسوية الصراعات داخل نطاق الجماعة أيسر منها بين الجماعات . يقول « فرويد » : « إن الحاجات والعادات المشتركة بين قوم يعيشون تحت سقف واحد ، تحبذ سرعة انتهاء أمثال هذه الصراعات ، لذلك تزداد احتمالات الحلول السلمية تزايداً مطرداً »[٣]. كذلك يعترف « شيلدر » بأن الروابط الوجدانية بين الأفراد تقاوم ظهور العدوان داخل الجماعة . يقول : « إن رابطة التعاطف والجنس تمكن

(١) Alexander, F., *Our age of unreason*, p. 263.

(٢) Slavson, S. R., "Some elements in activity group therapy", *American journal of orthopsychiatry*, XIV, 1944, p. 579.

(٣) Freud, S., "Why war", in *Civilization, war and death*, p. 87.

الجماعة من العمل معاً والاشتراك فى دفع الأخطار الخارجية وهكذا توجه الميول العدوانية إلى العدو الخارجى ، إلى العمل وإلى الطبيعة »[١] .

يرتأى « فرويد » أيضاً أن توحد أعضاء الجماعة بعضهم ببعض يساعد على قمع الميول العدوانية ، ويرى أن هذا التوحد « يفضى بالفرد إلى الحد من عدوانه نحو من توحد بهم ، وإلى الصفح عنهم ومد يد العون إليهم »[٢]. كذلك يؤكد « فينكل » أهمية دور التوحد « فى إيقاف مظاهر العدوان فى الجماعة ، وهو شرط جوهرى لتكوّن الجماعة »[٣]، ويعتمد « إيشهورن » على التوحد فى تبديد الميول العدوانية المفرطة لدى الجانحين من الأحداث . يقول : « نحن نرى فى التوحد ما يقابل العملية التى أشار إليها « فرويد » فى كتابه علم النفس الجماعى وتحليل الأنا ، فالارتباط الانفعالى لقوى الأخصائيين الاجتماعيين يأتى فى أعقاب فترة يبلغ فيها العدوان أقصاه »[٤] . وهناك أنواع أخرى من التوحد تمكن الفرد من التغلب على خوفه من اعتداء الغير . وقد سبقت الإشارة فى الفصل الثانى ، إلى مفهوم « التوحد بالمعتدى » عند « أنّا فرويد » . تقول : إن هذا التوحد لوثيق الصلة بعملية الإسقاط التى نلجأ إليها إذ « نسقط على الغير ما نحسه من غيرة ، وما نأتيه من مختلف أفعال العدوان »[٥].

وجد « شتيرنباخ » أن الفرد يكبح جماح ميوله العدوانية ، بغية الاحتفاظ بقبول قائد الجماعة وأعضائها (حب الوالد والإخوة) ، حين يصبح هذا القبول أمراً جوهريّاً بالنسبة إليه[٦]؛ فهو يريد الإبقاء على الجماعة . « وكل هذا

(١) Schilder, P. "Introductory remarks on groups", *Journal of social psychology*, XII, 1940, p. 91.

(٢) Freud, S., *Group psychology and the analysis of the Ego*, p. 70.

(٣) Fenichel, O., *The psychoanalytic theory of neurosis*, p. 87.

(٤) Aichhorn, A., *Wayward youth*, p. 177.

(٥) Freud, A., *The Ego and the mechanism of defense* p. 133.

(٦) Sternbach, O., "The dynamics of psychotherapy in the group", *The journal of child psychiatry*, I, 1947, p. 101.

لا يختلف عن العملية الأساسية التي يقوم عليها تعلم الطفل الصغير ، حيث تكون رغبة إرضاء الأم أقوى من لذة الاستمرار في مسلكه المجوج . والجماعة تنشط هذه العملية ، نظراً لوجود حافز إضافي مصدره العلاقة بالأعضاء الآخرين »[١] .

ومما يعمل أيضاً على الحد من ميول العدوان لدى الفرد ، وجود الجماعة ذاته ، أي وجود أفراد يقابلون السن بالسن والعين بالعين . فضلا عن أن قانون الجماعة (المكتوب وغير المكتوب) قد يؤدي دوراً مماثلا . هذه العمليات كلها ، إذا اتصل عملها أمداً طويلا ، تفضي إلى تغيير أنماط الشخصية تغييراً حقيقياً .

ولكن هذا لا يعني أننا قد استأصلنا شأفة حالات الصراع في الجماعة على الإطلاق . ذلك لأن مطالبة الأفراد بضبط مسالكهم ، سواء جاءت هذه المطالبة من قبل القائد أو الجماعة ، تنطوي حتما على حرمانهم من فعل شيء ما ، وهذا الحرمان يجنح إلى إثارة العدوان . غير أن الفرد قلما يفصح للقائد مباشرة عن هذا العدوان ، لما يتضمنه هذا الإفصاح من مشاعر الخوف والذنب المتصلة بصورة الوالدين . ويرتأى « شتيرنباخ » أن كثيراً من القيود مصدرها أعضاء الجماعة أنفسهم ، وليس القائد ، مما يحول إليهم قدراً عظيماً من العدوان . وقد تجري الأمور على هذا النمط إذا كان القائد نفسه مصدر القيود الرئيسي . إذ ذاك ينقل العدوان إلى أعضاء الجماعة ، فيظل ارتباط الفرد بالقائد على ما كان عليه . ومما ييسر هذا النقل « الغيرة الطبيعية التي يشعر بها أفراد الجماعة ، وتوحيدهم بين الجماعة وقائدها على أساس مشاركتهم جميعاً في حبه »[٢] .

وتوجيه العدوان الذي يتبدى داخل الجماعة ، مشكلة معقدة بعض التعقيد . فإذا كانت المطالب التي يفرضها القائد أو الجماعة مغالى فيها ، وإذا

(١) Scheidlinger, S., "Understanding the adolescent in a group setting", *The journal of educational sociology*, XXIII, 1949, p. 61.

(٢) Sternbach, O., *op. cit.*, p. 101.

منع كل تعبير عدوانى (وإن كان غير مباشر) منعاً باتًّا ، انقطعت الروابط الموجبة التى تربط الأعضاء بالقائد وتغير الجو الأساسى السائد فى الجماعة . لذلك يعمد القادة المستبدون إلى تزويد أتباعهم بضحية مختارة . « إذ لا بد من منصرف لهذا العدوان المتزايد الموجه إلى صورة الوالد فى شخص القائد ، منصرف توعز به السلطات رسميًّا ، وتظهر فيه رضاءها عن هذا التحويل للمشاعر السالبة . فيرتبط الحقد والزراية والاستهزاء بفرد يتقمص القسمات السيئة من شخص الوالد ، ويتاح لهذه العواطف أن تنطلق فى تعبير سلوكى مباشر »[١].

من هذا يتضح أن بعض حالات الصراع مرتبطة بالضرورة بحياة الجماعة ، وإن كان فى توجيه التعبير عنها دعم للجو الإيجابى المهيمن على الجماعة . يقول « ميس » : « لا ضير أن يفصح الأطفال عن مشاعرهم العدائية ، فهذا الإفصاح يهيئهم للتعبير عن مشاعر الود والمحبة ، والتلذذ بها »[٢]. وهكذا ، يؤدى إطلاق دوافع العدوان الطفلية المكبوتة ، إلى نمو شخصية أعضاء الجماعة ، وهذا بدوره يؤدى إلى نمو الجماعة بأسرها .

دور الغيرة

رأينا كيف يفضى الحرمان المتسبب عما يفرضه القائد على الفرد أو على الجماعة برمتها من مطالب ، إلى زيادة صور التعبير عن المشاعر السالبة . ولكن ثمة مصدراً آخر للعداء داخل الجماعة ، هو تنافس الأفراد فيما بينهم . ويؤكد « فرويد » أهمية عنصر تنافس أطفال العائلة الواحدة فى حب الوالدين . فالطفل يود لو استأثر دون غيره بكل انتباه الوالد وحبه ، لأن « حب الطفل لا يعرف القيود ، ويطلب التفرد بالاستحواذ ، ولا يرضى إلا بالكل »[٣]. ويقول

---

(١) *Ibid.*, p. 99.

(٢) Mace, D.R., "That Dear Octopus - The Family", *Child study*, XXVII, 1950, p. 58.

(٣) Freud, S., *Collected Papers*, vol. V, p. 259.

« ميس » « من السهل أن يكون إلزام الواجب الخارجى ، ستاراً تختفى العداوات خلفه . . . فالإخوة والأخوات لم يختر بعضهم بعضاً ، وإنما جاء تجمعهم عن طريق الصدفة ، دون مراعاة لفوارق السن والجنس والمزاج . فمن حقهم — منذ البداية — أن يعتبروا أنفسهم متنافسين فى حب الأم ، وهو حب يبدو لهم محدوداً فى كميته ، وغير ميسر لأكثر من طفل فى كل مرة »[1] .

ويميز « فلوجل » ثلاث مجموعات من العوامل السيكولوجية المسئولة عن ظاهرة الغيرة ، هى :

١ — غيرة الحرمان الناشئ عن فقدان موضوع الحب المشترك ، سواء أكان فقداناً فعلياً أو مترقباً ، أم عن مشاعر النقص المرتبطة باعتبار الذات الجريحة .

٢ — الغيرة الناشئة عن الأسى الذى يعقب فقدان الموضوع وما يصحب هذا الفقدان من عداوة نحو المسئول عنه .

٣ — الغيرة والعداوة المقرونة بها يوجهان إلى موضوع الحب أو إلى الند ذاته .

وتجتمع بعض أو كل هذه العناصر فى الأسرة أو فى غيرها من المواقف الاجتماعية .

ومن الممكن ، بوجه عام ، التغلب على مشاعر الغيرة بتوحد الأنداد بعضهم ببعض . يقول « فرويد » : « يضطر الطفل إلى التوحد بغيره من الأطفال ، لأن الوالدين يحبون أطفالهم جميعاً على حد سواء ، ولأن من المحال عليه أن يظل فى موقفه العدائى دون أن يلحق بنفسه الأذى »[2]. وكأن الطفل يقول لنفسه : ما دمت عاجزاً عن الاستئثار بالوالد لنفسى ، فسأبذل كل جهدى لكى لا يستأثر به أندادى . وكنا قد أشرنا إلى افتراض « فرويد » أن « هذه الاستجابة

(١) Mace, D.R., *op. cit.*, p. 37.

(٢) Freud, S., *Group psychology and the analysis of the Ego*, p. 86.

العكسية التي تستهدف العدالة والمساواة في معاملة الجميع »[١]. وهي أساس التضامن في الأسرة وما يتبعها من جماعات .

والمعتقد أن مشاعر التنافس اللاشعورية تظهر بين أعضاء الجماعات المقودة كلها ، وهي مشاعر يمكن التغلب عليها عن طريق التوحد التكويني العكسي . « فهم أنداد في الأصل ، ولكنهم نجحوا في أن يتوحد بعضهم ببعض على أساس حبهم المشترك لنفس الموضوع »[٢]. ويتجلى هذا النوع من الغيرة في جماعات أطفال الحضانة ، فهو غالباً ما يتبدى في صورة سافرة شعورية .

وجد « سلافسون » أن الصراع والحرمان المرتبطين بحياة الأسرة ، يخلفان في نفس الطفل أثراً لاشعورياً يلوّن علاقات الفرد التالية بالجماعات[٣]. ويقول « ميرفي » ، وهو يشير إلى دراسات « دافيدليفي » ، : « تنطوي العلاقات بين الأخوة بالضرورة على التنافس والتصادم ، وقد يوجد قدر ضخم من العداء اللاشعوري بجانب مظهر خارجي من القبول أو الود »[٤].

ومن أسرار القيادة الناجحة للجماعات ، إدراك هذه المنافسات الكامنة أو الظاهرة ، والتصرف فيها تصرفاً دقيقاً . فما من شيء محبط لروح الجماعة المعنوي أكثر من قائد يحابي بعض أفرادها . وقد دلتني خبرتي على أن الأطفال يفضلون عادة المعلم العادل ، رغم صرامته ، بينما يبغضون المعلمين أو القادة غير المتسقين في مسلكهم ، الذين يحبذون من يتملقهم ولا يحسبون للغيرة حسابها ، وهم يبغضونهم مهما بلغت درجة تسامحهم في الأمور الأخرى ، ثم إن جماعة يقودها مثل هذا القائد تكون عادة ذات روح معنوي ضعيف ، وتقف موقفاً سلبياً من مهمات الجماعة وتظهر نقصاً في الاهتمام بها وما إلى ذلك . وفي النظم الاجتماعية ذات الطابع الاستبدادي ، يؤدي فشل القائد في التحكم في التنافس القائم بين مساعديه ، إلى انهيار هذه النظم .

---

(١) *Ibid.*

(٢) *Ibid.*, p. 87.

(٣) Slavson, S.R., "Some elements in activity group therapy", *op. cit.*, p. 580.

(٤) Murphy, G., *Personality*, p. 851.

حيل التصرف فى الدوافع العدوانية

سبقت الإشارة إلى عدد من الحيل السيكولوجية التى يستخدمها الأنا فى مواجهة بعض النوازع النفسية أو أخطار البيئة المحيطة ؛ من هذه الحيل ، التوحد والإدماج والتسامى والتحويل التكوينى العكسى . وقد نوقشت بعض هذه الحيل من حيث إمكان استخدامها للتحكم فى دوافع العدوان فى السلوك الجماعى وتغيير وجهتها . فرأينا مثلا كيف يفضى التوحد إلى القضاء على تنافس الأفراد للاستئثار بقائد الجماعة . وذكرنا أيضاً أن دوافع العدوان الموجهة نحو القائد تجنح إلى الانتقال إلى أعضاء الجماعة .

ونقل العدوان هو أكثر ما يسترعى انتباه الفاحص فى السلوك الجماعى .

فالقادة يستخدمونه عن قصد لدعم الروح المعنوى فى الجماعة . وهو يتم تلقائياً فى كل موقف جماعى تندر أو تنعدم فيه وسائل التعبير المباشر عن العدوان . وينبه « سلافسون » إلى الخطر الذى يتهدد الروح المعنوى فى الجماعة إذا ما حرم كل تعبير عن المشاعر السالبة ، لا سيما إذا فرض القائد هذا التحريم . « فالحرمان يولد العدوان ، وإذا امتنع إطلاق العدوان نحو المسئول عن هذا الحرمان ، وهو القائد ، فإنه ينتقل إلى بدلاء القائد »(١). وهذا الانتقال لا يقتصر على الأشخاص بل قد يمتد إلى الأشياء المرتبطة بموضوع الحرمان ، فتحطيم الأثاث وإتلاف الحوائط والأرضية ، كلها نتيجة لعدوان منقول ، موجه أصلا إلى شخص أو عدد من الأشخاص .

سبقت لنا الإشارة إلى أن ظاهرة الضحية هى انتقال حوافز العدوان إلى فرد معين أو جماعة بأسرها . وهى تتبدى حين يكون التعبير المباشر عن هذه الحوافز محفوفاً بالأخطار المتخيلة أو الفعلية . ولتبرير اختيار الضحية ، يتفنن القادة فى اختلاق المعاذير المنطقية التى تستهدف منع وخز الضمير .

(١) Slavson, S.R., *Recreation and the total personality*, p. 145.

وتخفيف وطأة الشعور بالذنب عن طريق « الأفعال المبادئة » ، التي تعرضنا لها في الفصل الثالث بصدد الحديث عن العدوى الانفعالية ، عامل مهم آخر . يقول « فينيكل » : « من الأسس التي تقوم عليها سيكولوجية التجمهر أن تخف لدى الفرد حدة الشعور بالذنب عن طريق الشعور بأن غيره يجسر على إتيان ما يؤنبه ضميره هو على ارتكابه »[١]. وكأن الفرد يقول لنفسه : « إذا كان غيرى يأتون مثل هذا الفعل ، ففى وسعى أنا أيضاً أن آتيه » . وهو مثال آخر على انخفاض مستوى معايير الأنا الأعلى حين يوجد الفرد فى الجماعة .

كذلك يعترف « ميرفى » بوجود العناصر اللاشعورية فى ظاهرة الضحية . ويرتأى أن من العوامل الخفية فى هذه الظاهرة ، خوف الفرد من أن يهاجمه الغير . يقول : « إن خوف الفرد من المعتدين يدفع به إلى استبعادهم عن نطاق وعيه ، وقد ينجح فى عدم الشعور بأن الخوف والكراهية يعتملان فى قرارة نفسه . وكما يغرس البدائى إبرته فى تمثال من الشمع يمثل عدوه ، كذلك يغرس المتحضر إبرة رمزية فى ضحية بديلة ؛ تلك هى إحدى صور ظاهرة الضحية »[٢].

وكثيراً ما يصحب الإسقاط نقل دوافع العدوان فى السلوك الجماعى . ويدل الإسقاط على نسبة المرء إلى غيره ما به من مشاعر وأفكار ورغبات لاشعورية . وفى مواقف الضحية ، قد يستعين الأنا بالإسقاط إلى جانب نقل العدوان . وقد تبين من تحليل التعصب ، أن المعتدين قد يسقطون على الضحية صفاتهم الذاتية ، وأنهم يهاجمون صورة مطابقة للجوانب المحجوجة فى أنفسهم . ومن الشائع أن يكره المرء فى غيره ما لا يقوى أو مالا يريد أن يواجهه فى نفسه . ويشير « الكسندر » إلى « ما ينتج عن ضرورة نسبة العدوان إلى الغير — لتخفيف حدة وخز الضمير — من خوف لامعقول وريبة لا مبرر لها »[٣].

---

(١) Fenichel, O., *op. cit.*, p. 499.

(٢) Murphy, G., *op. cit.*, p. 549.

(٣) Alexander, F., "Psychoanalysis and social disorganization", *American journal of sociology*, XLII, 1937, p. 812.

ويرى « مونى – كيرل » أن عدو الجماعة « يمثل فى اللاشعور شخص الوالد الشرير الذى أسقط عليه الطفل ميوله العدوانية. وهذا العدو جزء لا ينفصل عن نمط لاشعورى معين ، لذلك يجنح الفرد إلى رؤيته سواء كان موجوداً بالفعل أم غير موجود ؛ فهو من ثمة عامل دائم من عوامل تكوّن الجماعات »[١] ، كذلك من الممكن تصور هذا العدو على هيئة خائن يعمل داخل نطاق الجماعة ذاتها .

وتدل ملاحظات « أيزاكس » على أن أول مشاعر التماسك الجماعى لدى أطفال الحضانة ، وثيقة الارتباط بتعبير الجماعة عن عدائها لمن لا ينتسب إليها . فكأن الطفل مفتقر إلى موضوع خارجى يسقط عليه مشاعره السالبة قبل أن تتمكن المشاعر الإيجابية من بناء الروابط الجماعية ، وهى ترد هذه الظاهرة إلى نقص سيطرة الطفل على دوافعه العدوانية . والطفل يستخدم الإسقاط على النحو التالى : « ليس العدو البغيض بديلا عن الصديق فحسب ، وإنما هو ممثل للضحية ورمز للنوازع الشريرة فى نفس . فهو الذى يكره صديقى ، ولست أنا »[٢]. كذلك بين « كريس » كيف « توجه الضحية الانفعالات من داخل الجماعة إلى خارجها ، بحيث يصبح العدو المشترك عاملا موحّداً للجماعة »[٣].

وللإسقاط دور فى حالات التعصب للجماعة . وذلك لأن إسقاط ضعف الجماعة على غيرها من الجماعات ، يجعل هذه الأخيرة تظهر فى مكانة هى دون مكانة الجماعة التى ينتسب إليها الفرد .

وبالإضافة إلى أنواع الإسقاطات المتقدمة ، تذكر « أنّا فرويد » نمطاً مغايراً يسمح « بتكوين الروابط الإيجابية القيمة ، ومن ثمة بتوثيق علائقنا

(١) Money-Kyrle, R., "Varieties of group formation", in *Psychoaanalysis and the social sciences*, II, p. 319.

(٢) Isaacs, S., *Social development in young children*, p. 253.

(٣) Kris, E., "The cavenant of the gangster", *The journal of criminal psychopathology*, IV, 1943, p. 455.

بالغير»[1]. وتسمى هذه الصورة من الإسقاط « بالاستسلام الإيثارى » ، وتقصد به إشباع متنوّع حاجات المرء عن طريق مسلك الآخرين . والعلاقة واضحة بين هذه الظاهرة وظاهرة التوحد عن طريق المشاركة الوجدانية . وإذا كان عجز الفرد عن إشباع نوازعه الشخصية وإسقاطه إياها على الغير ، مرجعه إلى القلق النفسى ، فإن السلوك الناجم عن ذلك والذى يستهدف « إشباع نوازع الغير » ، يكون ذا قيمة اجتماعية إنشائية . وقد يبدى مثل هذا الشخص ، فيما يبذل من جهد فى سبيل الغير ، نشاطاً عدوانياً شديداً . وتسرد « أنّا فرويد » مثال « المحسن الاجتماعى الذى يطالب بعض الناس بمال يجود به على البعض الآخرين ، وهو فى هذه المطالبة يبذل منتهى طاقته وعدوانه »[2] . وترى « أنّا فرويد » أن هذه العملية مرتبطة بنزول الطفل عن بعض رغباته نزولاً اضطرارياً ، وما يصحب ذلك من كبت فى الانفعال . وهى ترتأى أن « موضوع العدوان » يمثل السلطة التى فرضت القيد أصلا . تقول : « والحال هنا هى نفس الحال فى عملية التوحد بالمعتدى ، فالموقف السلبى ينقلب إلى موقف إيجابى ، والفرد يستعيض عن خيبته النرجسية بإحساس القوة المرتبط بدور المحسن الاجتماعى بينما يستحيل الشعور السلبى بالحرمان إلى عمل إيجابى هو توفير السعادة للغير »[3]. كذلك يصبح التسامى وسيلة أخرى لتغيير وجهة العدوان ، لا سيما إذا كان فى نشاط الجماعة تشجيع على هذا التطور.

العناصر المهددة للروح المعنوى

من عوامل تقوية الروح المعنوى فى الجماعة ، غلبة المشاعر الإيجابية وغياب أو تعطل السلبى منها . ولكن لنذكر تمييز « فرويد » بين مختلف درجات

---

(١) Freud, A., *The Ego and the mechanisms of defense*, p. 133.

(٢) *Ibid.*, p. 141.

(٣) *Ibid.*, p. 146.

المشاعر الإيجابية (الحب) من حيث تأثيرها فى الروح المعنوى الجماعى . فالإفراط فى التعبير الجنسى المباشر ، داخل نطاق الجماعة ، يؤدى إلى تأثير عكسى ، كما بينا فى الفصل الثالث . (والمثل يقال عن الدوافع العدوانية المفرطة) .

ول « فرويد » ملاحظات طريفة عن انحلال الجماعات بتأثير الذعر الذى يتملكها . يقول إن العامل الأول فيه هو انقطاع الأواصر اللبيدية وليس ، كما يقول البعض ، درجة الخطر الخارجى أو الصراع الذى تواجهه الجماعة . « فمن طبيعة الذعر أنه منعدم الصلة بالخطر المحدق بالفرد ، فهو يظهر فجأة فى أتفه المناسبات . والفرد المذعور لا يأبه إلا بمصيره ، وفى هذا دليل على اختفاء الروابط اللبيدية التى هونت من شأن الخطر الذى كان يتهدد الجماعة . . . فالذعر يستلزم إذن تحلل بناء الجماعة اللبيدى ، وهو استجابة متفقة وهذا التحلل . لهذا يمكن تفنيد النظرية المضادة القائلة بانفصال عرى الجماعة نتيجة للذعر الناشئ عن مجابهة الخطر » [1]. غير أن « فرويد » يعترف بأن الذعر إذا ظهر ، قد ينتشر بسرعة عن طريق العدوى الانفعالية . وقد وجد ، فى حالة زمرة من الجنود ، « أن فقدان القائد بالمعنى الحرفى أو المجازى ، ومولد الشك فى قدره ، يفضيان إلى ظهور الفزع ، رغم بقاء الخطر كما كان من قبل ؛ والروابط المتبادلة بين أعضاء الجماعة تختفى باختفاء روابطهم بالقائد » [2].

وتتطلب العلاقات الجماعية الناضجة ، أن يكون الفرد قادراً على التخلى عن بعض رغباته على الأقل، أو التخلى عن جزء من إنيته لخير المجموع . وقد عرضنا بالنقاش فى فصل سابق للعوامل التكوينية التى تساعد أو تعطل هذه القدرة . فالإفراط فى العكوف على الذات والمبالغة فى التنافس ، يسببان تصدع بنيان الجماعة . ويرتأى « فرويد » أن هذا المسلك الأنانى — حب الذات

(١) Freud, S., *Group psychology and the analysis of the Ego*, pp. 46-47.

(٢) *Ibid.*, p. 49.

بدلا من حب الغير – يميز الجماعات إبان انحلالها ، فى مثل هذه الجماعات قد يظهر الأفراد تنافساً شديداً حول موضوعات لم تكن تستهويهم والروح المعنوى الجماعى فى أوجه . وفضلا عن هذا كله ، فقد تنفجر الدوافع العدوانية التى كانت الروابط اللبيدية تمنعها من الظهور .

وثمة عنصر آخر يؤثر فى روح الجماعة المعنوى ، هو مساواة القائد بين أعضاء الجماعة فى المعاملة . وذلك لأن الشعور بانحيازه أو بأنه يؤثر البعض على البعض الآخر ، مثير للغيرة الهدامة ، كما سبقت إلى ذلك الإشارة .

ومن البين أن المرضى من الأفراد الذين يسلكون مسلكاً عدوانياً أنانياً ، يزيدون الصراع الجماعى حدة والتهاباً . ذلك لأنهم يسقطون على المواقف الجماعية مختلف المشكلات الشخصية . هذه المشكلات قد تكون شعورية كما هى حال مشكلات الفرد ودنيا الواقع ، أو لاشعورية ، كما هو شأن المشكلات التى تنشأ « بين الهو والأنا والأنا الأعلى ، والمشكلات التى تخلقها الطاقة اللبيدية بسبب تكويننا الجنسى الثنائى ، والمشكلات التى تقوم بين العناصر الغرزية الشبقية والعدوانية »[1]. ويخرج عن نطاق هذا الكتاب تفصيل الكلام فى هذه الاستجابات المرضية أو طرق علاجها . وسوف نرى فيما بعد أن لانعدام الاستجابات المرضية واتزان شخصية أفراد الجماعة ، أثراً هاماً فى نمو الجماعة واطراد بقائها .

العوامل الفردية والجماعية

إذا حللنا صراعاً جماعياً إلى عناصره ، لا تضح لنا وجود عاملين مختلفين . فهناك أولا شخصيات فردية متفاعلة ، وهناك ثانياً الجماعة بوصفها كلاً ديناميًّا مستقلاً ، له جوّه وروحه المميزان ، وقدرته على التأثير فى عناصره تأثيراً عميقاً .

هذا التأثير هو أول ما أبرزه « فرويد » فى نظرته للجماعات ، مهملا دور الفرد فى تأثيره فى الجماعة ككل . غير أن « سلافسون » و « رديل » قد فصلا

(١) Freud, S., *Collectep Papers*, vol. V, p. 251.

النظر فى كل من هذين العاملين . يميز « رديل » بين الاضطرابات الفردية التى تخلق المشاكل الجماعية وبين ما يسمونه باسم « العناصر السيكولوجية الجماعية »[1] فقد لا يقصر الفرد على التأثير فى غيره من الأفراد ، بل قد يتعداهم إلى نمط السلوك فى الجماعة برمتها وهو ما يتضح من مثال العدوى الانفعالية الذى أوردناه فى تصدير هذا الكتاب . ومن جهة أخرى ، قد يفضى أى تغيير فى العناصر الجماعية ، مثل الجو والجماعات الداخلية وقانون الجماعة ، إلى التأثير فى الأفراد أنفسهم ، بحيث قد يسلك الأسوياء من الأفراد فى الجماعة مسلكاً مرضياً ، نتيجة لما يحدث فيها من قلاقل .

وقد حصر « رديل »[2] بعض العناصر الجماعية المقومة للروح المعنوى فى الجماعة ، ومن بينها التبرم ببرنامجها . فإذا كان هذا البرنامج عاجزاً عن إرضاء حاجات الغالبية العظمى من أعضائها ، ظهر بينهم الملل وعدم الاستقرار والخصومة . وثمة مصدر آخر للصعاب ، هو اضطراب جو الجماعة أو اختلال العلاقات بين أفرادها . ويحدث هذا خاصة إذا ما عملت الجماعات الداخلية أو الزمر بما يتعارض وأهداف الجماعة الكبرى . ثم إن هناك مسائل ضعف طرق القيادة والعجز عن توفير من يقوم بأدوار الجماعة الضرورية وأخطاء تأليف الجماعة على وجه العموم ، كذلك قد تكون التغيرات المباغتة التى تطرأ على القيادة أو على الخطط الجماعية (كما هى الحال فى مثال الرحلة الملغاة التى أتى ذكرها فى التصدير) مصدراً من مصادر التوتر الانفعالى .

ولا يمكن أن نبالغ فى أهمية التجمع ذاته ، أى أهمية الوصول إلى التأليف بين مختلف الشخصيات بما يحقق نمو الفرد والجماعة . ذلك لأن قدراً كبيراً من مشكلات نقص النظام يرجع إلى فساد تكوين الجماعة . يقول « مونى — كيرل » : « إن ثبات الجماعة أو عدم ثباتها ، يتوقف فى النهاية على تناسق أعضائها أو عدم

(١) Redl, F., "Group psychological elements in discipline problems", *American journal of orthopsychiatry*, X. 111, 1943, pp. 77-81.

(٢) Sheviakov, G.V., Redl, F., *Discipline for today's children and youth*, pp. 44-58.

تناسقهم . والأفراد يجنحون إلى أن يكون لهم القادة الجديرون بهم »[١]. وقد ناقش «سلافسون »مشكلة التجمع فى الجماعات العلاجية مناقشة تفصيلية »[٢] . وينطبق الكثير من مفاهيمه على الجماعات التلقائية أيضاً .

وهكذا يتبين لنا كيف يرتد بعض أنواع الصراع فى الجماعات إلى عوامل فردية أو سيكولوجية جماعية ، أو إلى مزيج من الاثنين .

بعض جوانب الصراع بين الجماعات

يعترف « فرويد » بأن الصراع بين الجماعات أكثر انتشاراً وأعصى على الحل من الصراع داخل الجماعة الواحدة . وذلك لأن من المستطاع تحويل الدوافع العدوانية الجماعية إلى خارج الجماعة . فمن الأيسر أن يكره المرء من لا ينتسب إلى جماعته . ويقول « شيلدر » بأن الحب الذى يربط بين الناس « لا يزال مستتراً وراء الخوف الذى يحسه الناس من عدوان الآخرين . ومن وظائف المجتمع ، على ما يلوح ، تخفيف عبء الخوف من العداء المتبادل وتحويل هذا العداء إلى الجماعات الخارجية »[٣]. ويؤكد عالم النفس الاجتماعى « يونج » ، أن كل صراع بين جماعة داخلية وجماعة خارجية ، يثير فى نفوس الأفراد اتجاهات ومشاعر لاشعورية ، ويوجهها إلى الجماعة الخارجية[٤].

ومن المعروف أن كل شعب يعتبر عاداته وقيمه وأنماط سلوكه أسمى من عادات الجماعات الأخرى وقيمها وأنماط سلوكها . وهو ما يعرف بظاهرة « المركزية الجماعية » ، التى تبدأ بمبالغة الفرد فى تقديره لأسرته . فأفراد الأسرة يتغنون أمام الغير بفضائلها حتى إذا كانت العداوات قد مزقت شملهم .

---

(١) Money-Kyrle, R., "Varieties of group formation", *op. cit.*, p. 319.

(٢) Slavson, S.R., *An introduction to group therapy*, pp. 119-136.

(٣) Schilder, P., "Introductory remarks on groups", *op. cit.*, p. 87.

(٤) Young, K. *Social psychology*, p. 524.

ويمكن القول بأنه كلما قوى عند الفرد الشعور بالجماعة ، صعب عليه تقييم جماعته تقييماً موضوعيًّا . ويلمح « فرويد » إلى أن « المركزية الجماعية » قد تكون امتداداً لنرجسية الفرد وتعبيراً عن مقاومة الفرد للتغير . يقول : « قد يكون فى نفور الناس من الغرباء وكراهيتهم إياهم ، صور من صور حب الذات أو النرجسية . وحب الذات هذا عامل من عوامل توكيد الذات ، وهو ما يجعل الفرد يعتقد أن أى انحراف عن الخط الذى اختطه لنفسه فى تطوره ، ينطوى على نقد له ومطالبته بتعديله »[١] . كذلك يبين « فرويد » ، مستعيناً بمثال الجماعة الدينية ، أن شدة الروابط الابيدية لا تمنع من وجود المشاعر السالبة نحو « من لا تشملهم هذه الروابط . فلا بد للدين ، وإن دعا نفسه بدين الحب ، أن يكون قاسياً على من لا ينتمى إليه ، غير محب له »[٢].

ويرتأى « فرويد » أن تضاؤل سيطرة الدين على المجتمع الحديث خففت من حدة التعصب الدينى . ويستطرد قائلا : « إذا حلت روابط جماعية جديدة محل الروابط الدينية — وهذا هو شأن الروابط الاشتراكية — فسيظهر نفس التعصب الذى ظهر إبان الحروب الصليبية نحو المارقين »[٣].

زاد الاهتمام أخيراً بدراسة العناصر السيكولوجية المسئولة عما يحدث فى الجماعة من توترات . من هذه الناحية يحلل « رديل » ، ما يسميه « بحيل الدفاع السيكولوجية الجماعية » التى تتكشف عنها العلاقة بين زمر الجانحين وغيرهم من الناس . تتميز هذه الجماعات بأنها لا تفتأ أن تقطع كل ما يربطها بالجماعات الأخرى من روابط . وقد تطلب الزمرة من أفرادها أن يكفوا عن أى اتصال بالغير ، لأنها ترى فى هذا الغير « جماعة ذات قانون خطير ، يجب رفضه ومناهضته » . وهم يتصورون هذا الغير على شكل رتيب غريب ، باعتباره كائنات مجردة من الصفات الذاتية المميزة . كذلك قد يحرم على أفراد الزمرة

---

(١) Freud, S., *Group psychology and the analysis of the Ego*, pp. 55-56.

(٢) Ibid., p. 51.

(٣) *Ibid.*

أن يأخذوا بالمعايير التى قد تتعارض ومعايير الجماعة أدنى تعارض . وقد تكون هذه الحيل من القوة بحيث « يخضع مسلك الجانحين من الأحداث لمعايير جماعتهم ، حتى إذا انتقلوا إلى جماعات أخرى »[١]. والشبه واضح بين هذه العمليات السابقة الذكر والوسائل التى يلجأ إليها طغاة الحكام أو دعاة التعصب . ويمضى « كريس » إلى حد مقارنة بعض أساليب زعماء العصابات بالأساليب التى اتبعها « هتلر » وزمرته ، وهو يشير إلى « العهد » الذى يقطعه « هتلر » على أتباعه للحيلولة دون خيانتهم إياه . ويتضمن هذا العهد وعداً بأن تسهر الجماعة على حماية الفرد ، ووعيداً بالقصاص إذا أخاف الفرد الوعد . ويرتأى « كريس » أن القادة النازيين ، على إثر إدانة الأمم المتحدة إياهم ، قد لجأوا لمثل هذه الحجج لتقوية سيطرتهم على الشعب الألمانى[٢].

ومن أهم عناصر تقوية الشعور بالجماعة ، وجود أخطار خارجية ، فعلية أو متوهمة . فلا عجب إذا لجأ القادة — منذ بدء التاريخ — إلى اختلاق هجمة خارجية ، بغية تدعيم الوحدة القومية وتوطيد سلطانهم على الشعب . وقد أدرك « فرويد » أن تهديداً خارجياً مقروناً بمشاعر العداء ، قد يصبح النواة التى تتكون الجماعة حولها . يقول : « قد يكون لكراهية شخص أو نظام معين تأثير موحد للجماعة ، وقد تؤدى هذه الكراهية إلى نفس الروابط الانفعالية التى تميز التعلق الإيجابى »[٣]. غير أن الجماعة القائمة على هذه النوازع السالبة ، لا تكون فى قوة وبقاء جماعة تغلب عليها النوازع الإيجابية .

فى مقال عن الحروب ، يقترح « فرويد » وسيلتين لتجنبها : إنشاء هيئة دولية لها أن تستعين بالقوة فى منع العدوان ، واتخاذ إجراءات طويلة المدى ترمى إلى تنمية الروابط الوجدانية بين الأمم . فقد تمنع الروابط الليبيدية ، إذا ما

---

(١) Redl, F., "The psychology of gang formation and the treatment of juvenile delinquents" in *The psychoanalytic Study of the child*, I, 1945, p. 374.

(٢) Kris, E., "The covenant of the gangsters", *Journal of criminal psychopathology*, IV, 1943, pp. 445-458.

(٣) Freud, S., *Group psychology and the analysis of the Ego*, p. 53.

وجدت بين الأمم ، الإفصاح عن الدوافع العدوانية المدمرة . وذلك لأن « ترياق الحب هو كل ما يربط ربطاً عاطفياً بين إنسان وآخر ؛ وكل ما يبرز القسمات المشتركة بين البشر ، يؤدى إلى التوحد وهو الأساس الذى يقوم عليه إلى حد بعيد ، بناء المجتمع الإنسانى برمته»[١]. كذلك يعتقد « فرويد » أنه قد لا يكون من الضرورى أن يلجأ المرء فى نفس الآن إلى الطريقتين السالفتى الذكر – أى استخدام السلطة الضابطة والتوحد الواسع النطاق . « فإذا تعطل فعل أحد هذين العاملين ، لكفى الآخر فى لم شعث الجماعة . ولكن هذه المفاهيم تكون مجردة من كل معنى ، إذا لم تكن تعبيراً عن إحساس بالوحدة ، بعيد الغور ، يشارك فيه الجميع »[٢].

(١) Freud, S., "Why war", in *Civilization, war and death*, p. 94.

(٢) *Ibid.*, p. 89.

الجزء الثاني

نتائج وتطبيقات

الفصل السادس

المفاهيم الفرويدية الخاصة بالعلاقات الجماعية ـ تلخيص

معنى السلوك

يرى التحليل النفسى أن الظواهر النفسية تنتج عن تفاعل مجموعتين من القوى هى الدوافع البيولوجية النفسية (اللبيدو والعدوان) ، وانطباعات البيئة المحيطة فى الكائن العضوى . وتسبب المنبهات الداخلية أو الخارجية حالات من التوتر ، فيحاول الكائن العضوى أن يستعيد مستوى التوازن البيولوجى النفسى السابق ، عن طريق التصريف الحركى للتوتر المفرط . ولكن ثمة قوى عكسية فى فى الفرد أو فى البيئة ـ العوائق السيكولوجية ـ تحول دون هذا التصريف المباشر . فأساس النشاط النفسى ، فى سيكولوجية « فرويد » ، هو التفاعل بين الدوافع التى تستهدف تصريف التوتر والقوى التى تجنح إلى تعطيلها أو إرجائها (مقتضيات الواقع الخارجى ومعايير السلوك المستبطنة) .

ويمثل السلوك ، من وجهة نظر الفرد ، أفضل توفيق توصل إليه بين الدوافع والحاجات الداخلية وبين القوى المعطلة . وتتميز حياة الإنسان بحرمان وصراع لا بد منهما . وقد يكون الصراع بين النوازع النفسية والواقع الاجتماعى . كما قد يكون بين الحاجات الباطنة المتعارضة . فالاستجابة السلوكية على منبه معين تخضع لعوامل عديدة . وبعبارة تحليلية نقول : إن السلوك محاولة يقوم بها الأنا للتهادن مع قوى الهو والواقع الطبيعى والاجتماعى والأنا الأعلى . ويقتضى النمو السوى لدى الفرد ذاتاً قوية قادرة على تنسيق الأهداف التى يستهدفها كل من الدوافع والشعور والواقع .

وبناء على ما تقدم ، تدل الشخصية على أنماط السلوك المميزة النسبية الثبات ، التى نمت وتطورت بنمو الفرد وتطوره . فهى نتيجة لتفاعل الدوافع الأساسية

والقوى المعطلة التى لا تنفصل عن جبلة الكائن العضوى، فإذا نظرنا إلى الشخصية على هذا النحو، لتبين لنا أنها وظيفة من وظائف الأنا، وظيفة «لذلك الجزء من الكائن العضوى الذى يتولى التوفيق بين مطالب الغرائز والعالم الخارجى»[١].
ويعرف «فنيكل» الشخصية (وهى فى نظره مرادفة للخلق) بأنها «الضروب المعتادة لتوافق الأنا مع العالم الخارجى والهو والهو الأعلى، والأنماط المميزة للتأليف بين هذه الضروب»[٢].

وليست الشخصية نتاجاً للبيئة الحاضرة فحسب، وإنما هى نتاج للمواقف الماضية العديدة التى تعين على الفرد أن يتوافق معها. وهكذا تصبح دراسة فرد ما، فى نقطة من نقاط تطوره، ومن جهة نظر التحليل النفسى، عملية معقدة، تتضمن النظر فى أنماط السلوك الحالية (ضروب التوافق) بالنسبة لبيئة ما، وتفهم متى نشأت هذه الأنماط فى تاريخ الفرد، ولم نشأت وكيف نشأت؟. فالتشخيص الشامل للشخصية يستعين إذن بالمفهومات الدينامية (الأفقية) والمفهومات التكوينية (الرأسية). وفى سيكولوجية «فرويد»، تتناول المفهومات الدينامية «تفاعل القوى وتصارعها داخل الفرد، واستجاباتها على العالم الخارجى فى لحظة معينة أو خلال فترات وجيزة من الزمن» أما المفهومات التكوينية «فتصف كيف نشأت حالة معينة عن ماضى الفرد وكيف استمرت خلال حياته»[٣] وما هو واحد فى السلوك قد يكون راجعاً إلى علل مختلفة، على أساس دراسة أنماط السلوك الظاهرة دراسة تاريخية. ذلك لأن «القضايا التكوينية وحدها هى التى تبرز الدوافع التى تستتر خلف دقيقة من دقائق السلوك. فتظهر وجهتها وشدتها وعلاقاتها المتبادلة»[٤].

(١) Fenichel, O., *The psychoanalytic theory of neurosis*, p. 467.

(٢) *Ibid.*

(٣) Hartman, H., Kris, E., "The genctic approach in psychoanalysis", *The psychoanalytic study of the child*, I, 1945, p. 11.

(٤) *Ibid.*, p. 19.

ويرى التحليل النفسى أن معنى السلوك السالف التحديد ، يصدق على كافة المواقف ، الفردى منها والجماعى . فالسلوك الجماعى ، بمعناه الدقيق ، هو سلوك أفراد يتفاعلون تفاعلا اجتماعياً ووجدانياً معيناً . وقد بينا فيما قبل ، أن لا محل لمفهوم « العقل الجماعى » ، باعتباره مميزاً عن عقول أفراد الجماعة بيد أن هذا لا يعنى أن الجماعات لا تدرك ككل سيكولوجى ذى خصائص دينامية مثل التنظيم والبناء والمثل العليا والأجواء ، ولكنها صفات تنشأ عن تفاعل الأفراد الذين يؤلفون الجماعة . وقد توسع فى دراسة هذه الناحية بعض الكتاب المعاصرين أمثال « إريكسون » و « رديل » و « سلافسون » .

ونظراً لعدم وجود ثنائية بين علمى النفس الفردى والجماعى ، فقد استعان « فرويد » وغيره بالكثير من مفاهيم علم النفس الفردى لوصف سلوك الأفراد فى المواقف الجماعية .

التوجيه البيولوجى والاجتماعى للمفاهيم الفرويدية

علم الحياة هو الأصل الذى تفرعت عنه المفاهيم السيكولوجية عند « فرويد » . وينبئ « فرويد » بوقت مستقبل يفضى فيه البحث إلى استبدال المفاهيم السيكولوجية الخالصة بمفاهيم بيولوجية[1] . وقد أشرنا إلى أن بعض الكتاب يعتبر التحليل النفسى فرعاً من فروع علم الحياة . غير أن « فرويد » ومريديه لم يروا أن ثمة تناقضاً بين الحاجات البيولوجية والاجتماعية .

ويعرض « فنيكل » موقف « فرويد » من العلاقة بين المؤثرات الحيوية النفسية والاجتماعية الحضارية فى حياة الإنسان ، يقول : تدل البينات جميعاً على افتقار الإنسان إلى الروابط الاجتماعية فى إشباع حاجاته الرئيسية . « والعلاقات الاجتماعية لا تكوّن الأفراد ، إلا لأن للإنسان بناء بيولوجياً معيناً »[2] . ويرتأى

(١) Freud S., *Jenseits des Lustprinzips*, p. 87.

(٢) Fenichel, O., "Psychoanalytic remarks on Fromm's Book 'Escape from Freedom' ", *The psychoanalytic review*, XXXI, 1944, p. 139.

« فينكل » أن التجربة الكلينيكية تدلل على أن حاجات الفرد ، وإن تغيرت بتغير البيئة الاجتماعية ، هى مظاهر مختلفة لنفس الدوافع البيولوجية القديمة . يقول . « إن الحاجات الغرزية هى المادة الخام التى تشكلها المؤثرات الاجتماعية ؛ ومهمة علم الاجتماع التحليلى هى دراسة التشكيل دراسة مفصلة . . . فالخبرة ، أى الأحوال الحضارية ، هى التى تخرج الممكن إلى حيز الواقع ، وهى التى تشكل بناء الإنسان النفسى ، وذلك عن طريق توجيه المطالب الغرزية وجهة جديدة ، وتحبيذ بعضها وتعطيل بعضها الآخر ، بل عن طريق تقليب بعض هذه المطالب على بعضها الآخر »[١].

ومن هذه الناحية ، ينتج تعدد الأدوار التى يؤديها الناس فى مختلف مواقف الحياة ، عن التفاعل الدينامى بين القوى الداخلية والخارجية . هذه الأدوار هى أنواع متميزة من السلوك ، مشروطة بالحاجات الفردية وبطبيعة الموقف الجماعى المعين .

ويشير « أريكسون » إلى أهمية التوفيق بين المؤثرات الحضارية ودرجة نمو الأنا الفردى ، « فتكامل وحدة الأنا ووحدة الجماعة ، تضع تحت تصرف وظيفة الأنا التركيبية والنظام الاجتماعى قدراً أكبر من الطاقة المشتركة »[٢].

نمو الاتجاهات الاجتماعية

تنمو الاتجاهات الاجتماعية والقدرة على الارتباط بالغير فى سياق نمو الشخصية . والطفل وإن ولد فى أسرة هى جماعته الأولى ، إلا أنه لا يكون عضواً حقيقياً فيها . ذلك لأن من المعتقد أن الطفل يولد بغير أنا . « والكائن الإنسانى يصبح كائناً إنسانياً (ذاتاً أو أنا) بدخوله فى علاقات متبادلة مع

---

(١) Fenichel, O., *Thre psychoanalytic theory of neurosis*, p. 588.

(٢) Erikson, E.H., "Ego development and historical change", *The psychoanalytic study of the Child*, II, 1947, p. 364.

غيره من الكائنات الإنسانية »[١]. وينبغى على الطفل أن ينمى فى نفسه القدرة على إدراك دوره وأدوار غيره ، وبذل نفسه وجدانيًّا والتحكم فى نزواته . ويكون هذا النمو بانتقال الأنا من مرحلة النرجسية الأولى إلى مرحلة حب الموضوعات الحقيقى ، وهو يتم على أساس التوحد عن طريق الإدماج والروابط المزدوجة بالموضوعات. ولا تختفى الصورة الأولى من الروابط الموضوعية مثل ازدواج العواطف بل تظل باقية إلى حد ما ، حتى لدى الأسوياء من الناس .

وتنص نظرية « فرويد » على أن المشاعر الاجتماعية والصداقة والتودد ، كلها صور من الدوافع اللبيدية المعطلة الأهداف . هذه الدوافع اللبيدية – مضافاً إليها دوافع العدوان المعطلة الأهداف – هى التى تميز العلاقات العائلية وهى التى تحيذ – فيما بعد – تكوين الجماعات خارج نطاق الأسرة . وتحوّل الحاجات الحيوية النفسية (الحب والعدوان) على هذا النحو ، نتاج لعملية اجتماعية . ومن الملاحظ فى هذا المقام ، كما يقول « ميرفى » ، و « ميرفى » و « نيوكوم » أننا إذا استثنينا نظرية «فرويد» فى تطور اللبيدو «لما وجدنا إلا عدداً ضئيلا من الفروض التى تسمح بتفسير نمو عواطف الود والحب»[٢].

القدرة على إقامة الروابط الجماعية

يجنح الأفراد إلى تحويل الاتجاهات التى نشأت داخل الأسرة إلى المواقف الجماعية اللاحقة . كذلك قد تصبح الجماعات رمزاً للأسرة ، لا سيما إذا كانت تتيح لأعضائها الاتصال المباشر بعضهم ببعض ، وتقوم على إشباع حاجاتهم المنوعة . إذ ذاك يقوم القائد لاشعوريًّا بدور الوالد ، ويلعب باقى الأفراد أدوار الإخوة .

---

(١) Fenichel, O., "Psychoanalytic remarks on Fromm's Book 'Escape from Freedom' ", *The psychoanalytic review*, XXXI, 1944, p. 139.

(٢) Murphy, G., Murphy, L.B., and Newcomb, T.M., *Experimental social psychology*, p. 514.

وتعين خبرات الفرد الأولى ، إلى حد كبير ، مقدار تعاونه مع الغير ونوع هذا التعاون . وهكذا تتأثر العلاقات الاجتماعية اللاحقة بالنحو السوى للأنا الفرد ، أى بانتقاله من النرجسية إلى مرحلة الروابط الموضوعية ، وانعدام القلق انعداماً نسبياً ، والنجاح فى معالجة نوازع العدوان وحاجات الاعتماد ، وغنى عن البيان أن العوامل الجماعية الخاصة وتكوين الجماعة وأجوائها ومعاييرها قد تزيد أو تنقص من قيمة العوامل المذكورة ، وهناك من يعتزل حياة الجماعة لعجزه عن تحمل آثار العمليات الجماعية ، وهناك من يجنح إلى تعويض جو الجماعة للأخطار من جراء مرضه النفسى . بل إن هناك من يستخدم الجماعة لكى يحجب من نفسه وغيره عجزه عن التكيف . أما بالنسبة للفرد ، فينطوى الانتساب للجماعة على فقدانه بعض الاستقلال والإنية الشخصية . والنزول إلى الغير عن الرغبات الشخصية يتطلب قدرة على تحمل الحرمان وإمكان الإشباع البديل داخل نطاق الجماعة .

العمليات الانفعالية فى الجماعة

تنصب نظرية « فرويد » فى تكوّن الجماعات على دراسة العناصر الانفعالية اللاشعورية ، وهو يرتأى أن الجماعة السيكولوجية قد تتألف من فردين أو أكثر ، بشرط أن يكونا قد اتخذا لنفسهما نفس النموذج (القائد) ونفس المثل العليا (الأنا الأعلى) ، ومن ثمة قد توحد أحدهما بالآخر . ويسلم « رديل » أن الجماعة يتم تكوينها إذا ما استخدم بعض الأفراد موضوعاً بعينه للتنفيس عن حب الجماعة إياه أو خوفها منه ، أى بوصفه موضوعاً لدوافع الحب ودوافع العدوان . وتظهر الروابط الوجدانية بين الأفراد نتيجة لهذه الروابط المشتركة بالقائد . ويرجع « مونى – كيرل » تكوّن الجماعة إلى وجود رموز مشتركة لعائلة متوهمة فى أخيلة الأفراد اللاشعورية .

هذه المبادئ لا تتناول بالطبع إلا العناصر الذاتية العميقة التى تدخل فى العلاقات الاجتماعية . وهكذا ينبه « فينكل » إلى أن « علم النفس الاجتماعى

لا يكتفى ألبتة بدرس ما يحدث فى نفوس الأفراد حين تتكون الجماعات ، ولا بدرس كيف تعمل هذه الجماعات . وإنما يتعين عليه أيضاً أن يواجه وأن يحل مشاكل ذات طبيعة مختلفة كل الاختلاف ، مشاكل الجماعات الموضوعية لا الذاتية فحسب . مشكلات الآثار المماثلة التى تتركها المنبهات المماثلة فى نفوس أفراد مختلفين »[1].

وتفترض نظرية « فرويد » ضمناً أن الجماعات كلها تشترك فى نفس الديناميات . فظواهر الجمهرة مثلا لا تختلف إلا فى الدرجة عن الجماعات الدائمة المنظمة . ففى الأولى يكون الفرد أكثر تعرضاً للإيحاء وقوى النكوص ، فضلا عن فقدانه إنيته الفردية .

وقد عارض « فرويد » تفسير العمليات الجماعية على أساس الإيحاء وحده ، كما كانت الحال فى معظم كتابات معاصريه من علماء الاجتماع . وقد وضع مفهوم اللبيدو ، ويقصد به قوى الجذب الوجدانية ، باعتباره الدافع المسئول عن تغيير مسلك الفرد فى الجماعة . وقد ساعدت تحليلات « رديل » و « سلافسون » على التوسع فى الأفكار الخاصة بالعمليات الجماعية الوجدانية . فالعدوى والحث المتبادل يرجعان إلى عناصر شخصية فردية وظروف جماعية معينة . ويدخل « رديل » فى هذا المجال ، عنصر الفعل المبادئ بوصفه وسيلة تخف بها — لدى التابعين — وطأة القوى المعطلة فى الشخصية (الأنا الأعلى) ، لصالح التعبير عن الرغبات (الهو) دون وخز ضمير .

ويسهل فى الجماعات الإفصاح عن الاتجاهات أو السلوك النكوصى ، وتختلف درجة هذه الظواهر وفقاً لمختلف العوامل مثل الجو الجماعى وثبات الجماعة وتقلقلها الانفعاليين ، واتزانها الذى تحدده أنماط سلوك أعضائها وشخصياتهم . غير أن مثل هذا النكوص ليس مرضياً بالضرورة ، بل قد يكون على الضد ، مظهراً من مظاهر الصحة العقلية ووسيلة من وسائل العلاج . مثال ذلك ، إذا ما خفت وطأة القوى المعطلة فى الشخصية (الأنا الأعلى) ،

(١) Fenichel, O., *The psychoanalytic theory of neurosis*, p. 87.

ظهرت الدوافع المكبوتة فى صورة طليقة . هذه الدوافع قد تشتمل على رغبات لم تشبع فى الحب أو العدوان أو الاستقلال . فإذا كان جو الجماعة متسامحاً ، قل شعور الفرد بالقلق وقلت حاجته إلى التعلق بأنماط سلوكه الدفاعية .

وليس يقصر تأثير الجماعات على النكوص الانفعالى ؛ فللجماعات نتائج إنشائية ، تساعد على نمو الشخصية (والعلاج النفسى) ، إذا أحسن استغلالها : من بين هذه النتائج :

١ – الشعور بالانتساب للجماعة و بمكانة المرء فيها ؛

٢ – وقاية الفرد من الأخطار الحقيقية أو المتوهمة ؛

٣ – زيادة احترام الذات ؛

٤ – تخفيف حدة الحيل الدفاعية وتوفير فرصة مواجهتها بالواقع ؛

٥ – توفير الشروط الملائمة لتسامى الدوافع الرئيسية ؛

٦ – كبح جماح الرغبات الطفلية والمسلك الطفلى ، واعتناق الفرد معايير الجماعة مقابل ما يلقاه منها من حب وحماية ؛

٧ – توجيه العدوان المفرط نحو الشرور الواقعية ، واستخدامه فى أغراض ضبط النفس والدفاع عنها .

وثمة بالطبع صعاب ، لا بأس من الإشارة إلى بعضها ، تعترض استخدام الجماعة استخداماً متعمداً فى إنماء الشخصية . فهناك أولا خطر الإفراط فى النكوص ، ومشكلة حماية الأعضاء ومعاونتهم ، دون تشجيع اعتمادهم على الغير اعتماداً مفرطاً . وثمة مهمة دقيقة ، هى مساعدة أفراد معينين ، دون المبالغة فى التدخل فى العمليات الجماعية التلقائية وفى حاجات الغير . وكيف يمكن التأليف بين الأفراد على أحسن وجه، وخلق جو جماعى يتحمله المرضى النفسيون دون أن يتأثروا به تأثيراً مضاداً ؟ تلك هى بعض الصعاب التى يواجهها المرء حين يتعقب تعقباً تلقائياً كلا من الاستجابات الفردية والعمليات الجماعية، وذلك لأن كلا منها يؤثر فى الآخر .

قوى التماسك والانقسام

تتميز شبكة العلاقات المتبادلة بين أفراد الجماعة بتفاعل القوى الموجبة التى تدعم تماسك الجماعة ، والقوى السالبة التى تجنح إلى إضعافه .

والعلاقات الموجبة تتألف من مختلف أنواع التوحد والروابط اللبيدية بالموضوعات ، وهى تكون على درجات متفاوتة من الشدة . والمعتقد أن أكثر أنواع التوحد ذيوعاً فى العلاقات الجماعية ، هى :

١ — التوحد « الأولى » بشخص (أو بجماعة) هى محل إعجاب الفرد ؛

٢ — التوحد بالند (أو بجماعة من الأنداد) يطمع الفرد فى الحلول محلهم ؛

٣ — التوحد بالفرد (أو بالجماعة) على أساس الاشتراك فى نفس الاختيار الموضوعى أو فى صفة أو اهتمام واحد .

٤ — التوحد بالفرد (أو بجماعة من الناس) لهم نفس الحاجات الأساسية .

وهناك أيضاً التوحد الثانوى بأنواعه ، مثل التوحد « الثانوى» — الذى يرمى إلى حل الروابط غير المرضية بالموضوعات — و « التوحد بالمعتدى» — وهو وسيلة للتغلب على الخوف . ثم إن الروابط بالموضوعات قد تكون نرجسية أو بديلة أو حقيقية ، بحسب درجة النكوص الذى تهيئه جماعة ما وبحسب نضج شخصيات أفرادها .

أما القوى السلبية فى الجماعة فتشمل أنواع النفور والضغينة والخوف والحقد . فقلما تكون مواقف الأفراد من بعضهم أو من قائدهم موجبة خالصة .

وكل رابطة تربط شخصين هى ، فى رأى « فرويد » ، مزيج متفاوت الدرجات من الحب والبغض .

ومن ثمة يمكن أن نميز فى جماعة ما :

١ — الروابط الموجبة والسالبة بالموضوعات (الحب أو الكراهية) .

٢ — التوحدات الموجبة والسالبة (أساس الأولى الإعجاب والثانية الخوف من الموضوع) .

٣ — التحويلات الموجبة والسالبة .

وتقدم الجماعة ، بل وجودها نفسه فى بعض الأحيان . مشروط بغلبة القوى الموجبة الموحدة على القوى السلبية المفرقة .

ولما كانت الروابط الجماعية لبيدية فى المحل الأول ، جنحت إلى قمع تأثير نوازع العدوان التى تتبدى فى الجماعة . والجماعة لا تكتفى بتغيير الميول العدوانية عن طريق ربطها بالنزعات اللبيدية ؛ وإنما تلجأ الجماعة إلى وسائل أخرى للتنفيس عما يظهر بها من عداء ونفور مفرطين . وتتراوح هذه الوسائل بين التسامى من ناحية ، ونقل العدوان إلى أعداء الجماعة الحقيقيين أو المتوهمين من ناحية أخرى. ويبرع طغاة الحكام فى استخدام هذه الحيل ، فيقللون خطر الصراعات الداخلية ، ثم إن هناك ميلا شائعاً إلى تحويل المشاعر العدائية من القائد إلى أعضاء الجماعة ، بحيث يتفادى المرء على هذا النحو الاصطدام بمن يمثل دور الوالدين .

ويمكن سرد العوامل الرئيسية التالية ، المسئولة عن التماسك الاجتماعى :

١ — إشباع حاجة الأفراد إلى الحماية والأمن والحب ؛

٢ — تغلب الروابط الوجدانية الموجبة بين الأفراد ؛

٣ — الاشتراك فى المثل العليا والاهتمامات ؛

٤ — جو من العدالة والمساواة ؛

٥ — وجود طقوس ونشاط جماعى رمزى ؛

٦ — وجود أعداء مشتركين خارج الجماعة .

ومما يتهدد التماسك الجماعى ، العناصر التالية :

١ — التعبير عن الدوافع (الجنسية أو العدوانية) بدون قيد ولا شرط ؛

٢ — المبالغة فى أنانية الفرد ؛

٣ — الغيرة والتنافس المفرطان ؛

٤ — الإفراط فى الاستجابات التحويلية السالبة ؛

٥ — الإفراط فى الحرمان الناتج عن قسوة مطالب القائد أو القانون الأخلاقى الجماعى .

ويلاحظ « فرويد » أن السبب الأساسى فى الذعر الجماعى هو انفصام الروابط اللبيدية الجماعية . ومن الممكن مواجهة الأخطار الجسام ، ما بقيت هذه الروابط ؛ فإذا وهنت أصبحت أتفه الأخطار نذيراً بانفراط عقد الجماعة .

دور القائد

يرتئى « فرويد » أن العلاقة بين أفراد الجماعة والقائد تختلف باختلاف طابع الجماعة . فى الجماعات ذات القيادة الاستبدادية كما فى ظواهر الجمهرة ، يحل القائد محل الأنا الأعلى الفردى . فهو يؤدى دور سلطة داخلية جديدة ، والارتباط به هو قوة التماسك الأساسية . ولا يكون ثمة مثل عليا مشتركة بين الأعضاء وقد انتكصوا إلى حالة من الاعتماد والخنوع وفقدان الإنية الشخصية . وتحل العمليات السحرية والرمزية محل التفكير والعمل المنطقيين. أما فى الجماعات الديمقراطية ، فيقل إسقاط الأنا الأعلى على القائد ، وكذلك يقل الاعتماد عليه . ومقابل ذلك ، يزيد التوحد به (فى الأنا) كما تزيد فرص ظهور الاستجابات الفردية فى الجماعة ، بل الاستجابات النقدية أحياناً ،ويستعاض عن نقص الروابط الشخصية بالقائد ، بالمساهمة مع أفراد الجماعة فى نفس المثل العليا . كما يستبدل الإيمان بالقائد بالإيمان بمثل الجماعة العليا ونظمها. هذه المثل العليا تسمح باتصال الشعور الجماعى فى غياب القائد .

وتنجح القيادة الاستبدادية فى تدعيم سلطانها حين يكون الناس مهددين بأخطار لا حول لهم ولا قوة حيالها . اذ ذاك يظهر حنين الطفولة إلى الأمن والطمأنينة فى ظل والدين قادرين . والثمن الذى يدفعه الفرد هو الطاعة المطلقة والخنوع للسلطة . ويختلف الأفراد بالطبع فى هذا الجنوح إلى النكوص ، بيد أن النكوص يرتبط ارتباطاً وثيقاً بقرب أخطار الواقع وبقدرة الفرد على مواجهتها .

ونضج القادة يتمثل فى إحساسهم بحاجات الجماعة وبخلوهم النسبى من اضطرابات الشخصية . ويعمل مثل هؤلاء الأفراد على شغل مكانة عالية فى

الجماعة وعلى تحقيق أهداف الجماعة فى نفس الآن ، دون أن يعمدوا إلى تشجيع قوى النكوص فيها ، بغية إشباع حاجاتهم الشخصية مثلا ، أو زيادة تقديرهم لنفسهم أو التغلب على القلق والصراع الباطنيين . هذه الظروف الأخيرة ، تثبط من همة الفرد فى توكيد فرديته واستقلاله عن غيره . ولننبه على كل حال إلى أن المعايير السالفة ذات طابع عام وأنه ينبغى دراسة كل موقف معين بالنسبة لجميع المؤثرات الجماعية .

العوامل الفردية والجماعية

لكل جانب من جوانب السلوك الجماعى نوعان من العوامل القوية الارتباط :

١ — الشخصيات الفردية بخصائصها التكوينية والدينامية ؛

٢ — العناصر الجماعية ، مثل النظام والجو والقيادة ، وهى نتاج لتفاعل أعضاء الجماعة تفاعلاً ديناميًا .

وغنى عن القول أن هذه التفاعلات الدينامية قد تحدث فى المستويين الشعورى واللاشعورى . وطبيعة التفاعل فى جماعة ما قد تفهم بالرجوع إلى إحدى المجموعتين السالفتين من العوامل ، أو إلى مزيج منها ، وهى أكثر الحالات شيوعاً . فتدهور الروح المعنوى الجماعى قد يكون مرجعه أحياناً إلى المرض النفسى فى بعض الأعضاء ، وأحياناً أخرى قد تنتج نفس النتيجة عن العوامل الجماعية المضطربة مثل الجو غير الملائم ونقص البرنامج وفساد التكوين وما إلى ذلك .

الصراع بين الجماعات

الصراع داخل الجماعة أيسر حلا من الصراع بين الجماعات ، وذلك لأن هذا الأخير ينشب على أثر نقل المشاعر السالبة التى تنشأ أصلا فى سياق الحياة الجماعية . وهكذا ، يجد النقص فى الشعور الجماعى والتضامن ، علاجه فى الاصطدام المبرر أو غير المبرر بالجماعات الأخرى . وقد لجأ الحكام منذ

القدم إلى إيقاظ مشاعر الخوف من الغرباء والحقد عليهم كيما يزيدوا الجماعة تماسكاً . وقد تكون الجماعة مؤلفة فى المحل الأول على أساس من الكراهية المشتركة .

وتسوية الصراع بين الجماعات من أعصى المسائل التى يواجهها العالم . ويرتئى « فرويد » أن الوسائل البعيدة المدى التى يمكن أن تستخدم لمقاومة أمثال هذه الصراعات ، تستلزم التوسع من نطاق الجماعات حتى تشمل العالم أجمع . وإذا أمكن خلق مثل هذه الروابط اللبيدية ، لكان ثمة أساس قوى للاعتقاد بأنها سوف يكون لها نفس ما لها من تأثير فى الجماعات الصغرى .

الفصل السابع

بعض متضمنات سيكولوجية الجماعات عند « فرويد »

طبيعة المفاهيم

فى عرض أخير لمؤلفات علم النفس الاجتماعى ، يخلص « برونر » إلى أن « أكبر مشكلة يواجهها فى الوقت الحالى عالم النفس الاجتماعى هى مشكلة إنشاء نموذج نظرى دقيق، يستطيع أن يهديه فى وضع الفروض الجديدة بالتحقيق، وإحسان انتقائها»[1] . وكنا قد وضعنا نصب أعيننا مثل هذا الاعتبار حين أخذنا فى جمع المفاهيم التى يعرض لها هذا الكتاب ، وصياغتها فى إطار منطقى شامل . ونحن نأمل أنها سوف تساعد على تبديد بعض ما يكنف نظريات التحليل النفسى فى علم النفس الجماعى من تصورات خاطئة . وقد قدمنا هذه المفاهيم فى شكل فروض، آملين أنها سوف تحث الباحثين على توضيح ما غمض منها ، والتحقق من صدقها عن طريق المشاهدة المباشرة والبحث التجريبى . ذلك لأن أهم المهام التى يضطلع بها علم النفس فى رأينا ، هى وضع الفروض التى تسمح بتفهم السلوك الإنسانى والتنبؤ به .

وقد تجنبنا عن قصد ، كما أشرنا فى التصدير، مناقشة المفاهيم النشوئية النوعية الخاصة بالعلاقات الجماعية ، مثل مفهوم « العشيرة الأولية »[2]، لتعذر التحقق من صدقها ، بالمشاهدة أو التجربة ، فى الحاضر أو فى المستقبل القريب .

ونظريات التحليل النفسى فى السلوك الفردى ، رغم ضخامة حجمها ،

---

(١) Bruner, J.S., "Social psychology and group processes", *Annual review of psychology* (C.P. Stone, editor), p. 119.

(٢) Freud, S., *Group psychology and the analysis of the Ego*, pp. 90-100.

ما تزال ناقصة غير نهائية . ويقرر « فرويد » أن التحليل النفسى « يظل ، فى ميدان دراسته ، على مقربة من الوقائع جاهداً فى حل مشاكل المشاهدة المباشرة ، مستعيناً بالتجربة فى تحسس طريقه قدماً . فهو ناقص أبداً ، ومتأهب أبداً لتصحيح نظرياته أو تعديلها »(١). فإذا ما انتقلنا إلى الدراسة التحليلية للسلوك الجماعى ، تبدى المجال فسيحاً قليل الرواد ! . وكما يقول « كولمان » : « لو لم تحجم غالبية الباحثين التحليليين عن السير على آثار « فرويد » فى كتاب علم النفس الجماعى وتحليل الأنا ، لكان التحليل النفسى اليوم أكثر استعداداً لمعاونة علماء الاجتماع الذين يعملون على تشكيل عالم ما بعد الحرب تشكيلا ديموقراطياً »(٢).

ومن عوامل هذا التأخر فى دراسة العمليات الجماعية ، أن هم « فرويد » الأكبر كان منصباً على أمراض السلوك الفردى ، واهتمام المحللين النفسيين منحصراً فى الوقائع المباشرة الصلة بعلاج المرضى ، فضلا عن عدم توفر فرص مشاهدة الجماعات وهى تتفاعل ، والاعتقاد بأنه ينبغى ترك دراسة هذا الميدان لعلماء الاجتماع ، وتعقد مادة الدراسة نفسها . وقد أدت شحة المعطيات التحليلية الخاصة بالأنا ووظائفه ودوافع العدوان ، إلى تعويق دراسة السلوك الجماعى الذى تحتل فيه هذه العناصر مكان الصدراة . « ومن المفا قات أن تكون معرفتنا بالأنا الشعورى متأخرة كل هذا التأخر ، إذا قيست بمعرفتنا بالهو ولا سيما الهو الأعلى . من حيث الطبيعة والوظائف »(٣). نلمس هذا النقص على وجه التخصيص فى النواحى السطحية من الأنا ، أى فى أنماط سلوك الأنا الموجهة إلى البيئة المحيطة .

فلا غرو إن كانت قضايا علم النفس الاجتماعى لدى « فرويد » ناقصة

---

(١) Freud, S., *Collected Papers*, vol. V., p. 130.

(٢) Coleman, M.L., "An integretive approach to individual and group psychology," *The psychoanalytid review*, XXXVI, 1949, p. 389.

(٣) Alexander, F., "Development of the Ego Psychology," *Psychoanalysis today* (S. Lorand), I, 1944, p. 146.

مبعثرة لا تحيط بمجال الظواهر الجماعية كلها . يقول « فرويد » فى مقدمة كتاب علم النفس الجماعى وتحليل الأنا : « إن من يقارن صغر حجم هذا الكتيب باتساع مجال علم النفس الجماعى ، يدرك لفوره أننا لم نتناول بالدرس إلا بعض المسائل التى انتقيناها من بين مواد البحث كله . وهذه المسائل ليست إلا بعض ما تهتم به سيكولوجية الأعماق المتفرعة عن التحليل النفسى » . فمعظم المفاهيم التحليلية فى علم النفس الجماعى ترمى إلى سبر أغوار القوى والدوافع اللاشعورية التى تختفى خلف الأنماط الجماعية الظاهرة مثل التضامن والعدوى الانفعالية والقيادة والتجاذب والتنافر وجو الجماعة . أما من ناحية الفرد فى الجماعة ، فهناك محاولة لفهم نمو الاتجاهات الاجتماعية والعوامل التكوينية التى تهيئ الفرد للعلاقات الاجتماعية السليمة ، والحاجات التى تشبعها الجماعة ، والقدرة على الاستجابة لما يعترى السلوك من تغير . ولكن البحث لم يتناول الكثير من المسائل المعينة .

فالأفكار التحليلية التى تعرضنا لها حتى الآن لا تولى اهتماماً كافياً إلى النواحى الهامة فى الحياة الاجتماعية مثل أداء الأدوار وإبدالها ، والتنافس على المكانة فى الجماعة ، وتطور المعايير ، وأهمية إيديولوجيات الجماعة ، وأنماط الجماعة التنظيمية . وكل ذلك يدخل فى نطاق نشاط الأنا الشعورى .

غير أن الأمر لا يقتصر على ضيق مدى القضايا التى نعرض لها بالنقاش ؛ فهناك أيضاً مشكلة وضوح دلالاتها . ذلك لأن الكثير من المصطلحات الأساسية فى علم النفس الجماعى لا تمنع الخلط واللبس ألبتة . ولنذكر على سبيل المثال مفاهيم تعطيل الهدف والتسامى والتوحد . والحق أن هذه الصعوبات تشمل النظرية التحليلية برمتها . « فالمحللون النفسيون لا يستسيغون توضيح المصطلحات ، والاهتمام بهذا التوضيح نادر فى الكتابات التحليلية . . . وفى كتابات « فرويد » وغيره من المحللين ، نجد أن عدداً كبيراً من الفروض ضمنى غير مصرح به ، لأن جو العمل الجماعى قد جعل التصريح بها غير ضرورى ،

ولأن جدة الظواهر الكلينيكية أوحت بالتفسيرات المجملة لا التفصيلية »[١] ويعبر « الكسندر » عن اقتناعه بأن عبقرية « فرويد » هي عبقرية الملاحظ والمجدد أولا وبالذات ، وأن « فرويد » كان على وعى تام بنقائص مفاهيمه النظرية ؛ فمن ناحية ، لم يكف « فرويد » لحظة عن تحسينها وتوضيح غامضها ، ولكنه كان ، من ناحية أخرى ، يعتقد بضرورة الاحتفاظ بشيء من مرونة الصياغة ، وإلا عاقت القوالب النهائية الجذابة ، نمو هذا العلم الجديد ، غير أن « الكسندر » يشعر اليوم « أن نظرية حسنة الصياغة واضحة المفاهيم ، قد أمست ضرورة ملحة »[٢]. كذلك يتفق « هارتمان » و« كريس » و« لوفنشتاين » في مقالهم الآنف الذكر ، على أن الوقت قد أزف لتنقية المفاهيم التحليلية وتوضيح معانيها ؛ فغموض المصطلحات عقبة في سبيل التبادل العلمي .

إن معارفنا الحالية لا تسمح بحد بعض المفاهيم الفرويدية الخاصة بالسلوك الجماعي حداً جامعاً مانعاً ؛ ولكن هذا لا يعني أنها عديمة الجدوى في دراسة العمليات السيكولوجية داخل الجماعات . يقول « سيمان » : « إن في علم الطبيعة ذاته ألفاظاً (مثل النترينو) لا يمكن أن ننسب إليها مباشرة إلا حداً أدنى من المعنى »[٣]. وللمفاهيم السيكولوجية بعض المعنى ، حتى إذا كان من المحال الآن تعريفها تعريفاً كاملا ، وتحديد كل ما يربط بينها من روابط . أن قيمتها العظمى هي أنها ترشدنا في جمع المعطيات ووضع الفروض .

---

(١) Hartmann, H., Kris, E., Lœwenstein, R.M., "Comments on the formation of the psychic structure", *The psychoanalytic study of the child*, II, 1946, pp. 11-12.

(٢) Alexander, F., "Psychoanalysis revised", *The psychoanalytic quarterly*, IX, 1940, pp. 26-27.

(٣) Seeman, W., "A note on the 'Clinical practice and personality theory' Symposium", *The journal of abnormal and social psychology*, XLV, 1950,. p 382.

الحاجة إلى المزيد من الدراسات

من المقرر أن المناهج العلمية الموضوعية لم تحقق بعد الكثير من نظريات « فرويد » ، إن لم يكن جلها . وذلك لأن « موضوع التحليل النفسى كان جديداً على العلم عند مابدأ « فرويد » بحثه ؛ وهو ما برح حتى اليوم جديداً محيراً »[١].

وقد انتشرت فى السنوات الأخيرة حركة تستهدف اختبار صدق القضايا التحليلية . وقد أصبح التحليل النفسى التجريبى ، على ما يرتئى « كريس » ، حقلا مستقلاً بذاته ، نشرت فيه مئات الدراسات الحديثة .

ويشير « سيرز » إلى الصعوبات الكبرى التى تعترض طريق هذا الاختبار التجريبى ؛ رغم افتقار المفاهيم التحليلية إليه . ذلك لأن الكثير من العمليات « تكون واضحة المعالم داخل بناء التحليل النفسى ، وتفقد طابعها المميز إذا ما أبعدت عنه . وبعد هذا الإبعاد ، يصعب اصطناع الشروط الضرورية للتحقق منها »[٢]. كذلك يرتئى « ونتش » أن « من الصعب وضع نظرية « فرويد » موضع التجريب الموحد ، رغم ثبوت قدرتها الفائقة على تفسير مختلف أنواع السلوك وتتطلب طبيعة النظرية التحليلية ، وضع تصميم تجريبى بالغ البراعة ، يكون بمثابة الامتحان الحاسم للفروض الفرويدية . وترجع صعوبة الاختبارات المباشرة ، إلى مستوى التجريد العالى الذى بنيت عليه النظرية . هذه الصفة ذاتها هى التى تضفى على النظرية طابعها المرن ، ومن ثمة ، قيمتها الكلينيكية الكبرى»[٣]. والمفاهيم الفرويدية لا يمكن ، إلى

(١) Kris, E., "The nature of psychoanalytic propositions and their validation", in *Freedom and Experience* (S. Hook and Konwitz, editors), p. 241.

(٢) Sears. R.R. "Experimental analysis of psychoanalytic phenomenta", in *Personality and the behavior disorders* (J. McV. Hunt, editor), p. 306.

(٣) Winch, R.F., "Some data bearing on the Œdipus hypothesis", *The journal of abnormal and social psychology,* XLV, 1950, p. 481.

حد كبير ، معاينة ما تدل عليه مباشرة . فنحن لا نشاهد مثلا الاتجاهات العائلية المبكرة تخرج إلى حيز الوجود تحت تأثير وضع جماعى لاحق ؛ وكل ما نشاهده هو مسلك معين يمكن تفسيره على ضوء هذا المفهوم . يقول « سميث » : « إن الطريقة الفنومينولوجية والمقابلة الكلينيكية والاختبار الإسقاطى والملاحظة السلوكية ، لا يمدنا أى منها بمعرفة مباشرة بالمفاهيم السيكولوجية ، الموضوعى منها أو الذاتى . ولكنها تهيئ لنا أساساً لاستنباط المفاهيم اللازمة للتفسير وتحديد العلاقات المتبادلة بينها »(١).

ونظراً لتعدد المشاكل التى تواجه محاولة نقل ظروف الحياة المعقدة إلى مجال المعمل ، يرتئى البعض أن المشاهدة المباشرة المضبوطة قد تكون أفضل الوسائل التجريبية لتحقيق الفروض التحليلية .

وجدير بالذكر أن البحوث التجريبية الخاصة بالمفاهيم التحليلية لم تمس المفاهيم المتعلقة بالعمليات الجماعية . وقد لمحنا إلى أسباب ذلك : عدم الألفة بهذه المفاهيم ، وما بها من غموض ونقص وتعقيد . وقد أيدت المشاهدات التى قام بها بعض المشتغلين بعلم النفس الاجتماعى والتربية والخدمة الاجتماعية والعلاج النفسى الجماعى ، جانباً من الفروض التحليلية فى هذا الميدان . وكنا قد عرضنا لبعض هذه المشاهدات فيما سبق ، وسوف نعرض لبعضها الآخر فى الفصول التالية . غير أن معظم هذه المشاهدات لم تأت على نحو منطقى مضبوط ، ولم يقم بها الإخصائيون المدربون ، ولم تتم فى المواقف الجماعية المحددة القسمات . ولكنا نستثنى بحث « كريس » فى الاستجابات لضرب إنجلترا بالقنابل . يقول : إن المشاهدات الشاملة التى قام بها هو وغيره من البحاث ، أثبتت بشكل قاطع أن « استجابة الفرد لخطر موضوعى فى موقف واضح المعالم — له قيادته وروحه المعنوى المناسبان — إنما تتوقف على حالة الفرد من

(١) Smith, M.B., "The phenomenological approach in personality theory : Some critical remarks", *The journal of abnormal and social psychology*, XLV, 1950, p. 518.

حيث التوتر النفسى »[١].

ومن نافلة القول ذكر الأسباب التى تجعل من فهمنا لسلوك الإنسان الجماعى ، ضرورة قصوى . فقد يتوقف على هذا الفهم وجودنا نفسه ! . يقول « رسل » : « كانت الطبيعة والكيمياء أبعد العلوم أثراً حتى اليوم ؛ وبدأ يصبح علم الحياة منافساً لهما . ولن يمر أمد طويل حتى يصبح علم النفس ولا سيما علم النفس الجماعى ، أخطر العلوم شأناً من وجهة نظر السلوك الإنسانى »[٢].

ونحن نعتقد أن مفاهيم « فرويد » الخاصة بسيكولوجية الجماعات ستساهم فى بناء هذا العلم مساهمة حاسمة ، كما فعلت من قبل بالنسبة لعلم النفس الفردى وعلم النفس المرضى ، كذلك نحن نرى « أن من المستطاع تطبيق عدة مناهج فى نفس الوقت ، دون أن ننتظر التفسير النهائى للسلوك الاجتماعى ؛ سواء كان هذا التفسير بيولوجياً أو فيزيقيا أو كيمائيا ؛ وأن هذه المناهج ، إذا أحسنا فهمها وتنسيقها ، سوف تضىء وتيسر بحثنا عن النوازع الأساسية والقوانين الأساسية فى التطبع الاجتماعى لدى الفرد »[٣].

وينبغى زيادة توضيح مفاهيم السلوك الجماعى عند « فرويد » ، إذا قدّر لها أن تساهم فى علم النفس الجماعى مساهمة خصبة . ومن المسائل التى تتطلب فحصاً مفصلا ، الأحوال التى تتعادل فيها الدوافع اللبيدية والعدوانية ، وتنقلب فيها إلى الضد وتتسامى ، فى يسر نسبى . وهناك مشكلة الدور الذى يلعبه القائد فى هذه العملية . وكيف يعالج الإفراط فى عمليات التوحد فى الجماعة ، إذا كان الناتج عنها هو فقدان إنية الأفراد الشخصية ؟ . وفى أى

(١) Kris, E., "The nature of psychoanalytic propositions and their validation", *op. cit.*, p. 254.

(٢) Russell, B., "The science to save us from science", *The New York Times Magazine*, March 19, 1950, p. 32.

(٣) Murphy, G., Murphy, L.B., Newcomb, "T.W., *Experimental social psychology*, p. 759.

ظروف يمكن أن يحل الاستبصار الموضوعى بالذات والعلاقات الموضوعية الناضجة ، محل هذا الإفراط فى التوحد ؟ وثمة منطقة أخرى تتطلب الإيضاح ، هى منطقة تمثل المعايير الجماعية الجديدة تمثلا لا تصبح معه سلطة باطنية عشواء . وقد سبقت الإشارة إلى المشكلة الدقيقة الخاصة بإشباع حاجات الفرد فى الجماعة ، دون تشجيعه على الإفراط فى الاعتماد على الغير والخضوع له .

ويمكن دراسة مفاهيم العلاقات الجماعية عند « فرويد » ، من وجهات ثلاثة مختلفة . فهناك أولا حاجة إلى زيادة توضيح هذه المفاهيم وبيان علاقاتها بشتى جوانب سيكولوجية « فرويد » . ويؤكد « كريس » أن ثمة « نقصاً فى عدد الأشخاص المدربين على توضيح المعانى ، القادرين على التنسيق بين مختلف القضايا تنسيقاً يخلص لغة التحليل النفسى مما بها من تفاوت »[١].

أما المحاولة الثانية فتقضى بوضع برنامج تفصيلى للقيام بالمشاهدات المضبوطة وبالدراسات الجماعية التجريبية ، بغية التحقق من صدق المفاهيم الخاصة بالعلاقات الجماعية ، ومراجعتها إذا اقتضى الأمر ، ووضع الفروض الجديدة ، ومما ييسر هذا العمل ، أن يعهد به إلى فرق من البحاث المنتمين إلى مختلف المجالات المتقاربة ، مثل التحليل النفسى وعلم النفس الاجتماعى والعلاج النفسى الجماعى وما إلى ذلك . ولما كانت هذه الدراسة تشمل العمليات اللاشعورية والتكوينية ، وجب الاستعانة بطرق تستطيع الكشف عنها ، طرق تتراوح بين التداعى المطلق والاختبارات الإسقاطية . يقول « كلوكهون » و « موری » : « إن الاعتراف بوجود الحاجات اللاشعورية ، يتضمن ضرورة سبر الجوانب اللاشعورية من الشخصية ، عن طريق الاختبارات الإسقاطية وتحليل الأحلام وما إليها »[٢]. وذلك لأن « الإدراك الحسى والحوافز والعمل ليست وظائف منفصلة ، يعمل كل منها فى ميدان مستقل . بل هى مترابطة ، فى كل نتاج

---

(١) Kris, E., *op. cit.*, p. 240.

(٢) Kluckhohn, C., Murray, H.A. (editors) : *Personality in nature, society and culture*, p. 379.

سيكولوجى وفى أية لحظة معينة . ترابطاً وظيفياً لا تنفصم عراه »[1].

ودراسة الشخصيات الفردية فى المواقف الجماعية ، يقتضى مراقبة سلوكها وتحديد ما ينطوى عليه من دوافع شعورية ولا شعورية . ثم يجب فحص استجابات القائد وسائر أفراد الجماعة ووصلها بالدوافع الحاضرة . كذلك ينبغى أن نوجه اهتماماً دائماً إلى العناصر الجماعية الدينامية المؤقتة ، مثل جو الجماعة وبنيانها وقيمها ، رابطين إياها بتاريخ الجماعة وبتأثير الجماعات الأخرى عليه .

وغنى عن البيان أن المناهج وأدوات البحث التى ابتدعها « لوفين » وأتباعه من مركز بحوث ديناميات الجماعات ، أو أصحاب « السوسيومترى » أمثال « مورينو » أو « جيننجز » ، فضلا عن « تحليل عمليات التفاعل » عند « بيلز » ، سوف تكون ذات قيمة لا تقدر فى مثل هذا البحث .

ويلوح أن دراسة الكثير من المفاهيم المذكورة تكون أسهل وأيسر منالا داخل التجمعات التلقائية التى يؤلفها الأطفال والمراهقون والراشدون ، فى دور الحضانة والفصول المدرسية ومنازل الطلبة والملاعب والمراكز الجمعية . وقد تقتضى بعض الظروف الاستعانة بالجماعات الموجهة ، مثل جماعات العلاج النفسى . كذلك قد يكون من المفيد فحص أبسط أنواع الجماعات ، أى الجماعة المؤلفة من فردين ، حيث لا وجود إلا لعلاقة واحدة متبادلة . ويرى « الكسندر » أن « الجماعات التجريبية الصغيرة نسبياً ، شأنها فى هذا شأن الجماعات التلقائية المتفاوتة البناء ، تتجسم فيها عادة الخصائص الجوهرية لأية جماعة فى أية حضارة »[2].

ولا بد فى نهاية الأمر من نوع من التوفيق بين قضايا التحليل النفسى فى السلوك الجماعى وبين المكتشفات الكبرى فى علمى الاجتماع والنفس الاجتماعى . ذلك لأن « الإنسان كائن حيوى معقد ، فضلا عن كونه شخصية فردية وعضو

(١) Alexander, F., *Fundamentals of psychoanalysis*, p. 46.

(٢) Alexander, F., *op. cit.*, p. 97.

فى جماعة بالغة التنظيم . فيجب الاستعانة فى فهمه بمعانى علوم الوظائف النفس والاجتماع »[1]. وبدون هذا التوفيق : يقل النفع الذى يعود به علم النفس الجماعى على السلطات القومية والدولية والتربية والصناعة والعلاج النفسى الجماعى ، إن لم ينتف كل الانتفاء .

(١) Alexander, F., "Psychoanalysis revised", *The psycoanalytic quarterly*, IX. 1940, p. 36.

الفصل الثامن

المفاهيم الفرويدية ومجالات الدراسات الجماعية

علم الاجتماع وعلم النفس

بعد التسليم بنقائص نظريات « فرويد » فى السلوك الجماعى ، وبافتقارها إلى المزيد من الإيضاح والتحقيق ، يبقى أنها تمدنا بفروض مفيدة لسائر مجالات البحث . وهو أمر لم يتنبه إليه الكثيرون .

فعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى مثلا ، لم يلتفتا على الإطلاق إلى المفاهيم الجماعية لدى « فرويد » . وإذا حظيت هذه المفاهيم بشىء من الاعتراف ، كثر بصددها سوء التفسير . مثال ذلك كتاب « نيوكوم » الأخير ، المسمى بعلم النفس الاجتماعى ؛ يفرد فيه « نيوكوم » مكاناً كبيراً لنقد بعض نظريات « فرويد » فى السلوك الفردى ، ولكنه يتجاهل نظرياته فى السلوك الجماعى تجاهلا يغفل معه عن سرد كتاب « فرويد » علم النفس الجماعى وتحليل الأنا ، ضمن ثبت المراجع [1] ، أما كتاب « شريف » الموسوم بالمجمل فى علم النفس الاجتماعى ، فهو مؤلف يتجلى فيه اهتمام عميق بآراء « فرويد » فى الجماعات ، وإن كان عرضه إياها ينم عن سوء فهم عظيم . يجمل « شريف » نظريات « فرويد » على النحو التالى : « يرتئى " فرويد " أن أهم أثر تتركه الجماعة فى الفرد ، إن لم يكن أثرها الوحيد ، هو أنها ترفع عن كاهله ما يرزح تحته من معايير اجتماعية ، أو ضمير أخلاقى ، إذا كان الجانب الأخلاقى هو الغلاب ، مرسلة للإشباع اللبيدى الحبل على الغارب ؛ والشىء الهام الوحيد الذى يظهر إذا ذاك إلى حيز الوجود هو ما كان مختزناً فى اللاشعور . . . » . ويقول أيضاً : « يرى " فرويد " أن اتجاه الحركة والكيفية

(١) Newcomb, T.M., *Social psychology*, pp. 365-379.

الانفعالية المميزتين لموقف جماعي معين ، مختزنتان في اللاشعور ومهيأتان من قبل . فسيكولوجية الجماعات عند " فرويد " ؛ التي تبدأ بتحطيم الثنائية المفتعلة بين علم النفس الفردي وعلم النفس الجماعي . تتبدى في النهاية في صورة سيكولوجية فردية دعامتها الأيروس وغيره من ذخائر اللاشعور . هذا الموقف المتحيز يتجاهل الحقائق التي توصلت إليها سيكولوجية الإدراك الحسي ، أعني اعتماد الأجزاء الفردية بعضها على بعض . فقد نهج " فرويد " وكأن الفرد المنعزل هو مفتاح الجماعة »[١] . ولنقارن ما سبق بما يرتئي عالم نفس اجتماعي آخر . يقول : « براون » : « إن سيجموند فرويد هو المفكر الذي تعدى ثنائية الفرد والجماعة في علم النفس الجماعي . . . وتفكير فرويد علمي نادر من حيث انعدام المفاهيم التقويمية والثنائيات المصطنعة منه . وهو يستخدم " على نحو غير كامل " المنهج الفرضي الاستنباطي ، وهو لا يسلم بوجود أكثر من النفوس الفردية لتفسير السلوك الجماعي ، بل يفسره على أساس الروابط اللبيدية التي تربط بين الأفراد . وهو يبين ، على الضد من الرأي المعتمد في عصره ؛ أن الذعر والتجمهر ظاهرتان متعارضتان من الوجهة الدينامية »[٢] . و « براون » من أتباع « نظرية المجال » عند « لوفين » (كما هو الشأن مع « شريف » على ما يبدو) ، فهو يقول : إذا أضفنا لنظرية " فرويد " عبارة " في نطاق البناء المجالي الموجود " ؛ لأصبح الفارق ضئيلا بينها وبين نظرية المجال » . وهو يعلن أن « فرويد » هو أعظم علماء النفس المحدثين وأن تأثيره في علم النفس سوف يمتد على السنين ، ويشترك عالم الاجتماع « بيرجس » في هذا الرأي الأخير ، متكهناً بأن أعمال « فرويد » سوف تتزعم حركة « تكامل المعرفة السيكولوجية ، باعتبار هذا التكامل أساساً لأبحاث جديدة »[٣] .

وسوف تفيد دراسة العمليات الجماعية من المفاهيم الفرويدية ، إذا أخذت

---

(١) Sherif, M., *An outline of social psychology*, pp. 108-110.

(٢) Brown, J.F., *Psychology and the social order*, p. 74.

(٣) Burgess, E.W., "The influence of Sigmund Freud upon socoiology in the United States", *The American journal of sociology*, XLV, 1939, p. 374.

فى اعتبارها توكيد « فرويد » أهمية القوى والنوازع اللاشعورية فى السلوك الجماعى . ذلك لأن عدداً كبيراً من نظريات علم الاجتماع يقوم على أساس من القضايا الوصفية غير الدينامية . كذلك لم يتفق علماء الاجتماع بعد على مدلول مفهوم « الجماعة » . أما المفاهيم الأساسية ، مثل مفهوم القيادة ، فلا ينظر إليها عادة إلا من حيث وظيفة الجماعة ، دون اعتبار لعنصر الدوافع . يفترض « ستوجديل » مثلا أن وجود القيادة يتطلب « وجود جماعة لها مهمة أو هدف مشترك ، ووجود فرد على الأقل تختلف مسئولياته عن مسئوليات الأفراد الآخرين . فلا وجود للقيادة إذا قام كل الأعضاء بنفس الواجبات وعلى نفس النمط . فالقائد إذن هو الفرد الذى يتميز عن سائر الأعضاء من حيث تحديد هدف الجماعة ورسم الخطوات المؤدية إليه . . . والقيادة لا تظهر إلا متى اختلفت مسئولية كل فرد من أفراد الجماعة »[١].

وإنى لأفهم أن يدرس علماء الاجتماع الجوانب العامة من الظواهر الاجتماعية ، دون اعتبار لعوامل شخصية الأفراد . فقد يحاولون التكهن مثلا بحجم الأسرة أو باتجاه التيارات الانتخابية على أساس مكانة السكان الثقافية أو الدينية . ولكن من العسير علىّ أن أرى مشروعية العمل داخل نطاق الجماعات الصغير ، إذا أهملت مشكلة الشخصية والدوافع الشخصية . يقول « بارسونس » : « لا بد لعالم الاجتماع أن يواجه مشكلة الدوافع الإنسانية ، أراد ذلك أو لم يرد . فإذا لم يأخذ بنظرية قد أثبتت جدارتها فى ذلك الميدان ، فسيضطر إلى اللجوء ضمناً إلى سلسلة من فروض المناسبات ، توجه بحثه توجيهاً حاسماً ، لأنه لم يتناولها بالتحليل النقدى . فإذا رجع إلى التحليل النفسى واستخدمه بما يلائم بحثه ، لكان فى ذلك مخرج من الإشكال »[٢] .

كذلك يؤكد « شين » تفاهة أية محاولة تستهدف دراسة السلوك دون

---

(١) Stogdill, R.M., "Leadership, membership and organization", *psychological bulletin*, XLVII, 1950, p. 4.

(٢) Parsons, *T.*, "Psychoanalysis and the social structure", *The psychoanalytic quarterly*, XIX, 1950, p. 384.

اعتراف بالدوافع الشعورية واللاشعورية المرتبطة به . يقول : « إذا كانت الصعاب تكتنف دراسة الحوافز ، فمن العبث تجاهل الصعاب بإنكار وجود الحوافز ، والقول بأن لا وجود إلا للسلوك وحده . وصعاب الاستقصاء لا تبرر تجاهل مجال من مجالات البحث »[١] .

ومن المستطاع بالطبع التكهن بمسلك الفرد فى جملته ، فى كثير من المواقف الاجتماعية ، دون اللجوء إلى العوامل النفسية العميقة . وعلة ذلك أن هذا المسلك تسيطر عليه الجوانب المنطقية السطحية من الشخصية . بينما إذا ما فحصنا فى استجابات الأفراد للخطر ، أو فى الأفعال الجماعية الهوجاء ، مثل ظواهر التجمهر ، بدا من الممتنع فهم الظاهرة تمام الفهم دون الرجوع إلى النوازع والمشاعر الشعورية واللاشعورية . وهو ما ينطبق أيضاً على الأفراد ذوى الشخصية المريضة . فعناصر السلوك الظاهرة لا تكفى لتفسير ما حدث أو للتكهن بما سيحدث . يقول « هارتمان » : « فى كل المواقف التى يلعب فيها الهو أو الأنا الأعلى أو الجانب اللاشعورى من الأنا ، دوراً هاماً ، لا يمكن الاعتماد على قضايا علم الاجتماع ما لم تستند إلى مكتشفات التحليل النفسى »[٢].

ويعترف عالم الاجتماع « يونج » بضرورة النظر فى النوازع اللاشعورية التى تنطوى عليها العمليات الجماعية . يقول : « فى وصف سلوك الأفراد الاجتماعى وتفسيره ، يجب حساب التنبيه اللاشعورى واختفاء المنبهات الأولى من حيز الشعور . ويحمل هذا التيار اللاشعورى ألوان المشاعر والاتجاهات الانفعالية على وجه التخصيص . ومهما كان موقفنا من نظريات " فرويد " و " يونج " و " برنس " وغيرهم ، فثمة وقائع لا سبيل إلى إنكارها ، هى الاتجاهات والأفعال اللاشعورية المتفككة »[٣]. وقد تبين « يونج » أن من

---

(١) Chein, I.,"Personality and typology", *Twentieth Century Psychology*, (P.L. Harriman, editor), p. 115.

(٢) Hartmann, H., "Psychoanalysis and sociology," *Psychoanalysis Today* (S. Lorand, editor), I. 1944, p. 339.

(٣) Young, K., *Social psychology*, p. 173.

الممكن للتنافس والعداء أن يوجدا على تخوم الجماعة المتماسكة ، بحيث يطفران بغتة إلى السطح فى شكل عداء سافر ، كما هى الحال فى المشادات العائلية . وهو يرى أن التجمهر يساعد على بزوغ أفكار مصدرها الدوافع الأساسية والأنماط الطفلية التى تكبت فى الأحوال العادية .

وجملة القول ، إذا كانت المواقف الجماعية تثير فى المحل الأول الأنماط السطحية من شخصية الأفراد ، فإنها قد تتسم بمختلف صور السلوك الاندفاعى (اللبيدى والعدوانى) ، وبحيل الدفاع المميزة للأطباق العميقة من الشخصية . فالتعبير عن الميول العدوانية والجنسية المكبوتة مثلا يكون مصحوباً بالقلق وبوخز الضمير .

يلوح لى إذن أن من الممكن أن يفيد علم الاجتماع من التحليل النفسى فائدة كبرى والعكس بالعكس . وإنى أقر « هارتمان » فى قوله بأن على المرء « أن يعمل على تداخل النظريات الاجتماعية والتحايلية ووضع أسئلة جديدة ، واكتشاف طرق جديدة للتحقق من معطيات كل من هذين المجالين . وهذا معناه ضرورة إنشاء نماذج نظرية تشمل الجوانب النفسية والاجتماعية فى الآن ذاته »[١].

مناهج القياس الاجتماعى (السوسيومترى)

وضع « مورينو » ، فى كتابه « لمن البقاء ؟ »[٢]. بعض النظريات والمناهج الخاصة بتحليل العلاقات المتبادلة بين الأفراد . من هذه المناهج ، الاختبارات السوسيومترية التى ذاع استعمالها فى علم النفس الاجتماعى والتربية الجماعية ، وهى مقاييس لاختبارات الفرد فى الجماعة . ففى الاختبار السوسيومترى ، يُطلب من كل فرد فى الجماعة أن يختار أحب أفرادها إليه ، أو الأفراد

(١) Hartmann, H., "The application of psychoanalytic concepts to social science", *The psychoanalytic quarterly*, XIX, 1950, p. 392.

(٢) Moreno, J.L., *Who shall survive?* Beacon : Beacon House, Inc., 1934.

الذين يرغب فى العمل معهم أو فى مشاطرتهم الطعام وما إلى ذلك . والاختيار يتم دائماً وفقاً لمعيار معين ، ويكتب كل فرد أسماء من يفضلهم بترتيب هذا التفضيل . وقد يطلب أحياناً من الفرد ذكر اختياراته السالبة ، أى سرد أسماء الأفراد الذين يكره الجلوس إليهم أو العمل معهم مثلا . وعلى الجملة ، يستهدف الاختبار السوسيومترى تحديد « الذرة الاجتماعية » المميزة للفرد . ويقصد بهذا المفهوم « نمط التجاذب والتنافر »[١]. بين فرد وغيره من الناس . وقد تكون هذه العلاقات «فعلية " أى محققة فى الحياة اليومية " أو مرغوباً فيها " أى يسعى إليها الفرد دون أن يحققها " »[٢].

ويفترض « مورينو » أن كل شخص « يكون حرًّا خلاقاً إذا وجد المركز الملائم له »[٣]. لذلك وجب أن يحقق للفرد ما يبديه من تفضيلات ، كلما كان التحقيق ممكناً . مثال ذلك ، إذا اختارا ، ب فى المحل الأول ، وأظهر ب تفضيله لا ا ، جمعنا بين ا و ب ووضعناهما فى نفس المكان . وإذا انعدمت الاختيارات المتبادلة . حاولنا تحقيق أفضل الحلول الوسطى دون أن نخالف ما أبداه كل عضو فى الجماعة من تفضيل أو رفض . تقول « جننجز » : « إن نقل المعطيات السوسيومترية إلى مجال التطبيق ، يسير فى كل الحالات على نفس المبدأ البسيط ، وهو : يجب أن يحصل كل فرد على درجة قصوى من الرضا تتفق والحد الأعلى من سعادة كل من الأفراد الآخرين والحد الأعلى من الحث المتبادل بينهم . بتعبير آخر ، إن الهدف هو أن نوفر لكل طفل ، من وجهة نظره الخاصة ، أفضل الحلول الممكنة ، ولكن لما كان من الواجب إبداء نفس الاعتبار بالنسبة لكل رفاقه فى الفصل ، فلا بد من حل وسط »[٤].

ومن مفاهيم « مورينو » النظرية التى تقوم عليها السوسيومترى ، مفهوم

---

(١) Moreno, J.L., "Foundations of sociometry", *Sociometry*, IV. 1941, p. 24.

(٢) Jenning, H.H., "Sociometry and social theory", *American sociological review*, VI, 1941, p. 516.

(٣) As quoted by Murphy, G., *Personality*, p. 878.

(٤) Jennings, H.H., *Sociometry in group relations*, p. 45.

الـ tele ويقصد به « العامل الخفى الذى يؤثر فى التوزيع الإحصائى للتجاذب والتنافر فى جماعة ما . . . ونحن نعلم علم اليقين أن هذا العامل موجود ، ولكننا لا نزال نجهل بناءه « " المادى " »[1] .

وليس يدخل فى نطاق هذا الكتاب أن نخضع المفاهيم والمناهج السوسيومترية للتحليل النقدى . ولنكتف بإثارة بعض المسائل التى توحى بها النظرية الفرويدية . فالاختيارات السوسيومترية ، بادئ ذى بدء . تعبر عن اتجاهات الأفراد الشعورية نحو الآخرين أو عن رغبتهم فى أن يكونوا (أولا يكونوا) مع بعض من الناس فى موقف معين . غير أن هذه الاستجابات لا تنقل معها الدوافع الخفية وأسباب الاختيارات المعينة ؛ بل لنا أن نتساءل إذا كانت هذه الاستجابات تمثل ما يشعر به الفرد حقًّا نحو غيره من أفراد الجماعة ، وتدلنا الاكتشافات التحليلية على أن من الممكن أن تكون الاتجاهات الشعورية الموجبة أو السالبة ، استجابة عكسية لمشاعر عميقة تناقضها كل التناقض . لذلك تفقد المعطيات السوسيومترية معناها بالنسبة لمن تكون اتجاهاته الشعورية واللاشعورية متفاوتة تفاوتاً كبيراً .

.. ولا ريب أن للطرق السوسيومترية قيمتها المنهجية فى دراسة العلاقات الجماعية ، وإن كان يبدو لنا أننا نزيد من نفعها إن أدمجنا القضايا التحليلية ضمن تقدير الإجابات . فنستطيع إذ ذاك أن ننظر فى الحوافز الشعورية واللاشعورية المسئولة عن أية سلسلة من الاختيارات . وبجانب هذا ، من الممكن دراسة التجاذب والتنافر من حيث إنهما أنواع من التوحد أو الروابط بالموضوعات أو التحويل .

وثمة فرفض على وجه التخصيص من فروض السوسيومترى ، يعارض النظرية التحليلية بل خبرة الناس جميعاً ، هو الادعاء بأن الجماعات القائمة على الاختيار التلقائى هى بالضرورة أفضل ما يبتغيه الأفراد ، وأحسن الجماعات الممكنة بالنسبة إليهم . تقول « جننجز » : « إن الفرد ليشعر بأمن أعظم ،

---

(١) Moreno, J.L., "Foundations of sociometry", *op. cit.*, p. 24.

إذا ما وجد مع أفراد يستجيبون له ، وهو يرغب فى صحبتهم . وكلما زاد إحساسه بالأمن ، زاد شعوره بالحرية وزادت حرية مسلكه داخل الجماعة »[١]. وتقول أيضاً : « مثل هذا الفرد ، يكون أكثر نضوجاً فى سلوكه ، وأرجح عقلا فى أفعاله . وهو لا ينفتأ يوسّع من نطاق اتجاهاته نحو أترابه من أفراد الجماعة »[٢]. ويمضى « مورينو » إلى حد التكهن بإعادة إنشاء المجتمع بوساطة الطرق السوسيومترية . وهو يجد لكل من الفوضوى والشيوعى مكاناً فى المجتمع المخطط على أسس سوسيومترية . « ولما كان المجتمع قائماً على مبدأ التلقائية » فهو يسمح « بالإفصاح عن أشد صور الفردية وعن الميول الجماعية الأصيلة »[٣]. ويقول : « يجب أن نحقق نسقاً من المجتمع ينتسب إليه الأفراد جميعاً لا عن خضوع ولكن من تلقاء أنفسهم ، وكل الأفراد بدون استثناء أحد منهم . فقد يصبح هذا الفرد المستثنى هو ذلك العالم المجرم الذى لا يستخدم وسائل التدمير المبيدة ضد أحد أترابه " قابيل " ضد " هابيل " بل ضد الجنس البشرى بأسره ، ضد عالمه برمته »[٤].

ومن المؤكد فى بعض المواقف ، أن وضع الفرد مع من يرغب فى الاشتراك معهم فى نشاط ما ، يزيد الرضا الشخصى ويساعد على نمو الفرد ونمو الجماعة أيضاً ، ولكن هذا لا يمنع من وجود ارتباطات شخصية لا تعوق النمو فحسب . بل تزيد الفرد اضطراباً والجماعة انقساماً . مثال ذلك شخص ، كثيراً ما نلقاه فى الجماعات . يجلب على نفسه ، دون أن يشعر ، هجمات الغير وعقابهم . مثل هذا الفرد يجذب إليه كل من يكون مدفوعاً بحاجة ملحة إلى العدوان ، ثم يجذب . عن طريق العدوى ، أفراد الجماعة الآخرين . وثمة مثال آخر ،

---

(١) Jennings, H.H., "Sociometric grouping in relation to child development", in *Fostering mental health in our schools*, p. 203.

(٢) *Ibid.*, p. 212.

(٣) Moreno, J.L., "Foundations of sociometry", *op. cit.*, p. 34.

(٤) Moreno, J.L., "Future of Man's World", in *Group psychotherapy. A symposium*, p. 303.

هو حالة شخص ذى ميول جنسية مثلية قوية . فإذا شجعنا ارتباطه بمن هم على شاكلته ، بناء على اختيار سوسيومترى متبادل ، لعارضنا فى ذلك مصالح الجماعة الأساسية . من هذه الناحية ، يؤكد « ويدلر » دور النوازع اللاشعورية فى الربط بين منوّع الأفراد . يقول : « للإنسان قدرة غريبة على الاتصال بمن يكون مكملا لنفسه . والشخص السادى يحس ، على المدى ، بوجود الشخص المازوخى ؛ ومن يطلب العون يميز بالغريزة . إن جاز التعبير ، من يرغب فى مد يد العون إلى الغير ؛ ومن يخرج لخداع الناس ، ينجذب لمن يقبل الخداع . ثم إن الناس وإن كانوا لا يفهمون فهماً شعورياً ميول الغير اللاشعورية ، إلا أنهم كثيراً ما يسلكون وكأنهم قد فهموها »[1].

ونكرر القول بأن الاختبارات السوسيومترية أدوات مفيدة فى دراسة العلاقات الجماعية . ولكنها لا تكفى لتفسير الدوافع التى تكمن وراء أى جانب من جوانب السلوك ، ولا هى تدلنا على حدة هذه العلاقات ولا على أجدى الطرق لتوجيهها . كل ذلك يتطلب شيئاً آخر ، يتطلب تحليلا دقيقاً للعوامل الفردية والجماعية المهمة . يقول « لوميس » و « بيبسكى » : « إن الدالة السوسيومترية ، فى حد ذاتها ، لا تدلنا إلا على أن الأفراد قاموا بالاختيار أو وقع عليهم الاختيار على نحو من الأنحاء ، وفقاً لمعايير الاختيار المحددة . أما معنى الاختيار بالنسبة لأفراد الجماعة أو معنى الأدوار التى يقومون بها ، فهو ما لا يمكن معرفته إلا عن طريق الاستنباط غير المباشر »[2].

وقد لفت نظرى أن المراتب السوسيومترية غالباً ما تكون مضللة ، لعجزها عن التحقق من أن دالة الشهرة لا تطابق بالضرورة دالة التكيف الاجتماعى . ولنمثل لذلك بحالة صبى فى الثالثة عشرة من عمره ، يدعى « توماس » ، كان رئيس فصله فى المدرسة ، بجانب اشتراكه فى إدارة معظم نوادى المدرسة

(١) Waedler, R., "The scientific approach to case work", in *personality in nature, society and culture* (Kluckhohn and Murray, editors), p. 534.

(٢) Loomis, G.P., and Pepinsky, H.B., "Sociometry, 1937-1947 : Theory and methods", *Sociometry*, XI, 1948, p. 271.

ومجلس الطلبه . كان يبدو عليه التفتح والإخلاص والرصانة (بما يكاد يجاوز سنه) ؛ كما كان دائماً على أهبة الاستعداد لمعاضدة الجماعة والمعلمين . فكان يشغل المكانة الأولى من الاختبارات السوسيومترية المتكررة ، غير أن المصادفة وحدها أظهرت أن باطن الأمور غير ظاهرها . فى غضون رحلة مدرسية ، أيقظ المعلم أحد أتراب « توماس » . هب من نومه مذعوراً على صراخ هذا الأخير وهو نائم . وقد اتضح فيما بعد أن « توماس » لم يكن يعانى الأمرين من الكابوس فحسب ، بل كان أيضاً فريسة لمخاوف قديمة عديدة ، وعرضة لنوبات دورية من صداع ليس له علة جسمية . ثم إن الصبى لم تكن له علاقات اجتماعية خارج نطاق المدرسة . وقد كشفت سلسلة من الاختبارات الإسقاطية خلف ستار من النشاط والتكيف الاجتماعيين ، عن وجود صراع نفسى وقلق ووخز ضمير . فمن الواضح أن « توماس » كان مفتقراً إلى الحياة الجماعية داخل المدرسة ، وهو يجهد يائساً فى أن يحتفظ باتزان شخصيته المقلقل .

أما فيما يتعلق بالمفاهيم السوسيومترية النظرية ؛ فمن الشيق أن نختلس النظر إلى مواضع الخلاف والاتفاق بين عامل الـ tele عند « مورينو » ، ومفهوم اللبيدو المعطل الهدف عند « فرويد » . فتلميحة « مورينو » إلى أن لهذا العامل ، « علاقة ممكنة ببناء الجينات وبالجنسية »[1]، توحى بأن هذين المفهومين ليسا على تباين تام . غير أن مفهوم الـ tele مختلف من حيث إنه يعمل ، فى نظر مبتكره ، « فى مستوى هو دون مستوى الجماعة الإنسانى »[2].

والملاحظ أن « مورينو » أساء تفسير آراء « فرويد » فى علم النفس الجماعى . فهو يعتقد « أن فرويد ، قد نظر إلى الجماعة ، باعتبارها ظاهرة غير حقيقية للنفس الفردية . ومعنى هذا أننا إذا أخضعنا مائة فرد من الجنسين لتحليل نفسى ، وأدى هذا التحليل إلى نتائج مرضية ، ثم جمعنا بينهم فى جماعة واحدة ، لنتج عن ذلك نظام اجتماعى لا تعقيد فيه . والعلاقات الجنسية

(١) Moreno, J.L., "Foundations of sociometry", *op. cit.*, p. 24.

(٢) Moreno, J.L., "The ascendancy of group psycheotherapy and the declining influence of psychoanalysis." *Group psychotherapy*, III, 1950, p. 123.

والاقتصادية والسياسية والثقافية التي تربط بينهم ، لن تضع في سبيلهم عقبات يستحيل تذليلها »[1]. وفي موضع آخر يخطئ فهم آراء « فرويد » لدرجة يرفض معها الفروض التحليلية الخاصة بالروابط الجماعية اللبيدية على أساس « أن الجماعة ، وهي بنيان اجتماعي ، ليس لها أعضاء جنسية »[2]. أما بالنسبة لعمليات التوحد الجماعية ، فهو يقر بأن « من المحال إنكار بعض مزايا فرض التوحد » ، ولكنه سرعان ما يرفضه أيضاً نظراً لعدم انطباقه على جماعات الحيوان ، أي على « المواقف التي توجد قبل وجود اللبيدو » .

« نظرية المجال » عند « لوفين »

وضع « لوفين » وأتباعه نسقاً من النظريات والمناهج الخاصة بدراسة المشاكل السيكولوجية ، نسقاً يعرف « بعلم النفس الطوبولوجي » أو « نظرية المجال » . يقول « لوفين » : « إن الجماعات كلٌّ اجتماعي ، يمكن أن يعرّف كما يُعرّف أي كلٍّ دينامي آخر ، أعني عن طريق إبراز الاعتماد المتبادل بين أجزائه »[3]. ويتضمن هذا المبدأ أن خصائص أفراد الجماعة : مثل الأهداف والقيم والبناء المميزة لهم ، تختلف عن أهداف الجماعة وقيمها وبنائها . كذلك لا بد . للتكهن بمسلك الجماعة ، من تفهم هذه الأهداف والقيم الجماعية ، وتحديد العلاقة بين هذه الجماعة والجماعات الأخرى .

وتؤكد النظرية المجالية أن السلوك (الفردي أو الجماعي) هو دالة المجال الاجتماعي الحاضر . يقول « لوفين » : « فالمشكلة إذن هي كيف نحدد السلوك " أو الواقعة " باعتباره دالة للموقف الكلي المؤقت »[4].

---

(١) Moreno, J.L., "Scientific foundations of group psychotherapy", in *Group Psychotherapy. A symposium*, p. 77.

(٢) Moreno, J.L., "The ascendancy of group psychotherapy and the declining influence of psychoanalysis" *op. cit.*, p. 123.

(٣) Lewin, K., *Resolving social conflicts*, p. 73.

(٤) Lewin, K., *A dynamic theory of personality*, p. 241.

وقد أجمل « براون » أوجه التشابه الرئيسية بين نظريتى « لوفين » و « فرويد » . (١) فكل من النظريتين تدرس الكائن العضوى باعتباره كلاً متماسكاً ؛ (٢) وكل منهما تقول بأن الكائن العضوى فى حالة تفاعل مستمر مع البيئة ؛ (٣) وكل منهما تتصور الشخصية بوصفها تطوراً « للوحدات الأولية » وتفاضلا تدريجيًّا لها ، كما ترى فى النمو تكيفاً بين المتعضى وعقبات البيئة ؛ (٤) حاول كل من « فرويد » و « لوفين » أن يدخل الوقائع النفسية فى أنساق نظرية شاملة ؛ (٥) يعتقد كلاهما « بالحتمية النفسية . وباطراد الطبيعة النفسية واتصالها »[١].

والفارق الأساسى بين المذهبين هو فى توكيد « لوفين » أن السلوك يفسَّر بناء على استجابة الفرد للموقف المؤقت الدقيق . وفى هذا إهمال للعوامل التكوينية والفروق الفردية فى الإدراك الحسى التى ترجع إلى تفاوت خبرات الأفراد الماضية . يقول « لوفين » : « ليست مهمة التحليل فى نظرى . هى البحث عن العمليات التى تختفى وراء المجال الحيوى النفسى ، بحيث يستنتج منها كل إمكانيات السلوك الفعلى »[٢]. ويقول أيضاً : « إن علة الأحداث هى العلاقة التى تربط بين أجزاء الموقف ، بوصفها وقائع ديناميه ، وأن تحديد هذه الوقائع الديناميه تحديداً كاملا ، هو تحليل كامل لها . لذلك أعتقد أن من واجب علماء النفس أن يتعلموا عدم التساؤل عن عالم هى " أكثر " من مجرد العلاقات التى تربط بين هذه الوقائع الدينامية »[٣].

غير أن هذه « العمليات التى تختفى وراء المجال الحيوى النفسى » . والعناصر التكوينية التى هى « أكثر » من مجرد التفاعل الحاضر بين المتعضى والبيئة ، هى عند « فرويد » . دعامة كل تحليل علىّ للسلوك . الفردى منه أو الجماعى .

---

(١) Brown, J.F., "psychoanalysis, topological psychology and experimental psychopathology", *The psychoanalytic quarterly*, VI, 1937, pp. 232-234.

(٢) Lewin, K., "Vectors, cognitive processes and Mr. Tolman's criticism", *The journal of general psychology*, VIII, 1933, p. 343.

(٣) *Ibid.*, p. 319.

ولا شك » أن كثيراً من عناصر الماضى تنعكس فى السلوك داخل مجال معين . بيد أن الكثير من عناصر الماضى . التى تنطبق عليها القضايا التكوينية ، لا تظهر فى صورة ذكريات داخل المجال . ونحن نشير إلى ما يسميه التحليل النفسى بالمضمون المكبوت وإلى الجوانب اللاشعورية من حيل الأنا الدفاعية »(١). وبينت « جرينآ كر » أن « استجابة الشخص البالغ لتجربة ما ، لا تتعين بطبيعة العناصر الخارجية للتجربة ، بل باستجابة الفرد الكلية فى زمن محدد ، أى أنها تتعين بذخيرة الذكريات التى تبعثها التجربة الجديدة . والذاكرة ، بهذا المعنى الواسع ، لا تدل على مجموع الذكريات الشعورية للتجارب والخبرات المماثلة ، بل على الذكريات اللاشعورية التى اندمجت فى البناء الوظيفى للكائن العضوى »(٢).

ويأخذ « تولمان » على مفهوم الكميات الموجهة عند « لوفين » ، جمعه بين « ثلاثة متغيرات متميزة ومستقلة بعض الاستقلال هى " الاتجاه " و " المسافة " و " القيمة الطلبية " للموضوع . . . و " لوفين " لا يستخدم هذه الكميات الموجهة باعتبارها مقومات وصفية لمجال اكتمل بناؤه ، بل باعتبارها مسئولة عن ظهور مجالات جديدة أو عن التغيرات التى تعترى المجالات القديمة »(٣) ويرتئى « تولمان » أن « الشروط الفعالة فى مجال ما هى العمليات النزوعية والإدراكية العميقة التى تثيرها المنبهات الحاضرة والأحوال الفسيولوجية . . . فعلى حين أن علل اتجاه السلوك ومسافته إدراكية فى المحل الأول ، فإن علل القيم الطلبية للموضوعات نزوعية أولا وبالذات »(٤).

---

(١) Hartmann, H., Kris, E., "The genetic approach in psychoanalysis", in *The psychoanalytic study of the child,* I, p. 19.

(٢) Greenacre, P., "A genetic approach to the problem of inconsistency in social attitudes", *The journal of socialissues,* V, 1949, p. 24.

(٣) Tolman E.G., "Lewin's concept of vectors" *The journal of the general psychology,* VII, 1932, p. 4.

(٤) *Ibid.,* p. 4-5.

كذلك يؤكد « شين » ضرورة اعتباره النوازع والإدراكات الحسية الذاتية عللاً للسلوك، ويقول فى مناقشته نظرية « لوفين » فى قوى المجال : « يجب ألا ننسى أن المتعضى جزء هام فى بناء المجال المكروسكوبى ، جزء يحول البيئة الجغرافية إلى بيئة سلوكية عن طريق مساكه ومدركاته الحسية. فى هذا المستوى المنطقى ، تكون الدوافع شرطاً للسلوك ولتحديد البيئة السلوكية . وما الكميات الموجهة إلا انعكاس الدوافع على البيئة »[١].

ولاغرو إذا كانت نتائج « لوفين» التجريبية المتعلقة بديناميات الجماعات . لا تناقض عامة الفروض التحليلية . بل تؤيدها فى بعض الأحايين . ولكن الصعوبة تنشأ من محاولة تفسير هذه النتائج ، نظراً لأنها مبنية على التفاعل الدينامى المؤقت فحسب . مثال ذلك التجربة الشهيرة فى الأجواء الجماعية والقيادة[٢]. تبين أن الجماعات الاستبدادية تسمح للأفراد بقدر من الفردية أقل مما تسمح به الجماعات الديموقراطية . يفسر « لوفين » هذه النتيجة بالرجوع إلى فكرة « الحاجز القوى » الذى يضعه القائد لمنع زيادة مكانة الفرد فى الجماعة[٣]. ولكن أليس ثمة عوامل أخرى؟ . أليس من الممكن أن تشجع القيادة الاستبدادية انتكاص أفراد الجماعة إلى حالات من الاعتماد على الغير؟ . أليس من الجائز أن ينزل بعض الأفراد ، بمحض إرادتهم ، عن الرغبة فى المكانة والاستقلال ، نظير ما تهيئه الجماعة لهم من حماية وأمن ؟

وبهذا الصدد ، يلاحظ « لبيت » ، وهو أحد المشرفين على التجربة السابقة، « أن الأطفال فى الحضارة الأمريكية يميلون إلى إبداء رضاهم عن سيطرة

---

(١) Chein, I., "Personality and topology", in *Twentieth Century psychology* (P.L., Harriman, editor), p. 96.

(٢) Lewin, K., Lippitt, R., White, R.K., "Patterns of aggressive behavior in experimentally created social climates", *The journal of social psychology*, X, 1939, pp. 271-299.

(٣) Lewin, K., *Resolving Social Conflicts*, p. 79.

البالغين على حياتهم الجماعية . بل إن ثمة مشاهدات تدل على امتعاض هؤلاء الأحداث كلما قام الإخصائيون الاجتماعيون والمربون المتحررون بقيادة الجماعة على أسس ديموقراطية »[1]. كذلك يشير « لبيت » إلى إحدى الجماعات التجريبية ذات القيادة الاستبدادية . فيقول : « لم تظهر المقابلات الفردية . فى غياب القائد ، أية بينة ، عند ما يقرب من نصف أعضاء النادى ، على وجود توتر مكبوت ناجم عن مثل هذه السيطرة » .

ويثير تفسير « لوفيين » ظاهرة الضحية فى الجماعات الاستبدادية . صعوبة مماثلة . يقول : « فى ظل الحكم الاستبدادى ، لا سبيل إلى زيادة المكانة الجماعية عن طريق تزعم الغير ، وكل محاولة للسيطرة على الغير يمليها أسلوب الحياة الجماعية . وبتعبير آخر . يصبح كل طفل فى نظر الآخر عدوًّا بالقوة ، مما يضعف مجالات القوى لديهم من تقويتها عن طريق التعاون . والأفراد تزيد مكانتهم فى الجماعة إذا ما اتفقوا على الفتك بأحد أترابهم »[2]. يوحى هذا التفسير بأسئلة منها : هل نقص فرص زيادة المكانة عامل عام فى عداء الجماعة . ومن ثمة فى ظاهرة الضحية ، كما يعتقد « لوفين » ؟ . أليس ينتج هذا بالأحرى عن غياب التعضيد الانفعالى والتوحد الإيجابى والروابط الموضوعية بالقائد ؟ . لقد لوحظ أن علاقة الفرد بالقائد الاستبدادى تتراوح بين « الاستسلام له والمطالبة الملحة باهتمامه » ؛ وقد يكون ذلك كله وسيلة يتوسل بها الفرد إلى توثيق عرى الروابط الشخصية بالقائد . أليس من الممكن أن يكون نقل العدوان الذى يشعر به الطفل نحو القائد المستبد ، من شخص القائد إلى فرد من أفراد الجماعة ، هو الحافز اللاشعورى فى ظاهرة الضحية ؟ ألا يكون هذا هو السبب فى ظهور فترات من التعاون والود على أعقاب التضحية ؟ فقد يكون التوحد الإيجابى بين الأفراد نتيجة للحقد المشترك والعدوان الموحد الهدف . وجدير بالذكر ، على ما يقول « لوفين » و « لبيت » و « وايت » ،

(١) Lippitt, R., "The morale of youth groups", in Civilian morale (G. Watson editor), *op. cit.*, p. 122.

(٢) Lewin, K., *Resolving social conflicts*, p. 80.

أن الطفلين اللذين ضحت بهما الجماعة ، كانا فيما سلف يتزعمانها ، وأن أحد الطفلين كان يحتل المكانة السوسيومترية الثانية ، فضلا عن تفوقه البدنى على أقرانه . أليس فى ذلك دليل على أن قادة الجماعة التلقائيين قد أصبحوا هدفاً للعدوان لأنهم أقرب من يمثل القائد الراشد ؟

وفى نفس التجربة ، تزك الضحيتان الجماعة إلى غير عودة . ويخلص « لوڤين » من هذا إلى نتيجة عامة هى أن « المبالغة فى السيطرة على الأفراد تجعلهم يتركون الجماعة »[١]. ولكن لنا أن نتساءل إذا كانت هذه النتيجة ضرورية . أليس من الأفراد من يبقى فى الجماعة رغم تعرضه للعدوان فيها ، ويستلزم بإثارة هذا العدوان إثارة خفية لاشعورية ؟ لتحليل أسباب هذا السلوك لا يكفى مجرد وصف القوى فى المجال السيكلوجى ، كما يفعل « لوڤين » بل يجب النظر فى عوامل الشخصية الشعورى منها وغير الشعورى ، بالإضافة إلى العناصر الجماعية . ويعمم « لوڤين » تعميماً آخر يمكن أن ننقده على نفس الأساس . يقول : « لقد أظهر الضحيتان ا و ب سلوكاً تسلطياً بعد معاناتهما من السلوك التسلطى . وهذا دليل على وجود صلة وثيقة بين التعرض للهجوم والقيام به »[٢].

وليس من المحال تحديد أسباب السلوك السلبى الذى يسلكه البعض فى الجماعة الاستبدادية وسلوك العدوان الذى يسلكه البعض الآخر فيها ، إذا ما نظرنا فى العوامل الشخصية ، التكوينى منها والوظيفى ، لدى القادة والأعضاء . تدل دراسة تمهيدية ، قام بها « روزنتفايج » و « ساراسون » (ويذكرها » ميرفى «) ، على أن المميزات الثلاثة التالية تجنح إلى الظهور فى نفس الأشخاص : (١) الميل إلى الكبت ؛ (٢) القابلية للإيحاء ؛ (٣) قبول الحرمان دون عدوان[٣].

---

(١) Lewin, K., "Frontiers in group dynamics : Concepts, method and reality in social science; social equilibria and social change", *Human Relations*, I, 1947, p. 23.

(٢) *Ibid.*,

(٣) Murphy, G., *Personality*, p. 562.

وقد زاد الميل أخيراً، بين أتباع « لوڤين » إلى الاعتراف بالحوافز الداخلية وبتاريخ حياة الأفراد . ويقترح « ثيلين » و « يتهول » دراسة ديناميات الجماعات على نحو جديد من الشيق ذكره ، يقول المؤلفان : « إن دراسة ديناميات الجماعات تسيطر عليها المحاولات النظرية المبتورة التي تستهدف تصنيف أنواع السلوك تحت عناوين هي حل المشاكل، وأداء الأدوار ، والقيم ، والتورط الشخصي والجو الجماعي وما إلى ذلك . ونحن نقترح أن نبدأ بالملاحظة الداخلية وبغيرها من طرق جمع المعلومات الخاصة بالعالم الباطني . إذ ذاك ، تبرز للعيان بعض جوانب الموقف التي يُشار إليها عادة إشارة عابرة، فتصبح موضوعات تعالج من الناحية الموضوعية التحليلية ، بينما يبقى جانب ضئيل من جوانبها الوصفية ضمن نطاق العالم الباطني . فنظريتنا تربط إذن بين إطاريْ الإحالة ، الخارجي والداخلي ، وفقاً لمبدئين هما :

السلوك — هو دالة للشخصية والبيئة « لوڤين » .

التفاعل — هو العلاقة بين الأحوال الداخلية والخارجية « ديوى »[1].

وإنا لنعتقد أننا نزيد البحث في مجال العلاقات الجماعية خصوبة ، إذا ما جمعنا بين الطرق التجريبية التي ابتدعتها « نظرية المجال » عند « لوڤين » وبين المفاهيم التحليلية في علم النفس الجماعي . إذ ذاك ، تسهم « نظرية المجال بمفاهيمها وخبرتها المنهجية في ديناميات الجماعات ، بينما يتقدم المحللون النفسيون بفروضهم التكوينية وبذخيرة معرفتهم بالنوازع والحيل اللاشعورية .

فن خدمة الجماعة

فن خدمة الجماعة من التطورات الأخيرة للخدمة الاجتماعية . هذا الاتجاه ترتد أصوله إلى ميادين نشاط الترفيه ووقت الفراغ . وفي ١٩٣٥ ، كان الاتجاه نفسه يحدد بأنه فرع من فروع الخدمة الاجتماعية ، فرع « معادل في جوهره

(١) Thelen, H.A., Withall, J., "Three frames of reference : The description of climate", *Human relations*, II, 1949, pp. 159-176.

للميدان الذى يشغله نشاط وقت الفراغ »(١). فى ذلك الحين كان المجلس القومى للتربية والترفيه يوصف بأنه المؤسسة الرئيسية التى تجمع شمل المشتغلين فى هذا الميدان والتى اعترضت بقوة على استخدام عبارة « فن خدمة الجماعة » . ولم تمض على ذلك سنتان حتى كانت الخدمة الجماعية تعرف بأنها « عملية تربوية يتولاها قائد الجماعة إبان وقت الفراغ ، ويكون مكانها عادة جماعات المتطوعين . وهى ترمى إلى نمو الأشخاص وتطورهم عن طريق تفاعل الشخصيات فى المواقف الجماعية ، كما تستهدف خلق المواقف الجماعية التى تهيئ عملا موحداً يتعاون الأفراد على أدائه تحقيقاً لغايات مشتركة »(٢). فثمة نقلة واضحة من النظر إلى الخدمة الجماعية بوصفها مجالا تلتقى فيه الجهود إلى دلالتها على طريقة أو عملية تُطبق على عدد كبير من المجالات .

وقد ظهر أخيراً تقرير عن « المؤهلات الأساسية للمشتغلين بالخدمة الجماعية » ، سردت فيه المعايير الجوهرية التالية : « (ا) معرفة المرء بنفسه (وعى القائد بنفسه) ؛ (ب) معرفة نفسية الفرد ؛ (حـ) تفهم الديناميات داخل الجماعة وبين مختلف الجماعات »(٣).

فالاهتمام قد انتقل بالتدريج من برامج شغل أوقات الفراغ إلى نمو شخصية أفراد الجماعة . وبدلا من توفير مختلف أنواع النشاط « من أجل » الجماعة ، هناك اتجاه إلى العمل " مع " الجماعة ، وإلى معاونتها على إشباع الحاجات الفردية والجماعية .

وقد تأثر فن خدمة الجماعة ، منذ نشأته ، بالمفاهيم النظرية التى وضعتها العلوم الاجتماعية . يقول « كايزار » : « ليس فن خدمة الجماعة علماً ، وإن كان ينبغى أن يقوم على المعرفة العلمية وعلى فلسفة فى الحياة . وتستمد هذه المعرفة من العلوم النفسية والاجتماعية خاصة ، وهى لا تنفك أن تندمج شيئاً

---

(١) *Social Work Book.* New York, Russell Sage Foundation, 1935, p. 458.

(٢) *Ibid.*, 1937, p. 461.

(٣) "Basic qualifications for professional workers using the group work method", *The group*, XI, 1949, p. 13.

فشيئاً بالمفاهيم، والنظم التى توجه فن خدمة الجماعة وتجعل منه مهنة مستقلة »[١].

وقد قامت الخدمة الجماعية أول ما قامت، على مكتشفات علم الاجتماع والخدمة الاجتماعية والتربية المتحررة والعلوم السياسية . وقد تأثرت أخيراً بالمفاهيم السيكولوجية وبمفاهيم الطب النفسى . يقول « بيرجيه » : « إن تأثير مفاهيم الطب النفسى فى مجال فن خدمة الجماعة يحتل مكانته الجديرة به ، وفى بعض المواضع يحل بالتدريج محل نظريات الاجتماع والترفيه التى غذت مهنتنا »[٢] وبجانب هذا ، يبدى إخصائيو الجماعات اهتماماً متزايداً بآخر تطورات علم النفس الاجتماعى ، ولا سيما ديناميات الجماعات عند « لوفين » .

ويدل آخر ما كتب فى هذا الميدان على الاهتمام الكبير بالعوامل الانفعالية التى تدخل فى السلوك الفردى وفى العمليات الجماعية . ويهيب « كويل » بالإخصائى الجماعى « ألا يغفل عن متابعة برنامج الجماعة والعلاقات الاجتماعية فى نفس الآن ، بل يتعين عليه أن ينفذ ببصره إلى ما وراءها ، لكى يدرك معنى كل منهما بالنسبة لأعضاء الجماعة . . . إن المنهج الحديث فى التعامل مع الناس يقوم على الاعتقاد بأن السلوك عرض من الأعراض »[٣]. ويرتئى « تريكر » « أن جوهر الجماعة وأهميتها لا ينفصلان عن العلاقات التى تربط بين أعضائها ، لا ينفصلان عن القبول المتبادل والكيفية الانفعالية للخبرات الفردية . وهو ينظر إلى العلاقة الاجتماعية من الناحية الوجدانية ، باعتبارها تفاعلا ديناميًّا بين القائد والجماعة من ناحية ، وبين أعضاء مختلف الجماعات من ناحية أخرى »[٤].

ولعل كتاب « ولسون » و « رايناالد » ، المعنون باسم ممارسة فن خدمة

---

(١) Kaiser, G.A., "Current frontiers in social group work", in *Proceedings of the National Conference of social work*, 1948, p. 422.

(٢) Berger, G., "The group worker and psychiatry". *The American journal of orthopsychiatry*, XIX, 1949, p. 455.

(٣) Coyle, G.L., *Group work with American youth*, p. 30.

(٤) Trecker H.B., *Social group work : Principles and practicles*, p. 12.

الجماعة[١]، هو أبعد المحاولات طموحاً للإفادة من تعاليم علم الاجتماع المعاصر وعلم النفس الاجتماعي والتحليل النفسي، في ميدان الخدمة الجماعية، وكفى الكتاب قيمة أنه يدلل على أن أهداف الخدمة الجماعية هي عين أهداف الصحة العقلية. بيد أن بالكتاب عدداً من المآخذ أهمها فشله في التمييز بوضوح بين ما أسهم به منوع المذاهب النظرية. ثم إن القارئ لا يلبث أن يواجه حشداً من الصيغ التي لا تخلو من تناقض. مثال ذلك قول المؤلفين إن « الكائن الإنساني يولد وبه ثلاثة دوافع أساسية هي حفظ الذات وحفظ النوع والدافع إلى المساهمة في حياة الجماعة »[٢]. هذه الصيغة لا تتفق وفروض التحليل النفسي؛ غير أن المؤلفين يضيفان إليها فكرة أخرى تتسق وهذه المبادئ ولكنها تناقض الصيغة السابقة مناقضة جزئية على الأقل. تقول هذه الفكرة بخروج الطفل الرضيع من حالة المركزية الذاتية إلى حالة « يربط فيها بين إشباع حاجاته ووجود الكائنات الإنسانية الأخرى. فإذا استقبل بالحب، استطاع أن ينمي في نفسه القدرة على تكوين العلاقات الاجتماعية »[٣]. إذا صح أن الفرد يولد وبه ما يدفعه إلى حياة الجماعة، فما الجدوى في جعل الأحوال البيئية مسئولة عن نفس هذا الدافع؟ كذلك يتساءل « كندلسبيرجر »، في نقده كتاب ممارسة فن خدمة الجماعة، عما إذا كان بناؤه النظري سليماً، مظهراً شكه في نجاح مؤلفيه في التوفيق بين مختلف المدارس التي يعرضان لها. يقول: « ومع ذلك كله، يبقى أن الاهتمام موجه إلى التركيب الداخلي للشخصية، وأن الجمع — داخل نطاق سيكولوجية واحدة — بين العوامل الداخلية والخارجية، أمر لم يتحقق بعد »[٤].

---

(١) Wilson, G., Ryland, G., *Social group work practice*, Boston : Houghton Mifflin Co., 1949.

(٢) *Ibid.*, p. 42.

(٣) *Ibid.*

(٤) Kindelsperger, W.L., from a review of G. Wilson and G. Rylead's *Social group work practice*, in *Journal of social casework*, XXXI, 1950, pp. 24-212.

والإخصائيون الجماعيون المدربون فى مركز يتيح لهم مواصلة البحث فى ميدان السلوك الجماعى ، ذلك لأنهم يستطيعون التردد ، دون ما صعوبة ، على عدد كبير من الجماعات المنوّعة ، التى تتراوح بين الزمر التلقائية فى النوادى ، والمنظمات المحددة الأهداف ، باختلاف حجمها ونوعها . ثم إنهم يملكون الوسائل الفعالة التى تحقق للأفراد والجماعات الدرجة القصوى من النماء والتطور .
ولا ريب أن البحث فى مجال علم النفس الجماعى يزيد خصوبة إذا عهد به إلى فرق الإخصائيين فى فن خدمة الجماعة ، بدلا من القيام به فى نطاق العلاج النفسى الجماعى . ذلك لأن الجماعات العلاجية تعقد دراسة العمليات الجماعية الشاملة ، نظراً لطابعها المتغير . فهى معدة لقبول أفراد يشكون من الاضطرابات العصابية ، وهى ترمى إلى « إصلاح ما فسد » .

غير أن أهم المهام التى يستطيع المختصون فى فن خدمة الجماعة الاضطلاع بها هى توسيع مجال نشاطهم ، بحيث لا يقتصر على معاونة الأفراد فى منظمات الشباب ، بل يمتد إلى المصنع والمستشفى والملجأ ، ولا سيما إلى الفصول المدرسية . وهكذا يصبح فن خدمة الجماعة قوة عظمى تعمل على نشر الصحة العقلية ، حيثما تجمع الناس فى شكل جماعات متميزة .

الفصل التاسع

التحليل النفسى والتربية

التحليل النفسى والتعليم

أثارت تعاليم « فرويد » منذ البداية اهتماماً ملحوظاً لدى المشتغلين بالتربية فى أوربا وأمريكا . وقد اتجه كثير من المعلمين السابقين إلى العلاج التحليلى ، وبعضهم يشغل اليوم مكان الصدارة بين المحللين النفسيين . وعمل غيرهم على نقل المبادئ والطرائق الجديدة إلى الفصول المدرسية . منذ ١٩٠٩ ، عقد « فرويد » مقارنة بين التربية المعاصرة له ، التى تستهدف « كبت الغرائز » ، وتلك التى ترمى إلى « تمكين الفرد من أن يصير عضواً متحضراً نافعاً ، بأقل ما يمكن من تضحية لنشاطه الذاتى »[١] . وقد ظهرت منذ ذلك الحين ، فى مجال « التربية التحليلية » محاولات نظرية وعملية عديدة ، تعرض لها « هوفر »[٢] بالوصف .

كانت أولى التجارب تتلخص فى تحويل دار الحضانة أو الفصل المدرسى إلى معمل تحليلى . وقد فشلت هذه التجارب ، رغم إغراقها فى الحماس . ومرجع هذا الفشل الفكرة الخاطئة القائلة بأن تجنب « كبت الغرائز » عند الأطفال يقتضى بأن يترك لهم الحبل على الغارب . ولما تحول البحث التحليلى من الاهتمام بالهو إلى الاهتمام بالأنا ، تبعته المدارس التربوية التحليلية ، وبدأت تؤكد أهمية فرض القيود على المسلك الاندفاعى والحاجة إلى ضوابط الأنا على وجه العموم . فصار ينظر إلى التربية بوصفها عملية يقوم فيها الوالدان والمعلمون ،

(١) Freud, S., "A phobia in a five year old boy", *Collected Papers*, III, p. 287.

(٢) Hoffer, W., "Psychoanalytic education", *The psychoanalytic study of the child*, I, 1945, pp. 293-307.

ممثلو المجتمع ، بمعاونة الطفل على التخلى فى أعماله عن « مبدأ اللذة » وتوجيه حياته وفقاً « لمبدأ الواقع » . وهو يتضمن تنمية قدرات الأنا على مواجهة الدوافع والحواجز الباطنية (الهو والهو الأعلى) وكذلك مطالب البيئة ، مواجهة فعّالة . وينصح التحليل النفسى المعلمين الآن بضرورة وزن التسامح فى الفصول — الحرية فى نطاق معين — مع التجاوز بالنسبة لمختلف الحاجات النفسية المميزة للجماعات المتفاوتة الأعمار . وثمة تحذير أيضاً من الإفراط فى التساهل وإثارة ميول الأطفال لاندفاعية من جهة ، ومن الكبت والحرمان المباغتين الجارفين من جهة أخرى . وبينما كان الاتجاه الأول يجنح إلى تفسير المضمون اللاشعورى من نوازع سلوك الطلبة . نسمع الآن عن الأخطار الناجمة عن رفع الكبت والحيل الدفاعية ، ما لم يكن عن قصد مبيت خلال العلاج النفسى .

وقد أشرت فى موضع آخر[١] إلى أن جل الكتابات التحليلية التربوية ، تهمل العوامل الجماعية فى الفصول ، قاصرة همها الأكبر على الطفل المنعزل فى علاقته بالمعلم . وبجانب هذا ، كثيراً ما ينسى الخبراء النفسيون الملحقون بالمدارس أن الفصل جماعة وأن المعلم قائدها . وفى حالات عدة ، إذا ما أهملت العناصر الجماعية ، يجد المعلم أن من المحال عليه تنفيذ مقترحات الطبيب النفسى فيما يتعلق بمعاملة الأطفال الفرادى . أضف إلى هذا ، أن فى قصر الاهتمام على الأفراد ، فقداناً لإمكانيات الصحة العقلية ، لأن من الأيسر التأثير فى الناس داخل الجماعات .

(١) Scheidlinger, S., "Group factors in promoting school children mental health." Paper read at the Annual Conference of the American Orthopsychiatric Association, February 1951.

العوامل الجماعية فى الفصل المدرسى

يتميز الفصل المدرسى بوجود شبكة معقدة من التفاعلات بين الأفراد بعضهم وبعض وبين التجمعات الداخلية . وتتألف العلاقات من القبول والحب والكراهية والنفور ، وهى تتفاوت جميعاً من حيث الشدة ، ولا تنفك أن تخضع للتغير والتطور . وعند ما يتشكل الفصل المدرسى ، تتجلى أول عناصر التماسك فى الجماعات الداخلية القائمة على الصداقة والاهتمامات التلقائية ، التى تربط بين قلة من الأطفال ، ثم تتدرج الأمور ، ويشعر الأطفال بشخصية المعلم ويستجيبون لها ، كما يستجيبون للون الانفعالى السائد لأهداف الفصل وبرنامجه . فينمو الروح الجماعى ويعم الجماعة بأسرها . وفى هذه الأحوال تزيد إشارة التلاميذ إلى أنفسهم بقولهم « نحن » و« فصلنا » . وطالما تشبع الجماعة حاجات الأطفال الجوهرية ، تزيد قيمتها وأهميتها بالنسبة لكل فرد من أفرادها وهذا يزيد بدوره من ثبات الجماعة وقوة دوافعها * .

وبازدياد شعور الانتماء إلى الجماعة ، يظهر فيها بعد حين بناء معين ، هو الطريقة التى تنظم بها الجماعة حياتها اليومية ؛ فتقسم المسئوليات وتوزع الأدوار وفقاً لكل من الحاجات الداخلية والأمانى الجماعية . وقد يكون الدور الذى يؤديه الفرد وسيلته إلى المكانة الجماعية ، لذلك يتمسك به الفرد بعناد (رغم سخط المعلم ، إذا كان فيه إخلال بنظام الفصل) ، لأن هذا هو عين ما يتوقعه أترابه منه .

والجو الجماعى عامل جوهرى فى تحقيق الصحة العقلية فى الفصل ، وهو لا يقل أهمية من حيث تشجيعه الأطفال على التعلم الفعلى . وقد يصير جزءاً من أهداف الجماعة ، إذا كان برنامج الدراسة ملائماً لحاجات الأطفال وكان الأطفال قد اشتركوا فى وضعه . وهذا يؤدى إلى تعزيز الروح المعنوى ، ما دام

* من الملاحظ أن أطفال دور الحضانة يؤلفون جماعات منتقاة مؤقتة ، على حين يصعب على الأطفال دون التاسعة أن يدخلوا فى روابط جماعية ثابتة ، تشمل الفصل المدرسى بأسره .

يتوفر فى الجماعة التعبير الذاتى والمشاركة والمساهمة فى المسئولية الجماعية . ويزيد تماسك الجماعة ، حين تظهر بوادر التوفيق فى البلوغ إلى الهدف المعين . وهذا لا يكون إلا إذا كانت طبيعة الهدف تسمح للأطفال بالوصول إليه وهم يتمتعون بالقسط الأوفى من الاستقلال ، ودون معاناة من الحرمان المفرط ، وتقوى الحوافز الجماعية ، حين تحدد الجماعة أهدافها القريبة بالنظر إلى الأهداف البعيدة التحقيق ، والأفراد يتمثلون القيم والاتجاهات تمثلاً سريعاً إذا كانت قيماً جماعية .

ولا ريب أن استخدام هذه العناصر الدينامية الجماعية فى التعليم ؛ عملية معقدة طويلة ، وإن كان — كما يقول بعض المعلمين — من الممكن الحصول على النتائج المرضية باستخدام الطرق المألوفة — الضغط والتهديد وإثارة التنافس بين التلاميذ — فإن دعوانا تقول بأن المعرفة المفروضة من أعلى على هذا النحو ، تكون أقل قيمته ودواماً . فضلا على أنها تتحقق على حساب إضعاف ثبات الجماعة و إقدام الفرد واكتمال شخصيته .

يتضح من مناقشتنا فى الفصول السابقة ، أن الروح المعنوى المميز لجماعة ما ، يخضع لتقلبات تفرضها العوامل المنوعة . وسوف نعرض الآن لبعض نتائج هذه الفكرة إذا طبقت على إدارة فصل مدرسى معين . قد تنشأ الصعوبة عن تصارع جماعتين أو أكثر من الجماعات الداخلية ، بحيث يصبح وجود الجماعة مهدداً بالزوال . وكثيراً ما يشعل نيران الصراع ، قادة الزمر المتنافسين . ولما كانت الجماعات الداخلية عنصراً ضرورياً لأية جماعة ، لم تكن المشكلة هى كيفية القضاء عليها ، بل كيفية التوفيق بين أهدافها وأهداف الجماعة الكبرى . ويستطيع المعلم ، بعد تشخيص الأسباب القريبة للصراع ، أن يستعين فى مواجهة الموقف بعدد من الحيل ، فقد يرى أن لا حاجة لمواجهة الزمر مواجهة مباشرة ، وأن رحلة أو حفلة أو مشروعاً جماعياً جديداً ، يكفى لتعزيز تماسك الجماعة . وقد لا يكون هذا كافياً فى بعض الأحيان ، فيتعين عليه إذ ذاك التوجه إلى كل زمرة على حدة ، أو إلى بعض أفرادها من ذوى السلطان .

وفيما يلى مثال لنزاع خطير شب بين مراهقتين متنافستين وزمرة كل منهما .

وقد أفضى النقاش الحر الذى دار بينهما إلى تسوية هذا النزاع إلى حد ما . بدأ النقاش بملاحظات سطحية عن أهمية التعاون ، ولكن سرعان ما أرسلت البنات أنفسهن على سجيتها ، وتطور النقاش إلى التعبير العنيف الصادق عن مشاعر عدوانية مدارها الشخصان الرئيسيان فى النزاع . وقالت طالبة وديعة هادئة الطبع : « إنك يا " برتا " تخيفيننى ، أنك تجعليننى أشعر بأنى كالخرقة البالية » . وأيدتها بعض زميلاتها ، معددات شكاواهن ضد « برتا » . كذلك اتهمت « سوفى » بأنها حقودة انتهازية ، ولم تلبث « سوفى » أن اعترفت بعد هنيهة بأنها و « برتا » وبعض التلميذات الأخريات ، مسئولات عن إتيان بعض الأعمال « السيئة » ، مثل النميمة التى تهدف إلى جذب انتباه بعض الصبيان فى الفصل . هذا النقاش لم يؤد إلى حل المشكلة الجماعية ذاتها ؛ ومع ذلك أخذت العلاقات تتحسن على أعقابه . ولكن الأمور تتعقد إذا نشأ الصراع عن وجود المرضى النفسيين بين الطلبة . فقد يقتضى الأمر إذ ذاك الاستعانة بالعلاج النفسى ، بجانب استخدام وسائل التوجيه الجماعية فى الفصل .

فلننظر الآن فى حالة لا تصلح فى علاجها الطريقة التى استخدمت فى الحالة السالفة . ذلك لأن تطبيق هذه الطريقة أو مثيلاتها يستلزم أن يقوم المعلم بتقدير دقيق لقدرة الطفل على تحمل ضغط الجماعة ، قبل إطلاق العنان له . وتعرض المرضى النفسيين من الأطفال لنقد الجماعة أو لعدوانها المشترك ، دون أن يجدوا فى المعلم عضداً لهم ، يزيد اضطراباتهم النفسية حدة .

كان « جون » حدثاً طويل القامة ، حسن التكوين ، يتخوف الاتصال بأترابه رغم صغر سنهم بالنسبة إليه . وإذا شعر بأقل قدر من الحرمان ، أخذ فى الصراخ ، وفقد سلطانه على نفسه ، وضرب الأشياء والأشخاص من حوله ضربات عشواء . وتعقب هذه السورات حالة من التبلد والعبوس . وقد أرسل الطفل للعلاج لدى الطبيب النفسى . وفى عدد من المناسبات ، حاول أتراب « جون » الهجوم عليه ، لا سيما بعد أن دمر فى سورة غضبه بعض ما يملكون . فكانت المعلمة تنجح فى ردهم وإقناعهم بالعمل على إصلاح أحواله داخل

الجماعة . وذات مرة تغيبت المعلمة ، وحلت محلها معلمة أخرى لم تفهم الموقف على حقيقته ، فشجعت الطلبة على انتقاد « جون » فى حضرته . ولم تمض على هذا الوضع دقائق معدودات ، حتى بدأ الطفل يبكى وغادر الفصل والمدرسة عدواً . ثم أبى أن يعود إلى المدرسة وبقى بالمنزل ثلاثة أسابيع ، كان يسلك إبانها مسلكاً منتكصاً . يتبين من هذا أن « جون » لم يكن متأهباً لهذا الأسلوب من أساليب معالجة الموقف . ولنقارن هذه الحالة بالحالة التالية كما سجلتها معلمة فى السنة الأولى :

« فى ديسمبر ، أقبل " كارل " شاكياً من أنه لا يحب أن يضربه " فرد " ، وقد شعرت أن فى استطاعة " فرد " أن يتحمل نقد الجماعة ، فاقترحت بحث الأمر فى الوقت الذى يخصص عادة للمناقشة . إذ ذاك أبدى جميع الأطفال استهجانهم لمسلك " فرد " . وحين طلبت من " فرد " إن كان يريد أن يقول شيئاً ، صاح : " إنهم لا يحبوننى " . فأجاب معظم الأطفال بأنهم يحبونه كثيراً ولكنهم لا يحبون ضربه " كارل " . فغض " فرد " من طرفه قائلا : " ليس صحيحاً ، إنهم يدعون أنهم يحبوننى " . وأصر الأطفال أنه خاطئ ، فأغلقت باب النقاش . ومن ذلك الحين ، تغير مسلك " فرد " تغيراً عظيماً . وقد ظل الوقت ما يقوم بدور " الشرطى " ويضرب " الخارجين على القانون " . ولم يدم هذا السلوك طويلا ، وأصبح " فرد " طفلا متكيفاً مع أترابه وعضواً إنشائياً فى الجماعة » .

وقد تكون الصعوبات الناشئة بين المعلم وقادة الفصل التلقائيين ، مصدراً من مصادر الخطر الذى يتهدد روح الجماعة المعنوى . والواقع أن بعض هؤلاء القادة يدخلون فى عداد مرضى النفوس ، وأنهم يعوضون عن نقصهم بتزعم الغير . فهم لذلك يصطدمون بالمعلم إذ يحاولون إقصاءه عن مركز القيادة . غير أن معظم قادة الجماعة لا ينتمون إلى هذه المقولة ، بحيث يستطيع المعلمون أن يجنبوا الجماعة وأنفسهم قلاقل البال ، إذا هم عملوا بالاشتراك معهم ، لا بالرغم منهم . ويجب على المعلم ، فى حالة المرضى من القادة ، أن يسرع فى علاج الموقف ، لأن استطالة الصراع مضرة بالجميع .

قام إشكال من هذا القبيل بين طالبات السنة الرابعة . كان من الواضح أن « ستيلا » وصديقتها المقربة « كارول » تتزعمان سائر الطالبات . وقد قررتا فى أثناء أحد الاجتماعات « السرية » العديدة التى تعقدها البنات فى هذه السن ؛ أن ينشأ « ناد » فى الفصل تستبعد منه طالبتان هما أضعف وأجبن الطالبات (وهذا الاستثناء صفعة للمعلمة التى اشترطت على الطالبات من قبل أن يشركن الجميع فى نشاطهن المدرسى) . ورجعت الطالبتان المستبعدتان إلى البيت تبكيان ، وسرعان ما طلب أهلهما من المعلمة أن تضع حداً لاضطهادهما . فكان ثمة إشكال جماعى يقتضى دراسة دقيقة . فقامت المعلمة بالنظر فى تاريخ كل من التلميذات وتاريخ الفصل فى مجموعه . وتبين إذ ذاك أن شخصية « ستيلا » تختلف عن شخصية « كارول » تمام الاختلاف . كانت الأولى أنانية ، غير مستقرة ، معادية للبالغين (ولا سيما لأمها وغيرها من النساء) ، لا تربطهما أواصر الصداقة بأحد سوى « كارول » . ولم تكن « ستيلا » محبوبة ، ولم يسبق لها أن تزعمت غيرها من قبل . ولكنها توصلت إلى مركزها هذا أخيراً عن طريق الأساليب الماكرة الملتوية التى يستخدمها الساسة الوصوليون . وقد دلت المناقشات العرضية مع البنات على خوفهن من معارضة « ستيلا » ، لأنهن يخشين ثرثرتها وحيلها السرية التى تقلب بها الأخريات على من يعارضها ، أما « كارول » فقد تبين أنها فتاة هادئة مخلصة ، صادقة فى حبها للغير . وبالرغم من احترام البنات لها وعلو مكانتها بينهن ، إلا أنها لم تكن تثق بنفسها ، وكانت تفتقر إلى من تركن إليه ، فيكون لها عضداً ووكيلا . وفى اختيار سوسيومترى طبقته المعلمة ، لم يقع الاختيار على « ستيلا » إلا مرة واحدة ، كان ترتيبها فيها الأولى (اختيار متبادل مع « كارول ») ، ومرة أخرى جاء ترتيبها الثانى . هذا الاختيار الأخير ، قامت به طالبة سلبية الطبع ، تميل إلى تملق من بيدهم السلطان . أما « كارول » ، فقد فازت بأربعة تفضيلات من الدرجة الأولى (استجابت لثلاثة منها) وبتفضيلين من الدرجة الثانية . ومن ثمة اتضح ما ينبغى على المعلمة عمله : أن تعضد « كارول » فى

مركز القيادة وأن تساعدها على أداء هذا الدور على نحو ديموقراطى ، وأن تمكن الطالبات ، فى الآن نفسه ، من التحرر من سلطان « ستيلا » . وسرعان ما سنحت للمعلمة فرصة لتنفيذ هذه الخطة . حاولت « ستيلا » أن تقنع بنتاً أخرى بالامتناع عن دعوة زميلة لهما إلى حفلة عيد ميلاد كان قد تقرر إقامتها من قبل . وتناهى الأمر إلى علم الزميلة ، فاشتكت إلى المعلمة ؛ واقترحت المعلمة طرح المسألة على الجماعة للنقاش . فكان الاجتماع نقطة تحول فى حياة الجماعة . فقد انتقدت البنات « ستيلا » لسوء مسلكها ، وهاجمتها بالقول ، فيما عدا « كارول » التى لزمت جانب الصمت . وقد أدى ذلك إلى زيادة مكانة المستضعفات من البنات زيادة كبرى ، لأنهن استطعن التنفيس عما يخبئن فى صدورهن . وعلى أثر انفضاض الاجتماع ، أقبلت « ستيلا » على المعلمة وهى تبكى ، فهدأت المعلمة من روعها وجعلتها تعترف بأنها تعانى من مشكلة خطيرة قبلت أن تتناولها بالنقاش مع الخبير النفسى المدرسى .

وليس كل صراع جماعى يدل بالضرورة على ضعف الروح المعنوى فى الجماعة . فالمناقشات واختلاف الرأى فيما يتعلق بتوسع أهداف الجماعة أو استهجان سلوك بعض أفرادها ، قد يؤدى إلى نتيجة عكسية ، كما هى الحال فى المثال السابق .

وثمة عامل من عوامل تناسق الجماعة ، ولا سيما الجماعة المدرسية ، لم يحظ بقسط واف من الاهتمام . فمن مصادر قوة الأنا وجود عدد محدود من التقاليد الجماعية . مثال ذلك ، رسم حدود حركة الطلبة داخل المدرسة أو بالقرب منها ، وتحديد القواعد الخاصة بالسلوك فى جمعيات الطلبة أو فى الملعب ، ووضع أساليب استعمال الأدوات والآلات فى المعامل والدكاكين . فإذا ما وجد مثل هذا النمط السلوكى ، كان أيسر على الطفل أن يقتفيه ، بدلا من أن يستخرج من نفسه معايير السلوك .

وليس من الضرورى أن نكرر مناقشة عناصر التماسك الجماعى التى

سردناها فى الفصل السادس . فهى تنطبق كلها على الفصول المدرسية أيضاً .
والفصول المدرسية ، بوجه عام، ليست بالضرورة جماعات محكمة النسج ،
وإن كانت كذلك فهى ليست بالضرورة ديموقراطية البناء أو ذات قيمة من حيث
الصحة العقلية . والمعلم يشغل مركزاً حاسماً يؤثر منه فى جو الجماعة وأهدافها
وبنائها . والأطفال يفتقرون إلى من يعلمهم كيف يستخدمون الأساليب
الديموقراطية ، وذلك عن طريق الخبرات الجماعية السديدة .

أدوار المعلم ووظائفه

يقوم المربون ، بالنسبة للمشرفين عليهم ، بضروب منوّعة من الأدوار ،
إلى جانب الدور أو الأدوار التى يحاولون أداءها شعورياً . فهناك بادئ بدء ،
صورة المعلم المتوهمة ، وهى لاتنمتأ تتغير ألوانها كالحرباء ، وفقاً لرغبات كل طفل؛
فمن لم يسمع عن أحداث الفصل أو عن حياة المعلم الغرامية ، أشد القصص
إغراقاً فى الخيال ؟ وللبالغين أيضاً أفكارهم عمن هو المعلم وعما ينبغى أن يكون ،
وهى عادة صور من النماذج الثقافية الجامدة .

وبالإضافة إلى ما سبق، يؤدى المعلم بالفعل مختلف الأدوار فى مختلف
المواقف . ومن الجدير أن نتناول هذه الأدوار بشىء من النقاش .

١ ــ موضوع الحب أو الكراهية : يكون المعلم فى هذا الدور ، قابلا
للمشاعر الموجهة نحوه بوصفه شخصاً حقيقياً فى حياة الطفل . ويتراوح
الإيجابى من هذه المشاعر بين الصداقة والاصطدامات الفعلية ، والسلبى منها
بين النفور والكراهية . ولكن قد يكون بعض هذه المشاعر ، مشاعر واتجاهات
محولة من العلاقات المبكرة إلى شخص المعلم (تحويلات) . وقد بينا ذلك فيما
سبق .

٢ ــ موضوع التوحد : قد يكون التوحد قائماً على أساس من الحب
والإعجاب أو استجابة لدافع الخوف . ومن المذهل أن نشاهد كيف يأخذ

الأطفال بضروب السلوك والاتجاهات بل بالتصنعية المميزة لمعلميهم . هذه العملية هي إحدى الوسائل التي يتوسل بها المعلم إلى التأثير في قانون الجماعة الأخلاقي وجوّها . والأطفال يسلكون بعضهم بالنسبة لبعض ، مثلما يسلك المعلم بالنسبة إليهم ، فإذا ما اقتنعوا بإخلاص المعلم وتقبله إياهم ورغبته في معاونتهم ، سهل عليهم أن يقبلوا أن يعامل أترابهم في الفصل معاملة فردية ، على أساس قدراتهم وحاجاتهم الشخصية ، بدلا من المساواة الجافة ، وهم في قبولهم هذا يعلمون أنهم يستطيعون الحصول على نفس التعضيد ، إذا افتقروا إلى التعضيد يوماً ما . ومن الجلي أننا لا نرحب بأنواع التوحد السلبي (عن طريق الخوف أو الكراهية) لأنها تفضي إلى قدر كبير من الصراع الانفعالي ، ولما كان كل معلم يمثل نموذجاً مختلفاً من التوحد ، لم يكن من المستغرب أن يختلف مسلك الفصل باختلاف المعلمين . ويؤدي عدم اتساق موضوعات التوحد إلى البلبلة والحرمان ويمنع في النهاية تمثل الشخصية للمعايير والقيم .

٣ — مصدر العون : يتضمن هذا الدور وظائف المربي باعتباره عوناً وعضداً وعاملا مقيداً للسلوك أيضاً ، فقد يساعد المعلم الأطفال على تعزيز مكانتهم في الجماعة أو على زيادة تقديرهم لأنفسهم ؛ وقد يكون لهم عاملا من عوامل الطمأنينة لأنه يبدد من نفوسهم التصورات الخاطئة والمخاوف السطحية . كذلك يعمل المعلم على ضبط السلوك الممجوج بفرضه القيود في نطاق قانون الجماعة الأخلاقي . ولا بد من صرامة القيود إذا أصبح السلوك مضرًّا بالفرد أو بالجماعة ضرراً مباشراً ، ومن واجب المربي أن يوضح أسباب تدخله ، كلما كان التدخل ضروريًّا . ويكون التعضيد بمعالجة كل خرق لقانون الجماعة ، معالجة تغني الفرد عن الالتجاء للحيل الدفاعية الممجوجة ولا تزيد شعور القلق في نفسه . ويصدق نفس المبدأ على معالجة حيل الدفاع الجماعية وعلى الأساليب التي يتبعها المعلم والتي تهدد روح الجماعة المعنوي .

٤ — ناقل العرف : يمثل المعلم تقاليد المجتمع وقيمه . وهو ينقلها إلى تلاميذه عن طريق مواقفه الشخصية وعن طريق أفعاله أيضاً . وكون المرء ناقلا للقيم

لا يعنى ، من وجهة الصحة العقلية وديناميات الجماعة ، أن من واجبه أن يغصب الآخرين على قبولها . وقد يثير ذلك إشكالا خطيراً ، إذا كان قانون الجماعة الأخلاقى (كما هو الحال فى طور المراهقة) مبايناً لقانون البالغين كل المباينة .

٥ ــ مصدر العرفان : هذا هو أوضح أدوار المربى . وكونه مصدراً للعرفان يتضمن فكرة الأخذ بيد الأطفال فى التعليم وحل المشاكل . والتعلم لا يكون فعالا ، كما لاحظنا من قبل ، إلا بمقدار ارتباطه بالحاجات والنوازع الموجودة فى الجماعة . ولكن بعض المعلمين يسىء تفسير هذا الدور . فكم من معلم حاول أن يحقق الكمال الذى ينسبه الأطفال إليه بأن يصير « موسوعة سائرة على قدمين » ! . ومن المحال على المعلم أن يجيب على كل سؤال يوجه إليه ، بل من المجدى على الأطفال أن يتعلموا أن الراشدين كائنات إنسانية ناقصة .

٦ ــ المقيِّم : لا بد للمعلم من تقييم أفعال التلاميذ ومسلكهم ، على نحو من الأنحاء . ومن المهم أن يساعد المعلم الفرد ، من حين لآخر ، على تقييم ما يبذله من عون للآخرين . ثم إنه يجب أن يشجع الجماعة بأسرها على النظر فى التقدم الذى تقدمته نحو أهدافها الموضوعة .

٧ ــ الوسيط : الإشارة ههنا إلى تصارع الأفراد والجماعات الداخلية . والقدرة على الإحساس المرهف بالعناصر الدينامية فى الجماعة ، عامل هام فى تقدير أثر الصراع الداخلى فى روح الجماعة المعنوى . وفى بعض الحالات ، يتعين على المعلم أن يقوم بالتحكيم مباشرة ، بينما يكون من الأفضل فى حالات أخرى أن تعالج الجماعة الصعوبة بنفسها . وغنى عن البيان أن من واجب قائد الجماعة أن يتجنب التحيز فى الحالتين .

٨ ــ رمز القيم الجماعية : يمثل المعلم قيم الجماعة وآمالها ، بجانب تحديده للون الانفعالى فيها . وينطوى تحت هذه المقولة الدور الذى يؤديه المعلم بوصفه بديلا للمسئولية الفردية (الأنا الأعلى) . أضف إلى هذا أن المعلم هو ممثل الجماعة الخارجى . وهو يعمل على تحقيق أهداف الجماعة دون أن يتسبب

عن هذا التحقيق حرمان ليس ثمة ما يدعو إليه . وهو يجهد فى التوفيق بين مختلف أنواع النشاط ، مستهدفاً استقلال الفصل بمعالجة شئونه .

٩ ــ الناصح الصديق : يتطلب أداء هذا الدور أن يقابل المعلم الأطفال فرادى أو فى جماعات صغيرة . وقد يكون ذلك بناء على طلبه أو تلبية لمطلب التلميذ ، فتُناقش المشاكل الشخصية ولا سيما تلك التى تتولد عن الحياة الجماعية . والقائد ، فى هذه المقابلات ، يطمئن أو ينصح أو يقترح . وهو يدبر تحويل الطالب إلى مختلف الإخصائيين (من طبيين ونفسيين ومهنيين) إذا دعت إلى ذلك حاجة ملحة .

ومن الواضح أن الأدوار المعنية التى يؤديها المعلم ، تتوقف على عدد من العوامل منها أعمار الأطفال وما يصحبها من تباين الحاجات النفسية . وبوجه العموم ، كلما زادت أعمار الطلبة ، قلت الحاجة إلى تدخل المعلم تدخلا مباشراً فى شئون الجماعة وإدارتها . ومن الواجب كذلك النظر فى خبرات الطلبة السابقة . هل كان المعلمون السابقون متناغمين والجوانب الدينامية من الجماعة ؟ . هل شارك بعض الأطفال فى الجماعات الخارجية الموجهة مثل فرق الكشف والمعسكرات ؟ ولا ريب كذلك أن للفروق الثقافية دوراً تؤديه ، مثال ذلك ، إذا جاء الطفل من محيط أوربى يخلع على المعلم هالة من الألوهية ، لكان من المحال عليه أن يجعل من المعلم هدفاً لعدائه المباشر أو صديقاً مستأمناً يركن إليه .

بعض هذه الأدوار يقوى بعضه الآخر ، وبعضها يناقضه ، مما يخلق إشكالا ، بالنسبة للمرضى النفسيين من الأحداث على وجه التخصيص . فليس من السهل مثلا تقييد العدوان الموجه إلى المعلم ، مع الاحتفاظ باحترام الطفل كشخص مستقل لا سيما فى نظر أترابه . ويساعد على الخروج من هذا المأزق ، التنفيس عن المشاعر التى يثيرها فى نفس الطفل أدوار المعلم المتناقضة . وفى أحيان أخرى قد يقضى تجنيب الطفل بابلة الخواطر ، أن يتخلى المعلم عن دور من أدواره لأحد مساعديه أو لأحد الراشدين فى المدرسة .

وليس من المتوقع بالطبع أن يقوم المعلم بكافة أدواره بنفس المهارة . وقد يساعده على أدائها أن يكون واعياً بنوازعه فى مختلف أدواره . والأهم من ذلك كله أن يكون قادراً على فهم حاجات الأطفال الشعورية واللاشعورية ، وعلى الوقوف من الأطفال موقف الاحترام والقبول . وذلك لأن المعوّل عليه ليس الدور فى ذاته أو طريقة الأداء وإنما المشاعر التى تستتر وراءها .

تفهم الجماعة المدرسية

توسعت المدارس أخيراً فى أهدافها ، بحيث لم تعد تقتصر على تلقين المواد المدرسية ؛ بل تعمل على خلق شخصيات متكاملة ، مما أدى إلى توثيق الأواصر بين المربى والإخصائى النفسى أو الطبى . وسوف نجمل فى هذا الباب بعض الوسائل التى لجأ إليها مثل هذا الإخصائى (المؤلف) بوصفه مستشاراً نفسياً جماعياً فى مدرسة تجريبية خاصة . « كان من الممكن التفرغ للسلوك الجماعى نظراً لتوفر إخصائى نفسى آخر تناول المشكلات التى تتطلب معالجة فردية » .

كانت جماعات الفصول تدرس بعناية مع مدرسى الفصل . فيناقش تكوين الجماعة وبرنامجها وجداول العمل واللعب فى اجتماعات دورية منتظمة .

وقد وجه اهتمام خاص إلى تغير علاقات الطفل المتبادلة مع غيره وتغير الدور الذى يؤديه . وضمنت الرسوم البيانية بناء الجماعة والجماعات الداخلية والقادة الطبيعيين ، على أساس ملاحظة السلوك الجمعى وتعليقات الأطفال التلقائية والتخطيطات الجماعية الدورية . وقورنت هذه المعطيات بالمعلومات الخاصة بالبيئة وبنتائج الاختبارات الإسقاطية . وكان الهم الأكبر منصباً على العمل من أجل تحقيق أفضل جو جماعى تتوفر فيه فرص إطلاق للشاعر والدوافع على سجيتها ، وما يصحب هذا الإطلاق من توجيه وضبط لا غنى عنهما . أما بالنسبة لأفراد الجماعة ، فقد حاولنا أن ندرس استجابتهم لمختلف نواحى الحياة المدرسية والبيئة المنزلية والاجتماعية . وتشمل هذه الدراسة النوازع اللاشعورية والحيل الفعالة فى علاقة الأطفال بالراشدين . وقدرات مواطن الضعف والقوة فى

الشخصية ، مع توجيه عناية خاصة إلى إمكانيات نمو الطفل عن طريق اشتراكه فى الجماعة ، وإمكانيات إفادة الحياة الجماعية منه . وقد حاولنا التنبؤ عمن سيكون محرضاً فى مواقف العدوى الانفعالية والعداء ، ومن سيكون الضحية فيها . وكان لا بد للمعلمين أن يلموا إلمامة إجمالية على الأقل ، بالوسائل الكفيلة بتخفيف النتائج السلبية لهذه الظواهر ، إن لم يكن منعها على الإطلاق . وقد عملنا أيضاً على تجنب المبالغة فى خلق التماسك الاجتماعى ، لأن فى ذلك ما يعوق التعبير الفردى ويمنع مخالفة قرارات الجماعة .

كانت الرسوم البيانية لكل جماعة مادة قيمة رجعنا مراراً إليها . فقد أتاحت لنا تقدير مدى صلاحية جماعة معينة لتقبل التلاميذ الجدد . وهكذا تجنبنا إلحاق الأطفال الجدد بفصل يجنحون فيه إلى زيادة صعوباته الموجودة فيه أصلا ، مثل الاضطهاد والعدوى السريعة والتحزب وما إلى ذلك . كذلك أصبح من الممكن نقل الأطفال إلى جماعات يسهل عليهم أن يشغلوا فيها مركزاً ملائماً لشخصيتهم . وكانت معرفتنا بالجماعة ككل ذات فائدة لا تقدر فى وضع الخطط الخاصة بمعالجة المشاكل الجماعية . إذ كان من الممكن الإحاطة بصورة الجماعة بأسرها ، بدل تركيز البحث ، تحت ضغط الوقت ، على جانب منعزل من جوانب المشكلة .

ولتقريب هذا إلى الأذهان ، لنأخذ مثالاً طبقنا فيه المنهج السالف الذكر على موقف جماعى معين ، تعاون على خلقه الإخصائى النفسى ومعلمة فصل أطفاله فى التاسعة من العمر . حكت هذه المعلمة ، أن إحدى تلميذاتها ، وتدعى « إريكا » جاءت إلى الفصل بعد ظهر أحد الأيام ، وسلمت لعدد من الأطفال مظروفات مغلقة ، كانت تبدو كأنها بطاقات دعوة إلى حفل ما . ولكن المعلمة ارتابت فى الأمر لما رأت أن « إريكا » لم توزع المظروفات على صديقاتها المقربات . وفى خلال فترة النشاط الحر ؛ أخذت البنات فى تأمل الرسائل بتمعن تلاه ضحك مكتوم وتهامس هائج . ثم نشب عراك بين إحدى البنات « ماجورى » وصبى التقط رسالتها التى ألقت بها فى سلة المهملات .

وأوقفت المعلمة الضوضاء بأخذ المظروف ووضعه فى درج مكتبها — ونُسى الحادث فى الظاهر . وحين انصرف الأطفال للعب خارج الفصل ، قرأت المعلمة مضمون الرسالة . كانت الرسالة أشبه بمعجم للمصطلحات الجنسية العامية ، الموضحة بالرسوم . وعقد اجتماع مع الإخصائى النفسى فى نفس الصباح ، استعرضت فيه العوامل الفردية والجماعية المهمة . واستقر الرأى ، بعد تقدير الحجج المؤيدة والمعارضة ، على أن تناقش المعلمة الأمر مع البنات مناقشة صريحة ، فى عصر اليوم نفسه . وقد وصفت المعلمة ما حدث فى الاجتماع على النمط التالى :

« عند ما رجع الأطفال إلى الفصل بعد الغداء ، رددت المظروف لصاحبته « ماجورى » فى هدوء بدون تعليق ، ثم سألت البنات أن تتبعنى إلى حجرة أخرى ، بينما ظلت المعاونة مع الأولاد . وكانت البنات تتطلعن إلى معرفة سبب هذه النقلة ، متسائلات عما إذا كن قد ارتكبن ذنباً ما . فأجبتهن لتوى أنه لن يكون ثمة عقاب ألبتة ، وإنى أردت التحدث إليهن لأنى شعرت بأن شيئاً يبلبل خواطرهن ، قد يساعد على إيضاحه أن نتحدث عنه فى صراحة ، وأشرت إلى إلى المظروفات بقولى إنى استنتجت من الهياج والكتمان اللذين اكتنفاها أنها تتصل بعلاقات الأولاد بالبنات ، أعنى بالمسائل الجنسية . وكان الجواب على هذا ضحكًا مكبوتًا وتعليقًا بأنى أحسنت الاستنتاج حقًا . واستطردت قائلة بأنى أعرف عن خبرة أن من الطبيعى أن تهتم البنات فى سنهن بهذا الموضوع وتساءلت عما إذا كانت ما تزال ثمة أسئلة تردن سؤالها ، مردفة أنه يسرنى أن أحاول الإجابة عنها .

فقالت « إريكا » : إنها قد اشتركت مع « ماجورى » فى إعداد هذا المعجم فى البيت ، وإن « جان » قد أقنعتهما بأن تعدا غيره وأن تأتيابه إلى المدرسة .

لم أستجب لهذا مباشرة ، وكررت عرضى الإجابة عما لديهن من أسئلة . إذ ذاك أكدت لى البنات فى حياء أن أمهاتهن قد أحاطنهن علماً « بكل شيء » . فأجبت بأن معرفتهن بالأمور الجنسية لا تمنع من ظهور المشاكل الجديدة .

وكنت أريد إشعارهن بأنى متأهبة لطرق هذا الموضوع كلما شعرن بالحاجة إلى طرقه. وخفت حدة الضحك المكبوت. ولاحظت إحدى البنات أنى أحضرت معى كتاب الدكتور « ليفين » : « كيف ينمو الطفل ». فطلبن منى أن أقرأ الكتاب عليهن. ولكن تبين أن معظم البنات قد قرأنه بالفعل. فاقترحت أن نتأمل الصور سوياً ، فوافقن على هذا الاقتراح فى حماس.

وجاء ذكر كلمة "فرج" بصدد رسم تشريحى للمرأة ، فضحكت بعض البنات فى ارتباك عظيم. فأسكتتهن الأخريات وواصلنا الحديث. ولما وصلنا إلى تلقيح البويضة؛ ولا سيما فى حالة التوائم ، كان الموضوع قد استغرقهن كل الاستغراق. وحين بلغنا إلى صورة طفل أثناء الولادة ، واستخدمت كلمة فرج مرة أخرى ، كان ثمة صمت لم تقطعه سوى « جان » بقولها : « لم يضحك أحد كما ترين يا مس ميللر ». وواصلنا تقليب صفحات الكتاب فى اهتمام بالغ ، ونحن لا ننفك نذكر الخبرات القريبة المأخذ بالنسبة إليهن. ولما فرغنا من الكتاب ، أخذن فى الحديث عن حيواناتهن المفضلة وكيف تتزاوج ، وكيف أن معظم الحيوانات لا تتزاوج إلا فى فصل معين ، لأنها خالية من عواطف الحب التى تملى على بنى البشر البقاء أبداً مع نفس الزوج.

واضطررنا للتوقف لأن الساعة قد أشرفت على الثالثة. ولما رجعنا إلى الفصل رأيت بعض البنات يذهبن إلى سلة المهملات لتمزيق المظروفات فى استغراق دون أن يذكرن عنها شيئاً لى أو لغيرى.

وفى اليوم التالى لم أسمع من الأطفال شيئاً عن الموضوع. ولكنى شعرت بأن صداقتى بالبنات قد عُززت وأن دعائمها قد توطدت ».

غير أن ثمة مواقف جماعية أخرى ، لا يجدى فى علاجها تدخل المعلم تدخلا مباشراً ، بل قد يكون مثل هذا التدخل مضراً. ومن أمثلة ذلك ، ما حدث لجماعة من الأطفال فى العاشرة من العمر ، فى نهاية رحلة بالحافلة إلى الأرياف ، دامت أربعة أيام.

قرر « كارل » و « جون » ، قبيل رحيل الحافلة ، أن يكيدا لـ « مارك ».

وكان « مارك» قد اصطاد سلحفاة بحرية كبيرة ، اعتزم أن يجيء بها إلى المدرسة . فما كان من « كارل» إلا أن أخفى السلحفاة تحت مقعده ، وقال لـ « مارك » إن الصندوق الذى يحتويها قد نُسى خارج الحافلة . وخرج « مارك » يبحث عن سلحفاته ؛ وفى غيبته أفضى « كارك » و « جون » إلى سائر الأطفال بخديعتهما . حدث ذلك فى الحافلة ، بينما المعلمة ومساعدتها فى الخارج تعاونان السائق على حمل بعض المتاع . ولما دخلت المساعدة الحافلة، رأت السلحفاة تحت المقعد ، فطلبت من « كارل » أن ينادى « مارك » ، لأن ساعة الرحيل قد أزفت وناداه « كارل » ، ولكن « مارك » لم يسمعه لأنه كان داخل البنجل، وفى تلك الأثناء، شمل الأطفال ضجر الانتظار وألحوا فى الرحيل مباشرة . وعند ما أقبلت المعلمة ومعها « مارك » وطفل آخر كانت تبحث عنه ، كان الغضب قد تملك جميع الأطفال . وكان «كارل » على وجه التخصيص قلقاً على العودة إلى البيت فى الموعد المحدد ، فقلب باقى الأطفال على « مارك » بقوله إن مسئولية التأخر فى الرحيل تقع على عاتقه . (صرح « كارل » للمعلمة فيما بعد أن ما أثار غضب الأطفال هو ادعاء « مارك » عند عودته أنه كان يبحث عن الولد الضال ، لا عن السلحفاة البحرية) .

وهبت العاصفة عند ما دخلت المعلمة الحافلة برفقة الولدين . وتعالت الأصوات بالسباب : «كذاب ، كذاب دائماً » : « مفترى ، يحسن الكلام ، ولا عراك . لا يتشاجر إلا مع البنات أو من هو أضعف منه » . « جبان — أجبن من أن يركب حصاناً » . « دائم الزهو بأنه يرد على أمه » . « ياسمين يا غبى » . « فلنجعله يبكى كما يبكى الآخرون » . « أريد أن أراه وهو يبكى » . (تلك كانت صرخة البنات خاصة). «فلنطرده من الجماعة كما طرد " فرانك " . " فرانك " ولد طيب ، فليحل " فرانك " محله » . « لقد كان ينشر الجراثيم بزكامه . لا تقتربوا منه » . « ومن يريد أن يقترب منه ؟ » .

واستمر السباب طوال الرحلة ، ولم يهدأ إلا حين أمرتُ السائق بالتوقف ، ووقفت الحافلة ثلاث مرات قبل أن يتمالك الأطفال أنفسهم ، فتم الرحلة فى

شيء من النظام . ولم ينقطع الأطفال عن التهامس بما يسيء إلى « مارك » ، وكأن هذا الأخير غير موجود . وأخذوا يوزعون الحلوى فيما بينهم فى كرم بالغ متجنبين « مارك » . وعم الرحلة جو قاس مرير ، لم يؤازر فيه أحد « مارك » . وجاءت أقسى الملاحظات من أقرانه المقربين إليه .

ولم يكف « مارك » عن التحديق من النافذة ، دون أن يبدى أية مقاومة ، وكان فى المبدأ يسخر منهم مردداً « بى . . . بى . . . بى » ، ولكنه لم يلبث أن لاذ بصمت عنيد وهو يقاوم علامات الانهيار .

ولما اقتربنا من المدرسة ، خفف الأطفال من وطأة عدوانهم على « مارك » وتهيأوا لاستقبال أهلهم . وترك « مارك » الحافلة فى صمت وتغيب عن المدرسة فى اليوم التالى « لمرضه » .

فلننظر فى بعض عناصر هذا الحادث . أن أول ما يسترعى انتباهنا هو النحو العجيب الذى انتشرت به عدواه « كارل » لـ « مارك » فشملت الجماعة بأسرها . وقد جرفت العدوى الوجدانية جميع الأطفال ، رغم علمهم بأن « مارك » ليس مسئولا عن إعاقة الرحيل . ومن العسير أن نحدد كل العوامل الفعالة فى هذا الموقف ، غير أن بعضها كان واضحاً جلياً . فقد هيأ التربة لظهور ظاهرة الاضطهاد هذه ، وجود الكثير من الضجر والقلق والعداء المستتر فى الجماعة . فقد طلب الأطفال قبل الرحيل المكوث ساعتين إضافيتين ، ولكن السائق لم يجب مطلبهم . وما أن اتخذوا أماكنهم فى الحافلة ، حتى بدأ الهياج بصدد تأخر الرحيل ، وكان « كارل » فى تحريضه على الكيد لـ « مارك » ثم على مهاجمته له ، يثأر لنفسه من سلسلة من الانكسارات التى أنزلها به « مارك » فى المدرسة . كذلك كان لـ « مارك » مشاكله الشخصية وكان سلوكه مدعاة لكراهية الغير له : وقد تجلى بعض هذه الكراهية فى تعليقات الأطفال التى سبق اقتباسها . و « مارك » طفل عدوانى مولع بإغاظة من هم أضعف منه من أعضاء الجماعة ومهاجمتهم . ولم يكن يقوم فى الفصل إلا بالحد الأدنى من العمل ، وكان يقضى جل وقته فى قراءة الكتب الفكاهية أو فى اللعب

مع الحيوانات . ومن أسباب المكر به فيما يتعلق بالسلحفاة البحرية ، اشمئزاز الأطفال من ولعه بتشريح الحيوان . ولا ريب أنهم قد اعتقدوا أنه سوف يقضى على السلحفاة لتشريحها . وثمة عنصر هام هو ظهور « مارك » أثناء الرحلة بمظهر العاجز الأعزل . فقد اختفت منه فى الأرياف تلك الثقة العدوانية التى كانت تشع منه فى المدرسة ، وتبدى محلها خوفه الأصيل . فقد كان يخشى ركوب الخيل ، ويظهر فى المخزن حرصاً شديداً فى حين كان الآخرون يشغفون بمعاونة الفلاح فى العناية بالماشية . ثم إنه كان يبدو قلقاً إذا ماجن الليل .

ولنا أن نتصور ماذا كان يحدث إذا كانت المعلمة فى الحافلة و « كارل » يخفى السلحفاة . أكان ردع « كارل » كافياً للحيلولة دون انتشار العدوى السيكولوجية ؟ من العسير الإجابة عن هذا السؤال . ولكن ثمة شيئين واضحين . الأول هو وجود تيارات من التذمر والعدوان داخل الجماعة ، وهذه التيارات كانت تتلمس السبل للإفصاح عن نفسها . ثم إن هناك الضغينة التى كان يضمرها « كارل » لـ « مارك » ، وتصميمه على الثأر منه قبل انتهاء الرحلة ، لا سيما أن مواطن العجز فى « مارك » تكشفت واضحة للعيان .

واعتزمت المعلمة مناقشة حادثة الحافلة مع الجماعة فى اليوم التالى . ولكن تبين عدم ضرورة هذا الإجراء . إذ أقبل عليها صديقان من أصدقاء « كارل » لإبلاغها أن الأمور قد سويت بين الأولاد . فقد أجمعوا الرأى على أن « مارك » يستحق بأفعاله امتهان الجماعة وإن كان ليس من العدل الاستفراد به كما فعلوا . وقد تلفن إلى « مارك » فى منزله أحد خصومه وفى اليوم التالى شرح له « كارل » وجهة النظر هذه ، بالاشتراك مع بعض الزملاء .

وتتبع العوامل الجماعية ساعدنا على دراسة الاضطرابات لدى كل طفل وتقييم أهميتها . وهكذا أصبح من السهل أن نحدد إذا كانت مشكلة معينة مرتبطة بالأسباب النفسية أو بالعناصر الجماعية فى المحل الأول . وهو ما يتضح من دراسة حالة طفل فى العاشرة من عمره يدعى « بيل » حضرت أمه إلى

المدرسة قائلة إن ابنها قد صار شقيًّا فى الفترة الأخيرة . فهو متقلب المزاج ويشكو مغصاً متصلا . وكان فيما سبق متحمساً لجماعته المدرسية ، ولكنه الآن حاقد على الأولاد الآخرين ، غير راض عن نفسه . ووصف لعب الكرة بأنه « مقيت » وأنه شخصيًّا قد صار « غبيًّا فى الحساب » . وحين قرر ذات يوم المكوث بالمنزل ، أخبرته أمه أنها ستذهب إلى المدرسة وتبحث الأمر مع المعلمة . لم يعترض « بيل » على ذلك وإنما رجاها أن تطلب من المعلمة أن تمنع « جورج » و « آرثار » عن مهاجمته . ولما سألته عما يمنعه من الدفاع عن نفسه أجاب بأنه «لا يحب العراك» ، وأردف هامساً : إنه إذا طلب ذلك من المعلمة بنفسه ، لظهر لها بمظهر « المخنث » .

وبمراجعة الأمر مع المعلمة ، اتضح أن مسلك « بيل » فى المدرسة لم يتغير أى تغير ملحوظ . فقد كان محبوباً من البنات وكان يخرج معهن بين الفينة والفينة . أما الأولاد فكان « بيل » ذا علاقة طيبة بهم ، وإن كانت علاقته بـ « جورج» قد اعتراها بعض الفتور . و « جورج» هو أنضج صبى فى الجماعة وأقواهم بنياناً ، فكان موقراً من الجميع . وقبل إجازة الشتاء ، كان « بيل » يلى « جورج » فى الشهرة ، وكان له بمثابة ساعده الأيمن . وكان « جورج» يقدّر فى « بيل » خصب الخيال والمهارة فى تركيب المواد الكيمائية على وجه التخصيص . وما إن دخل « آرثار » الفصل فى بداية الربيع ، حتى بدأ يحل محل « بيل » فى علاقته بـ « جورج» . ولم تكن أسباب تحول هذا الأخير إلى « آرثار » واضحة كل الوضوح . وكل ما تناهى إلى علمنا هو أن رابطة الصداقة كانت تربط بينهما إبان إقامتهما فى معسكر صيفى فى العام الماضى .

وبعد زيارة الأم ، انتحت المعلمة بـ « بيل » جانباً ، قائلة : إنها ترحب بفرصة الحديث معه لتقويم ما اعوج من شئونه . ولكن « بيل » تمسك بأن المسألة لا تعدو أنه يريد أن يكف « جورج » و « آرثار » عن ضربهما إياه بعد الانصراف من المدرسة . (وقد علمنا فيما بعد أن « آرثار » هو المحرض

على الضرب) . فكان « بيل » عاجزاً عن إدراك السبب الأساسى فى تعاسته ولم تلح المعلمة عليه ، وإنما وعدت بمفاتحة « جورج » و « آرثار » . وقد قابلت بالفعل كلاًّ منهما على حدة . أظهر « جورج » فهماً كبيراً للوضع وقال صراحة إنه يفضل أن يجعل من « آرثار » صديقه المقرب . فأمنت المعلمة على كلامه بأنه حر فى اختياره . ولكن « جورج » تعهد بمنع « آرثار » عن إزعاج « بيل » . وقد تمكن « بيل » بالتدريج من معالجة الأذى الذى لحقه من فقد صداقة « جورج » بفضل ما لقى من تشجيع من أهله ومن المعلمة . فقد نقل إلى قسم المعامل والحوانيت وسرعان ما توثقت علاقته بيافع آخر ، يشترك معه فى هواية حيل التصوير الشمسى . وكان هو الطرف المسيطر على هذه العلاقة ، كما كان محبوباً من جماعته ، بل أصبحت تربطه بـ « جورج » صداقة سطحية . غير أن العداء المتبادل لم ينقطع مع « آرثار » . ولم تمض أسابيع قليلة حتى قررت الأم أن الأعراض المقلقة الأصلية قد تلاشت تماماً .

تؤيد خبرتنا المدرسية صدق الدعوى بأن الأطفال أهل لمناقشة مسلكهم الفردى والحكم على تقدم الجماعة ، إذا ما هيأنا لذلك الجو الملائم . وهذا يصدق أيضاً على أصغر الأطفال سنًّا . وإنى لأذكر حديثاً مشجياً بين أطفال فى الثالثة من العمر عن أهمية التودد إلى الأطفال فى أول زيارة لهم . وقد لا يكونون قد استخدموا فى التعبير عن أنفسهم العبارات الصحيحة إلا أنهم قد أحسوا قطعاً بما يشعر به الغريب بينهم ! ونحن نشجع معالجة الصراع فى الجماعة لحظة ظهوره ؛ ويكون اهتمامنا فى هذه المناقشات ، موجهاً إلى فهم الغير واحترام حاجاتهم وحاجات الراشدين أيضاً . وطالما يرضى الراشد عن نفسه ونقائصه دون الشعور بالحرج ، يستطيع الأطفال الإفصاح عن أعمق أفكارهم وما يشغل بالهم دون خشية الثأر . وقد شجعت حرية التعبير عن المشاعر الشخصية ، التفكير الجماعى ذا الطابع الموضوعى الصادق ، وقللت من خطر التذرع بالمثل العليا اللفظية . وقد سمح هذا أيضاً بانطلاق السخط والمشاعر السالبة فى الأفعال أو فى النقاش ، دون تهديد لثبات الجماعة .

وكان المعلم يستعين بالخبير النفسى ، كلما كان ذلك ممكناً ، قبل أن يطرح على الجماعة مناقشة إشكال جماعى معين . وفى المواقف المعقدة ، حين تتمرد جماعة من الأحداث على المعلم مثلا ، يعمل الخبير مع الجماعة ذاتها .

وبجانب الاجتماعات الفردية بالمعلمين ، كانت تعقد حلقات بحث على فترات منتظمة، غايتها زيادة الوعى النفسى لدى المعلمين ، وموضوعها دراسة ديناميات الجماعة والفرد .

وغنى عن القول أن أية محاولة من هذا القبيل لاتنجح إلا إذا تضافرت فيها الجهود . فالانعزال فى برج عاجى لا يفضى إلى تفهم ماهية المدرسة وماهية من بها . والخبير النفسى لا يمكنه أن يرى الجماعات تتفاعل إلا إذا واصل مشاهداته فى الفصول المدرسية والمعامل والملاعب ، بحيث يصبح جزءاً من تيار الحياة المدرسية نفسها .

ما ينبغى أن نعمله

إذا كنا لم نذكر حتى الآن كل الأسباب المسئولة عن « تفكك الجماعات » فإن التجارب السابقة التى استعنا فى القيام بها بالمفاهيم والطرق السيكولوجية الجماعية، تشير قطعاً إلى فائدة هذا المنهج فى التربية . وفى اعتقادى الراسخ أن عدم فهم العوامل الجماعية يحرمنا من مصدر عظيم من مصادر الصحة العقلية فى مدارسنا .

ولتوفير الراحة الوجدانية أهمية خاصة فى هذه الأيام التى تنتشر فيها أخطار الحرب ويعم فيها القلق والاضطراب . ويشير عدد من أساطين الطب النفسى وعلم النفس إلى ضرورة تبصير الناس بأنفسهم وبغيرهم عن طريق المناقشات الجماعية . وقد تخيل « كيوبى » شيئاً من هذا القبيل حين قال : « إنى أتصور جماعات النقاش النزيه فى رياض الأطفال والمدارس الأولية ، تقوم بمساعدة الأطفال على التفكير فى مشاعرهم الحقة نحو البالغين وغيرهم من الأطفال ،

ووضعها موضع النقاش الصريح ، سواء كانت موجهة نحو البالغين والأطفال فى مدرستهم أو خارجها »[١]. وقد وضع « جيرسيلد » برنامجاً مدرسياً شاملا يرمى إلى مساعدة الأطفال على تفهم الوقائع السيكولوجية فى الحياة اليومية واستيعابها . يقول : « للإنسان منذ طفولته الأولى قدرة ، لم تكن فى الحسبان ، على تعلم كيف يواجه وقائع الحياة ويفهمها ويعالجها معالجة إنشائية »[٢].

وسواء كان الغرض هو النقاش أو الترغيب فى التحصيل الجامعى أو تهيئة الجو الديموقراطى أو تلقين الخبرات المعنية ، فهناك العناصر السيكولوجية الجماعية ، ينتفع بها من تدرب على وقت استخدامها وكيفيته . وقد يضيع الجهل فرصة الاستفادة منها . وقد يسىء استخدامها أقوام لا ضمائر لهم لأغراض شخصية أو أديولوجية .

فهناك إذن حاجة كبرى إلى ضم مفاهيم ديناميات الجماعات وطرقها إلى برامج التدريب والكتب المدرسية المخصصة للمعلمين والإخصائيين الطبيين والنفسيين الذين يشتركون فى العمل مع المربين .

---

(١) Kubie L.S., "The future of preventive psychiatry", *Mental hygiene news*, XXIV, 1948, p. 3.

(٢) Jersild. A.T., "Self-understanding in childhood and adolescence, *The american psychologist*. VI, 1951. p. 122.

الفصل العاشر

التحليل النفسى والعلاج النفسى الجماعى

العلاج النفسى الجماعى

العلاج النفسى الجماعى طريقة خاصة من طرق العلاج النفسى ، تتضمن تنسيق استخدام العناصر الدينامية الجماعية لعلاج المرضى النفسيين . وقد أرخ عدد من الكتاب ، منهم « سلافسون »[1] و « كلابمان »[2] ، لتطورها التاريخى مما يغنينا عن تكرار ما قيل فى هذا المقام .

كان « توماس » من أوائل من ميز بين مختلف طرائق العلاج الجماعى . وقد خلص إلى أن من المستطاع تقسيمها إلى قسمين كبيرين : (١) الطرق الكبتية الإيحائية و (٢) الطرق التحليلية . وتهتم الأولى بضبط الدوافع وكبتها وتوجيهها وجهة الدين والعمل وغيرهما من النشاط ، بينما ترمى الثانية إلى تخفيف وطأة الكبت لدى المرضى وإطلاق الطاقة النفسية الحبيسة والاستبصار بالدوافع اللاشعورية وتحليلها[3]. وفى العقد الأخير ، عملت مدارس العلاج النفسى الفردى جميعها ، من طريقة « روجز » فى العلاج « غير الموجّه » إلى التحليل النفسى التقليدى ، عملت على تطبيق بعض نظرياتها ومناهجها على علاج المرضى داخل الجماعات .

وقد اتفق أئمة البحاث فى هذا الميدان على أن العملية العلاجية واحدة فى الفرد والجماعة ، رغم اختلاف الوضعين . يقول « سلافسون » مثلا : « لا يقوم العلاج الجماعى على نسق من الديناميات أوعلم النفس المرضى ، مختلف عن

---

(١) Slavson, S.R., *Analytic group psychotherapy*, pp. 1-14.

(٢) Klapman, J.W., *Group psychotherapy. Theory and practice.*

(٣) Thomas. G.W., "Group psychotherapy. A review of the recent literature". *Psychosomatic Medecine*, V, 1943, pp. 166-180.

النسق الذى تقوم عليه صور العلاج النفسى الأخرى »[١]. بيد أن للعلاج الجماعى فوائد وقيوداً يحددها نوع الاضطرابات النفسية وأعمار المرضى ، بل مراحل العلاج نفسه ، شأنه فى ذلك شأن أية طريقة علاجية أخرى . ثم إن هناك أنماطاً ومستويات منوّعة من العلاج الجماعى . فبالنسبة للأطفال حتى سن الرابعة عشرة تستخدم أنواع مختلفة من جماعات النشاط أو اللعب[٢] . « فالعلاج الجماعى عن طريق النشاط الحر » ، طريقة ابتدعها « سلافسون » تعتمد على التعبير السلوكى عن النوازع والأنماط السلوكية والصراعات التى تحدث فى المواقف الجماعية . والعناصر العلاجية الجوهرية فيها هى تفاعل المرضى والمعالج فى جو من الحرية والقبول . وعلى الضد من جماعات « النشاط » ، هناك طرق تستخدم فى علاج الأطفال والأحداث والبالغين ، محورها التعبير اللفظى وتفسير المقاومات والنوازع اللاشعورية .

وقد تناولت مصنفات العلاج النفسى الجماعى دراسة طرق العلاج الجماعى المنوعة ومدى فاعليتها[٣] ؛ فلا حاجة إذن لوضعها موضع النقاش . ولكنى أود أن أجمل بعض الأفكار التى عبرت عنها فى موضوع آخر[٤]. فالعلاج النفسى الجماعى فى جملته ، نمط من العلاج أقل عمقاً من التحليل النفسى . ومن المسلم به أن العلاج الجماعى عن طريق النشاط الحر ، ينصب أولا وبالذات على أنماط تكيف الأنا المريض . وحتى العلاج التحليلى ، لا يسمح بمعالجة الصراعات اللاشعورية العميقة ، نظراً لوجود عدد من الأفراد فى موقف اجتماعى معين . أما الاضطرابات المتصلة بالجوانب الخارجية من الشخصية ، فمن الأيسر تقويمها عن طريق المؤثرات الجماعية ، وإن كانت القدرة على

---

(١) Slavson, S.R., *op. cit.*, p. 13.

(٢) Slavson, S.R., "Differential methods of group treatment in relation to age levels", *The nervous child*, IV, 1945, pp. 196-210.

(٣) Slavson, S.R., et. al., *Bibliography on group psychotherapy*, New York, American Group Therapy Association, 1950.

(٤) Scheidlinger, S., "Group therapy — Its place in psychotherapy", *The journal of social casework*, XXIX, 1948, pp. 299-304.

التغير والنمو — حتى بالنسبة للطبقات النفسية العميقة — تكون أعظم لدى الأطفال والأحداث .

المفاهيم الفرويدية والعلاج الجماعى

إن متابعة ما كتب فى العقد الأخير ، يدل على تزايد الاهتمام الذى يوجهه بعض المحللين إلى إمكانيات العلاج الجماعى . وهكذا يتحدث « ننبرج » مثلا عن التحليل النفسى الفردى بمثابته « جماعة من فردين »[١]. ويؤيد « بيرمان » هذا الموقف ثم يسترسل فى الحديث عما يسميه « بتوسيع المريض للجماعة الثنائية توسيعاً سيكلوجياً »[٢]. ويورد أمثلة على ذلك من مقابلة المريض غيره من المرضى عرضاً . واتصاله بكاتبة السر وبغيرها من الإخصائيين الذين يحال إليهم المريض .

وبجانب هذا الاتجاه ، هناك ميل أسبق وأوضح بين المعالجين الجماعيين إلى استخدام المفاهيم التحليلية الخاصة بالمرض والعلاج . ومع ذلك فقد كانت معرفتهم بنظريات السلوك الجماعى عند « فرويد » ناقصة مبعثرة . ويعد « شيلدر » من المؤلفين الذين تتفق كتاباتهم وجوهر أفكار « فرويد » . وقد اقتبسنا فيما سبق آراءه فى الموضوع . ويتقبل « ويندر » صراحة دعوى « فرويد » الخاصة بالروابط اللبيدية فى حياة الجماعة ، فيقول : « إنى شخصياً متفق مع « فرويد » فى قوله فى كتاب علم النفس الجماعى وتحليل الأنا ، إن علاقات الحب (أو الروابط الانفعالية) هى جوهر العقل الجماعى »[٣].

---

(١) Nunberg, H., "Transference and reality", *International journal of psychoanalysis*, XXXII, 1951, pp. 3-4.

(٢) Berman, L., "Psychoanalysis and group psychotherapy", *The psychoanalytic review*, XXXVII, 1950, p. 159.

(٣) Wender, L., "Group psychotherapy", in *Group psychotherapy. A Symposium* (J.L., Moreno, editor), p. 111.

وحين تناقش « بيديرسون — كراج » الحيل اللاشعورية فى مختلف أنماط العلاج الجماعى ، تبدو على اتفاق مع ملاحظات « فرويد » عن الظواهر الجماعية . وهى تبرز خاصة العناصر النكوصية وغلبة العمليات اللاشعورية فى الجماعات[١]. وفى مجلد أخير عن العلاج الجماعى . يبدى « كلابمان » قبولا تاماً لنظريات « فرويد » فى علم النفس الجماعى . بما فى ذلك فرض النشوء النوعى المتعلق بالعشيرة الأولية ، وهو فرض مشكوك فى صحته . ويخلص « كلابمان » من ذلك إلى أن التوحد بين الأعضاء وبالقائد هو جوهر الجماعة . يقول : « للمرء أن يرفض هذا التفسير التحليلى ، ولكن لا مفر من التسليم بأنه ما من تفسير آخر ينطبق على الواقع بمثل هذه الدقة »[٢].

ويؤكد معظم المشتغلين فى هذا الميدان أن العلاج الجماعى يعيد تكوين المواقف العائلية . يقول « آكرمان » مثلا : « إن المعالج الجماعى هو بديل الوالد ، والجماعة ذاتها بديلة الأسرة . والمعالج يرمز للوالد الطيب ؛ فهو محب ، متسامح ، لا يعاقب ولكنه يكبح بسلبيته ، إذا اقتضى الأمر ، جماح العدوان المفرط »[٣] . وقد وجد « ستاوت » فى جماعاته العلاجية « أن كثيراً من الأفراد يسقطون على الجماعة علاقاتهم بالأم والأب والإخوة إسقاطاً سافراً . أعلن أحد المرضى من تلقاء نفسه : " ذلك الرجل يتحدث مثل أبى تماماً " . وسرعان ما تظهر المواقف العائلية المنوعة وتختفى ثم تظهر ثانية فى مستويات مختلفة حين ينضم إلى الجماعة أعضاء جدد »[٤]. ويرتئى « وولف » أن « الجماعة ، إذ تعيد تكوين الأسرة ، تؤثر فى أعضائها تأثيراً إنشائياً جديداً »[٥]. هذه

---

(١) Pederson-Krag, G., „Unconscious factors in group therapy," *The psychonalytic quarterly*, XV, 1946, p. 180.

(٢) Klapman, J.W., *Group psychotherapy : Theory and practice*, p. 49.

(٣) Ackerman, N.W., "Dynamic patterns in goup psychotherapy," *psychiatry*. VII. 1944. p. 345.

(٤) Stoute, A., "Implementation of group interpersonal relationships through, psychotherapy," *The journal of psychology* XXX, 1950, p. 153.

(٥) Wolf, A., "The psychoanalysis of groups", *American journal of psychatherapy* IV, 1950, p. 45.

الملاحظات تؤيد دعوى « فرويد » بأن الاتجاهات العائلية المبكرة تظهر ثانية داخل الجماعات .

وقد تجاهل بعض المعالجين الجماعيين التحليليين الفروض الأساسية فى السلوك الجماعى ، بل حاولوا دحضها . أنشأ « فولكس » مثلا مذهباً نظرياً طموحاً يدل فيه ما يسميه « بالتحليل الجماعى » على صورة من صور العلاج النفسى وفى نفس الوقت ، على طريقة للدراسات النفسية الاجتماعية . فهو يرى أن « الديناميات التى نشاهدها إبان التحليل الجماعى هى عينها التى تظهر فى الحياة ذاتها وفى الجماعات على اختلاف تكوينها »[١] ، وهو يعرّض أفكار « فرويد » لنقد خطير دون أية إشارة فى المتن أو فى ثبت المراجع إلى كتاب « فرويد » علم النفس الجماعى وتحليل الأنا . فالتحليل النفسى ، فى رأيه ، أهمل اعتبار العوامل الاجتماعية فى الحياة الإنسانية . يقول : « لا يزال " فرويد " وغالبية المحللين اليوم ، ينظرون إلى طبيعة الإنسان الاجتماعية باعتبارها مشتقة من الحب الجنسى أو رد فعل على الدوافع العدوانية المرفوضة »[٢] . ويعرض « فولكس » ، بعد عدد من هذه الدعاوى المتعنتة ، ما يطلق عليه اسم « القانون الأساسى فى ديناميات الجماعات » ومنطوقه : إذا كان فى طوق الأفراد أن يساعد بعضهم بعضاً وهم فى الجماعة ، فذلك « لأنهم يؤلفون فى مجموعهم نفس المتوسط الذى لا يحيدون عنه بوصفهم أفراداً » . وعلة هذا أن كل فرد « يتشبع » بثقافة الجماعة التى ينتمى إليها . والجماعة تنطوى على عناصر مشتركة أكثر مما يلوح لأول وهلة ، رغم تكوينها من أفراد يتميزون بخصائص فريدة . ففى البداية ، لا تبرز إلا الفروق التى تثير « التطلع والعداوة والخوف . وكلما تقدمت الأمور ، زاد الاتفاق بين الفرد والجماعة وقل تعارضهما »[٣] . إن نقد هذه الأفكار نقداً مفصلا ، يخرج بنا عن نطاق هذا الكتاب . فلنكتف بالقول بأن المبدأ الذى يتقدم به « فولكس » مفرط فى تعمياته وأنه

(١) Foulkes, S., *Introduction to group-analytic psychotherapy*, p. 156.

(٢) *Ibid.*, p. 10.

(٣) *Ibid.*, p. 30.

غامض إلى حد الإغلاق ، وأن من الممتنع أن يفسر السلوك الجماعى فى شموله وتعقيده ، حتى إذا كان ينطبق على نوع معين من العلاج يمارسه المؤلف شخصياً .

أما « سلافسون » ، وهو من أبرز رواد ميدان العلاج الجماعى ، فقد بنى أعماله الواسعة النطاق على قضايا التحليل النفسى الرئيسية . يقول : « نحن نسلم بصحة المفاهيم الأساسية التى وضعها « فرويد » وأتباعه فى علم النفس التكوينى والديناميات النفسية وعلم النفس المرضى ، تسليمنا بظواهر الجنسية الطفلية والصراع الأوديبى وبناء اللاشعور ووظيفته »[١]. كذلك يقبل « سلافسون » تقسيم النفس إلى الهو والأنا والأنا الأعلى ، كما يقبل « دينامية الليبدو » ، وعمليات التحويل والتداعى المطلق والاستبصار . ويجدر بالملاحظة أن هذه المبادئ مستمدة كلها من ميدان السلوك والنمو الفرديين ، ومن ميدان علم النفس المرضى والعلاج النفسى ، دون ذكر صريح لآراء « سلافسون » فى مفاهيم السلوك الجماعى عند « فرويد » . ولكنه يشير فى موضع ما إشارة مقتضبة إلى مؤلف « فرويد » فى علم النفس الجماعى ، حيث يقول : « لم يتبين علماء النفس المرضى إلا أخيراً الأسس الجماعية للشخصية والاضطرابات العقلية . وقد ناقش « فرويد » أيضاً هذه المشكلة فى علم النفس الجماعى وتحليل الأنا »[٢]. ويلوح أن النزر اليسير من أفكار « سلافسون » فى ديناميات الجماعات لا تتفق وفروض « فرويد » كل الاتفاق . وقد سبقت الإشارة إلى توكيد « سلافسون » أهمية الأساس الغرزى للتجمع فى الإنسان والطبيعة . كذلك يعتبر الجماعة مؤلفة من ثلاثة أشخاص على الأقل ، مناقضاً فى هذا ما قاله « فرويد » وغيره (أمثال « لوفين » و « رديل ») فى أن الجماعة قد تتألف من فردين . (ولكن لا ريب أننا نتفق جميعاً فى أن العلاج الجماعى يتطلب جماعة من ثلاثة أو أكثر) .

(١) Slavson., S.R, *Analytic group psychotherapy*, p. 11.

(٢) Slavson., S.R., *Analytic group psychotherapy*, p. 11.

العناصر السيكولوجية الجماعية فى الجماعات العلاجية

تكاد تنحصر الكتابات النظرية فى مجال العلاج الجماعى على العملية العلاجية وما تهيئه من تحسن فى أحوال المرضى . تلك حقيقة على جانب عظيم من الأهمية . ذلك لأن الجوانب الدينامية للجماعة ككل ، لم تحظ إلا بقسط ضئيل من الاهتمام ، أو لم تحظ بأى اهتمام على الإطلاق . وبهذا الصدد ، يشير « لوزر » إلى « احتياجنا إلى صياغة مقبولة لعلم النفس الجماعى ولديناميات السلوك الجماعى »(١). ولم تظهر إلا أخيراً محاولة ترمى إلى « الاعتراف المتزايد بالأهمية الهائلة لعوامل مثل تكوين الجماعة والعدوى والتوتر . . . وبإيجاز ، سلم الظواهر السيكلوجية الجماعية برمتها »(٢).

ويثير « سلافسون » مشكلة شيقة معقدة فى آن بادعائه أن العناصر الدينامية الجماعية تختلف فى الجماعة العلاجية عنها فى الجماعات العادية . يقول : « لا يمكن اعتبار الجماعات العلاجية جماعات بالمعنى المألوف الذى ينطبق على الجماعات الاجتماعية أو التربوية التى يكون الفرد غارقاً فيها »(٣) . وهو يرى أن الجماعات العلاجية تتميز بحركة العلاقات ومرونة الأدوار ، وهو ما لا يتوفر للجماعات الأخرى . ويجد « سلافسون » ، بعد تعداد العوامل الدينامية فى الجماعات « العادية » أن « بعض هذه العوامل تظهر فى الجماعات التحليلية ، وهى تؤدى إلى نشاط جماعى موحد أو متماسك . فكل مريض يجب أن يظل وحدة مستقلة تتغير تغيراً باطنياً . فهو لا يستطيع التنازل عن إنيته المستقلة ، كما هو الشأن فى الجماعات العادية ، وإنما يتعين عليه أن يبقى دائماً منفصلا عنها وأن يعمل على حل مشاكله . وهذا الاعتبار يغير من معنى

---

(١) Loeser, L.H., "Editorial", International journal of group *psychotherapy*, I, 1951, p. 5.

(٢) Redl, F., "Resistance in therapy groups". *Human relations*, I, 1948, p. 307.

(٣) Slavson, S.R., *Analytic group psychotherapy*, pp. 9-10.

الجماعة كما يفهم عادة . . . فليس ثمة إشكال جماعيّ أو هدف جماعيّ على الإطلاق »[١].

وليس من العسير أن نعرف بأن الجماعات العلاجية تختلف عن الجماعات الأخرى في بعض النواحي . وذلك لأن العلاج النفسي يدل على طريقة كلينيكية ، يستخدم فيها المعالج علاقته بشخص (أو بجماعة من الأشخاص) ، للتخفيف عن معاناته الشخصية و « إصلاح ما فسد » من شخصيته . يقول « سلافسون » : « يتضمن العلاج النفسي حداً أدنى على الأقل من التغييرات الدائمة في الشخصية بحيث يقل القلق والعداء والعدوان ، وهي المسئولة أصلا عن انكماش الفرد عن الناس أو مهاجمته إياهم خوفاً منهم »[٢]. وقد تعمل الجماعات الاجتماعية التربوية على نمو الشخصية (عن قصد أو عن غير قصد) ؛ ولكن الشقة تظل بعيدة بينها وبين العلاج النفسي الجماعي . وهذا ما تقره الأغلبية من إخصائيي الجماعات . يصرح « تريكر » مثلا في غير لبس : « أن الخدمة الاجتماعية عن طريق الجماعات والعلاج النفسي الجماعي ، مختلفان كل الاختلاف »[٢].

ومن الصعب أن نعرف ما إذا كانت العناصر السيكلوجية الجماعية في الجماعات العلاجية تختلف بالفعل عنها في الجماعات الأخرى ، كما يعتقد « سلافسون » . أليس من الممكن ، على ما ترتئيه سيكولوجية الجماعات عند « فرويد » ، أن نجد في كل أنواع الجماعات ، التي توطدت فيها الأواصر بين أفرادها ، التربوي منها والاجتماعي والعلاجي ، نفس العناصر الدينامية الجوهرية ؟ في هذه الحالة يمكن استخدام بعض هذه العناصر وتقويتها عن قصد ، بينما يظل بعضها الآخر مهملا أو قد يقصد إلى إحباطه .

وفيما يلي مقتطف لاجتماع جماعة علاجية تستخدم النشاط الحر ، أفرادها أطفال في نحو العاشرة من العمر . وفيه يتضح بعض الجوانب الدينامية الفعالة :

Slavson, S.R., (editor), *The practice of group therapy,* p. 31. (١)

Trecker, H.B., *Social group work. Principles and practices,* p. 29. (٢)

كان « سام » يقطع بمنشاره بطة خشبية ، ولكن « دافيد » أخذ يحوم حوله ويشاكسه بأن يلقى كرته فى ناحيته . ودفع « سام » « دافيد » بعيداً عنه ، فضحك « دافيد » قائلاً : إن كرته تحت كرسى « سام » . فأجاب « سام » بكلمة جنسية ولم يدع « دافيد » يستعيد كرته .

وبينما « هارولد » منهمك فى لعبته الخشبية ، عاد « دافيد » إلى مضايقة « سام » ، فتحول الأخير إليه قائلا : « كفى مشاكسة » . ولكن « دافيد » لم ينقطع عن مزاحه ، فما كان من « سام » إلا أن أخذ يلاحقه جرياً . وكان « دافيد » يضحك فى مرح ، وسرعان ما أدركه « سام » وبدأ يعتصره وهو يلعب . ثم قفل راجعاً إلى عمله .

وبعد برهة كان « هارولد » و « دافيد » يمزحان مزاحاً خشناً ، و « هارولد » يطارد « دافيد » فى أنحاء الغرفة .

وكان « أيفرينج » قد أحضر معه بعض صور الطائرات ، وبدأ يعلقها على الحائط قائلا إنه أحضرها لتزيين حجرة النادى . واتجه « إيفان » إليه وطلب منه ، بصوت خفيض ، أن يعطيه صورة منها .

توقف « هارولد » عن مطاردة « دافيد » وأخرج من تحت المائدة كيسة من الورق بها قفازات الملاكمة التى يمتلكها « أيفرينج » . ولبسها كل من « هارولد » و « دافيد » بينما أعلن « أيفرينج » أنه الحكم بينهما . ولكن قبل بدء الملاكمة ، ولى « دافيد » الأدبار وأسرع « هارولد » للحاق به . وتوقف « دافيد » بعد برهة وهو يحمى وجهه بقفازيه ، فانهال « هارولد » على رأسه لكماً . فصرخ دافيد » لاعباً : « النجدة ، النجدة » . ثم خلع كل منهما قفازيه وبدءا يتصارعان . وجرى « دافيد » إلى الردهة فطارده « هارولد » ، فقفل راجعاً إلى الحجرة ثانية عن طريق المدخل الآخر .

إذ ذاك لحق بهما « سام » وطارد « دافيد » . وتمكن « هارولد » ، بمساعدة « سام » من الإمساك « بدافيد » ، فهوى الطفلان على الأرض يتشاجران . وظل « سام » يراقبهما عن كثب .

فى هذه الآونة ، دخل « كارل » الحجرة ، كان يبدو عليه الخوف وهو يشهد المتصارعين ولكنه تمكن من الابتسام ابتسامة ضئيلة . وقصد إلى المائدة البعيدة وبدأ يرسم بعض الرسوم .

وسرعان ما اندمج جميع الأطفال فى هذا المزاح الخشن ، باستثناء « إيفان » و « كارل » ، أجبن الأطفال جميعاً . وظل « هارولد » و « دافيد » على الأرض ، ولكن الأطفال أخذوا يتكدسون فوق « دافيد » . ثم قر قرارهم على تعريته ، بناء على اقتراح « هارولد » ؛ فجرده « سام » من سرواله ، وكانوا على وشك خلع ملابسه الداخلية حين مر المعالج بين « هارولد » و « دافيد » وكأنه يريد الذهاب إلى طرف الحجرة الآخر . إذ ذاك نظر المعالج إلى « هارولد » نظرة مباشرة جعلته يصيح : « كفى يا أولاد » . وارتدى « دافيد » سرواله عن عجل قائلا : « فلنعر الآن أحداً غيرى » . ورجع « سام » و « أيفرينج » إلى عملهما ، بينما واصل « دافيد » و « هارولد » مزاحهما الخشن .

إن تحليل هذه الحادثة تحليلا كاملا يتطلب أن نناقش عدداً كبيراً من العناصر مثل الدوافع الشعورية واللاشعورية فى مسلك كل من الولدين وتأثير مسلكهما فى غيرهما من أفراد الجماعة ، وتوقيت تدخل المعالج وأساسه . ولكنى سأقصر الكلام على بعض العوامل الجماعية وحدها . كان « دافيد » وهو طفل عدوانى قصير القامة ، يتزعم الجماعة إلى وقت الحادث . فهو الذى يبدأ ويقود النقاش الجماعى فى المسائل المحددة مثل نوع المرطبات أو المواد اللازمة للاجتماعات . وكان كثيراً ما يحاول قسر الآخرين على قبول أفكاره . وكان « سام » وهو أنضج من « دافيد » ، منافساً له فى مركز القيادة . وفى عدد من المناسبات ، مماثلة لما سبق وصفه ، كان « سام » يخرج من المعركة منتصراً مظهراً للآخرين أن « دافيد » ليس « صلب العود » كما يدعى . كذلك كان « هارولد » يبيت « لدافيد » قدراً كبيراً من مشاعر المنافسة والعداء . فهو البادئ بفكرة تجريد « دافيد » عن ملابسه ، بالرغم من أن « سام » هو الممهد للطريق بإظهاره ضعف « دافيد » . وكان « سام » هو الذى جرد « دافيد » من سرواله ،

فالحادث السابق هو بمثابة « خلع » جماعى لقائد مفترٍ ، وهو لا يمنع من وجود معنى عميق له (الإخصاء والجنسية المثلية) . ومنذ تلك اللحظة ، استولى « سام » على مقاليد الزعامة واحتفظ بها .

ونورد فيما يلى مقتطفاً من حياة نفس الجماعة ، بعد مضى سنة عليها :

عند ما جلس المعالج إلى المائدة ، أسرع « سام » و « كارل » بالجلوس عن يمينه ويساره . وانتظر الولدان حتى قطع المعالج الكعكة . واقترح « سام » أن يأخذ هو و « كارل » أقرب القطع إليه ؛ وقد أجيبا بالفعل إلى طلبهما . وكان يبدو على الأطفال الحبور وانشراح الصدر وهم يأكلون ويقصون مغامراتهم فى المعسكر . وجاوزت الساعة السادسة بخمس دقائق ، والأطفال جالسون إلى المائدة ، لا يبدو عليهم أنهم انتبهوا إلى أن المعالج قد فرغ فى غضون ذلك من غسل الأقداح كلها . ولم يتحرك الأطفال حتى تناول المعالج سترته استعداداً للرحيل . إذ ذاك نهض « سام » من المائدة قائلا : « هيا بنا » . وتقدم « كارل » لكى يساعده على حمل الزجاجات الخالية إلى المقصف . ثم قال للجميع : « إلى اللقاء » واحتذى الآخرون حذوه .

ووقعت الحادثة التالية لجماعة علاجية قوامها أطفال فى الثالثة عشرة من العمر :

على أثر انتهاء الطعام ، حمل المعالج الأطباق لغسلهما فى الحمام ، والأطفال مستغرقون فى مزاح خشن وسط الحجرة . توجهوا أولا إلى « إد » ، وسأله « جوزيف » : « بم اعتدنا أن نسميك فى العام الماضى ؟ » (كانوا يسمون « إد » بالسيدة لمظهره المخنث) . فاحمر وجه « إد » خجلا ، وكساه تعبير جدى : ولكن الأولاد لم يواصلوا مزاحهم . وتحولوا إلى « آرون » الذى كان يمزح مع « إد » . واقترح « سول » تمثيل مشهد محاكمة يقوم فيه « آرون » بدور المتهم . وكان « سول » هو المدعى العام ، إلا أن الأطفال جميعاً اشتركوا فى استجواب « آرون » . وكان ثمة قهقهة وتقطيب مصطنع . قال « كازول » : « أنت " أيرول فلاين " ، فأين " أيرين دن ؟ " » فأجاب « آرون » : « إنها

ليست معى» . فقال «سول» موجهاً حديثه إلى الآخرين : «هل نقتله ونمثل به أم نطلق سراحه ؟» . ومضى يستجوب «آرون» عن نشاطه ، مستخدماً كثيراً من الألفاظ العامية الجنسية . وقرر الأولاد معاقبة «آرون» بالحبس الانفرادى ، فأغلقوا عليه باب الحمام وأمسكوا بالباب .

فى تلك الأثناء ، كان المعالج قد وضع الأطباق على الرف ولبس سترته . وإذ ذاك صاح «سول» : «كفى يا أولاد» . ففتحوا باب الحمام وأسرع كل منهم لإحضار سترته . وكانت حالتهم النفسية على أحسن ما يكون ، ولم يكن يبدو على «آرون» أنه يلقى بالاً إلى اللعبة التى لعبوها على حسابه . وقبل انصرافهم ، قال : «سول» : «لقد أمضينا الليلة وقتاً ممتعاً يا أولاد» .

من الواضح أن أطفال الجماعات السابقة أكثر اضطراباً من أطفال الجماعات العادية . والحق أن الجو الجماعى فيها أكثر حرية من جو الجماعات العادية ، ووظيفة البالغ فيها مقصورة على مهمة العلاج . ولكن يبقى أن نعرف إذا كانت العمليات الجماعية فيها تختلف عنها فى الجماعات الأخرى . يبدو أن عدداً من الكتاب لا يعتقدون بذلك . يرى «برمان» فى مقالته التى سبق ذكرها ، أن العناصر الدينامية واحدة فى كل الجماعات . ومن ثمة فهو يتكهن بأن «الدراسة التحليلية المباشرة للجماعات» ، تعتبر مساهمة فى المجال الأوسع الذى يختص به علم النفس الاجتماعى . ويقول «مان» : «لا تختلف العمليات الدينامية فى الجماعات العلاجية اختلافاً كيفياً عنها فى الجماعات السوية . إن الاختلاف الأساسى . كمى ، وهو يتجلى فى شدة المشاعر المزدوجة التى يستشعرها الفرد نحو القائد وأفراد الجماعة الآخرين»[1].

ولو أمكن الاتفاق على العناصر الدينامية الأساسية فى الجماعات العلاجية ، لتخلصنا من بعض الإيهام وسوء الفهم الناجمين عن عدم اطراد المصطلحات . ولنأخذ على سبيل المثال مفهوم «تكون الجماعة» فى كتابات «فرويد» و «فينكل» و «رديل» وغيرهم . يرى «سلافسون» أن «أعظم القيم العلاجية

(١) Mann. J., "An analytically oriented study of groups", *Journal of psychiatric social work*, XX, 1950, p. 138.

التى تنفرد بها هذه الجماعات هو انعدام " تكون الجماعة " ذاته » ؛ ومعنى « تكون الجماعات» لديه « وجود وظيفة وعلاقة جماعيتين معينتين تحددان قواعد الجماعة وأنماطها السلوكية » . وإذا كان صحيحاً أن الارتباط الوثيق بين الأفراد فى الجماعات الأخرى يؤدى إلى ظهور الصور التنظيمية ، فإن هذا لا يصدق على الجماعات العلاجية . . . التى تبقى بغير شكل محدد طالما بقيت »[1]. ومن الواضح أن عبارة « سلافسون » قائمة على سوء فى الفهم ، لأن استعمال « فرويد » أو « فينكل » لكلمة « تكوّن الجماعة » ، لا يتضمن ألبتة أية إشارة إلى تنظيم الجماعة أو إلى « القواعد والأنماط» الجماعية . وإنما يدل المفهوم على وجود عمليات انفعالية متبادلة بين نفر من الناس ، تسببت فى جعلهم جماعة بالمعنى السيكولوجى للكلمة . وقد نشأت صعوبة مماثلة من استخدام لفظ « الانفعال الجماعى » . يعترض « سلافسون » على انطباق هذا المفهوم على الجماعات العلاجية ، فيقول : « إن وجود العدوى الانفعالية وتأجج المشاعر فى الجماعة لا يبرران وصفهما بأنهما " انفعال جماعى " . فالأفراد فى الجماعة يتفاوتون فى قدرتهم على التأثر ، وتختلف استجاباتهم كيفاً وكمّاً ، ولو كانوا جزءاً مكملا للموقف الانفعالى الشامل ، وربما اقتربنا ، فى ظواهر الجمهرة ، من الانفعال الجماعى بمعنى الكلمة . غير أن هذا لا يكون فى الجماعات العلاجية الصغيرة »[2] ولنقارن ما سبق بالتعريف الأصلى للمفهوم بأنه « الأحداث الغرزية والانفعالية التى تحدث للأشخاص تحت ضغط العمليات المكوّنة للجماعات »[3] . وليس من الواضح كيف يختلف تعبير « الانفعال الجماعى » عن مبدأ « الخبرة الجمعية » عند « سلافسون » ؛ فهو يحدها بأنها « الخبرات الانفعالية المشتركة بين جماعة من الناس » . وهو يعتقد بأنها موجودة فى الجماعات العلاجية ، ويفسر « سلافسون » « الخبرة الجمعية » « على أساس تكامل الفرد والجماعة » . ويرى أنها «مشتقة من تأثير الجماعة فى حيل الأنا الدفاعية . ففى الخبرة الجمعية ،

---

(١) Shavson, S.R., (editor), *The practice of group therapy*, p. 27.

(٢) *Ibid.*, p. 28.

(٣) Redl, F., "Group emotion and leadership", *Psychiatry*, V, 1942, p. 575.

ينزل الفرد عن بعض استقلاله ، فيصبح خاضعاً للجماعة ، وهى عملية نشاهدها فى الحشود ، حيث يبلغ النكوص أوجه »[1].

لقد بينت هذه المناقشة أن الخلاف النظرى كبير ، حتى بين المعالجين الجماعيين التحليليين ، فيما يتعلق بديناميات السلوك الجماعى ، ولا يمكن الإجابة القاطعة عن الأسئلة التى وضعناها فيما سبق إلا عن طريق توضيح المفاهيم والقيام بالمشاهدات والبحوث المضبوطة . ولن تفضى هذه المحاولات إلى زيادة معرفتنا الهزيلة فى علم النفس الجماعى فحسب ، بل سوف يفيد منها ميدان العلاج الجماعى بالذات . أو كما يقول « سلافسون » : « إن العلاج الجماعى وسيلة علاجية لن تبلغ أشدها إلا حين يتم فهم ديناميات الجماعات »[2] .

---

(١) Slavson, S.R., *Analytic group psychotherapy*, pp. 24-25.

(٢) Slavson, S.R., "Group therapy", in *Progress in neurology and psychiatry* (aE.M. Spiegel, editor), p. 669.

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٠

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٦١٨/١٩٧٠

التحليل النفسى والسلوك الجماعى

يعرض هذا الكتاب لنظريات التحليل النفسى فى سيكولوجية الجماعة ، من حيث نشأة الميول الاجتماعية والقوى النفسية التى تدفع الناس إلى التجمع ، والقوى النفسية المسئولة عن تماسك الجماعات وتفككها ، وسيكولوجية القيادة ، وصراع الأفراد فى داخل الجماعة وصراع الجماعات ، ثم يطبق هذه النظريات على مختلف مجالات النشاط الإنسانى مثل علم النفس الجماعى والتربية والخدمة الاجتماعية والعلاج النفسى للجماعات .

ويتميز الكتاب بموقفه الموضوعى من النظريات السيكولوجية ، كما يعنى خاصة بالحلول العملية لمشكلات العلاقات الإنسانية .

●

سيكولوجية العلاقات الإنسانية

صدر منها :

* التحليل النفسى والسلوك الجماعى
* علم النفس الاجتماعى فى الصناعة
* نظرية فى الانفعالات
* الطب النفسى الاجتماعى
* جنون الفصام
* الشخصية العسكرية
* دراسات فى الجماعات العلاجية

ص ٤٥